القصص القصيرة الكاملة

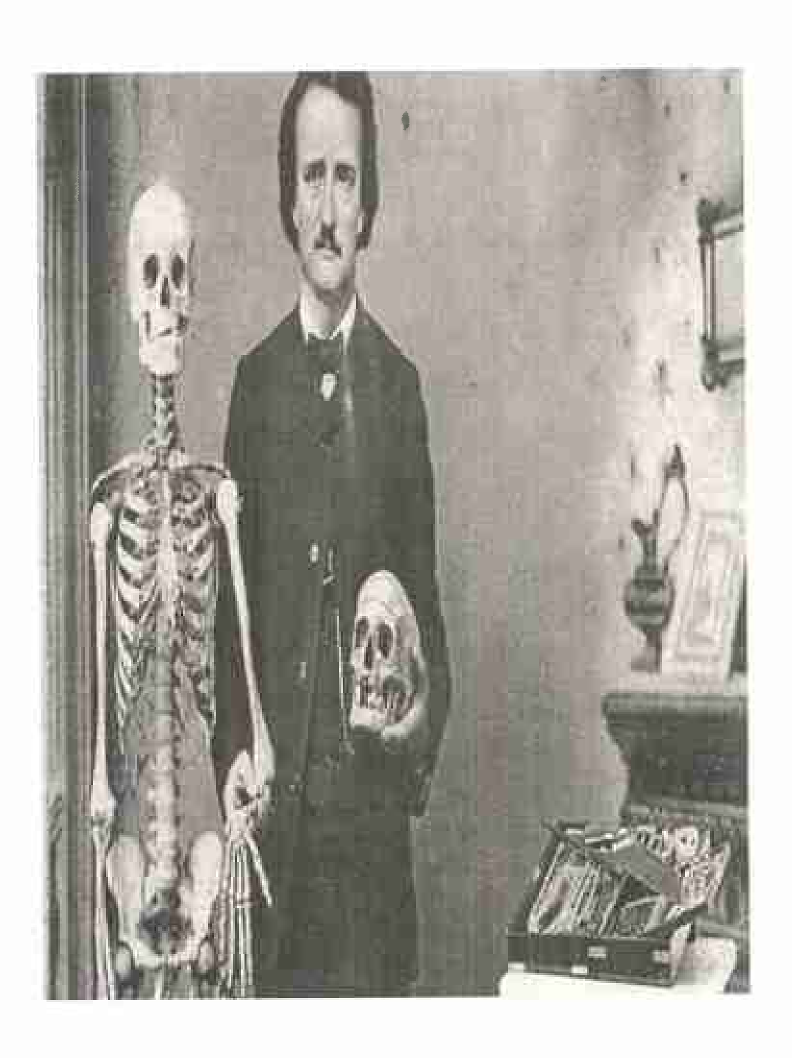
إدجار آلان بو

الجزء الأول

ترجمة: محمد عامر



دار اكتب للنشر والتوزيع



القصص القصيرة الكاملة

إدجار آلان بو

الجزء الأول

القصص القصيرة الكاملة

إدجار آلان بو

الجزء الأول

ترجمة: محمد عامر

الطبعة الأولى ، القاهرة 2019 م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : دعاء السيد

رقم الإيداع : 25094 /2018

I.S.B.N: 978-977-488-606-5



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

إهـداء

إلى أبي وأمي وروح أخي

المترجم

مقدمة

بين يديك عزيزي القارئ الجزء الأول من القصص القصيرة الكاملة للكاتب الأمريكي الشهير إدجار آلان بو (1809 – 1849).

وصل عدد القصص القصيرة التي كتبها آلان بو إلى تسعٍ وستين قصة، يتضمن الجزء الأول هذا ثلاث وعشرين منها، وكذلك الجزئين الثاني والثالث قريبًا. لم أعمد في ترتيبي للقصص التي يتضمنها هذا الجزء إلى ترتيبٍ زمني ولا تقسيمٍ موضوعي؛ فستجد على سبيل المثال قصة (حفلة الموت الأحمر التنكرية) المكتوبة عام **1842** تسبق قصة (ظل: حكاية رمزية) المكتوبة عام **1835**، وستجد قصة (موريلا) ذات الذوق القوطي[1] تسبق قصة (ثلاثة آحاد في أسبوع) ذات الذوق الساخر. كل ما في الأمر أنني فضّلت عمل خليطٍ من "التيمات" المتباينة لكي تتعرف على كل جوانب عالم آلان بو باكرًا.

الحق يُقال أن على الرغم من ذيوع صيت آلان بو في الأدب القوطي، والذي يُعد له أبًا روحيًا، فإن للرجل أعمالًا عديدة بعيدةً عن هذا الذوق لا يُعرف عنها الكثير. أضف إلى ذلك أن عددًا محدودًا من قصص آلان بو حاز على شهرةٍ واسعة؛ ربما لأن نصيب كبير منها لم يعد يُطبع الآن، وبعضها لم يُطبع أصلًا، فيُعرف له مثلًا (سقوط بيت أشر) و(الرسالة المسروقة) و(القلب الواشي)، ولكن ستُفاجأ عزيزي القارئ

---

[1] الأدب القوطي لونٌ من ألوان الأدب الرومانتيكي تسوده أجواء الخوف والغموض، والخرافة أحيانًا. انتشر هذا اللون في إنجلترا وأمريكا إبّان النصف الثاني من القرن الثامن عشر ووصل إلى أوجّه في القرن التاسع عشر. من أهم أعلامه إدجار آلان بو، وماري شيلي، وبرام ستوكر، وآن رادكليف، وغيرهم.

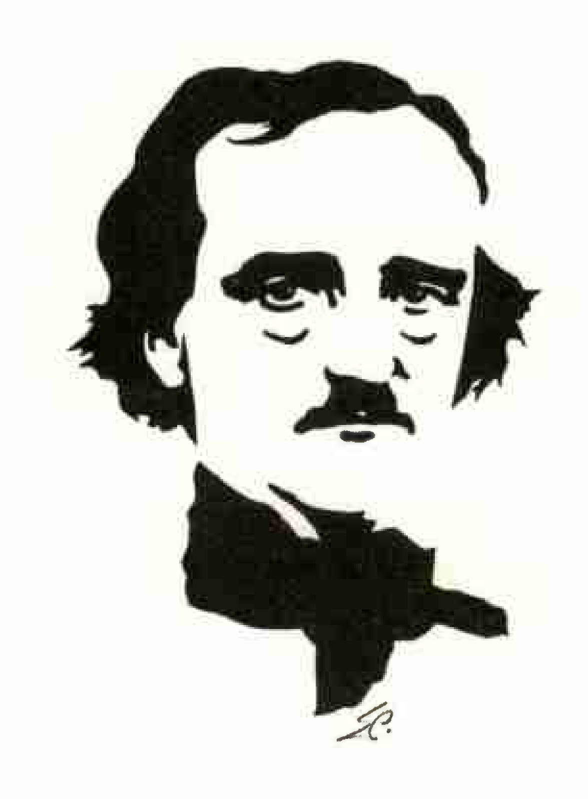
بقصصٍ أخرى لم يُسمع عنها.. ولذا جاء قرار ترجمة القصص القصيرة الكاملة لكاتبنا بعد دراسة متأنية متفحصة قائمة في الأساس على هدف نقل ذوق أدبي فريد من نوعه إلى اللغة العربية.

وبناءً على ما سبق، فأود أن ألفت انتباهك عزيزي القارئ إلى الطبيعة اللغوية لنصوص آلان بو.. تعلم بالطبع أن آلان بو وأعماله ينتميان إلى القرن التاسع عشر، وهو قرن شهد تغيرًا جذريًا في الثقافة والفكر، وبالتالي اللغة. عُرف عن آلان بو ميله لاختراع – إن صح استخدام هذا اللفظ – كلمات وعبارات جديدة، وجاءت بدعته هذه بيِّنة واضحة في قصصٍ مثل (دوق الأومليت) و(شهرة السفهاء) و(شيطان برج الجرس)، بالإضافة إلى ذلك؛ فاللغة الأدبية التي دأب آلان بو على استخدامها صعبة في الأساس، تميل إلى استخدام كلماتٍ، بل وجمل، ليست في الأصل إنجليزية، فستجد خليطًا من الإيطالية واللاتينية والفرنسية في قصصٍ مثل (بيرينيس) و(إليونورا) و(جزيرة الجنيّة).

كان واضحًا إبّان فترة معايشتي لأدب آلان بو أن حياته الشخصية أثّرت كثيرًا على كتاباته؛ وخصوصًا القصص القصيرة منها. وعليه، فقد آثرت أن يطّلع القارئ ابتداءً على حياته الشخصية وظروفها ليتجهّز قبيل الدخول إلى عالمٍ سوداوي كئيب، لكن مدهش ومثير، بأفكار الرجل وعقليته. وفي هذا السبيل أفردتُ الصفحتين التاليتين لاستعراض سيرة آلان بو وما مر به من مرض وعذاب وموت.

المترجم

محمد عامر





سيرة إدجار آلان بو

وُلد إدجار آلان بو في التاسع عشر من يناير **1809** في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية للممثلة البريطانية المولد، إليزابيث أرنولد هوبكيز بو، والممثل دافيد بو جونيور. يُشاع أن اسم (إدجار) مأخوذ عن شخصيةٍ في مسرحية الملك لير للشاعر الإنجليزي ويليام شيكسبير. بعد عامٍ واحد من مولده هجره أبوه، وبعد عامٍ لاحق ماتت أمه بمرض السلّ الرئوي. انتقل الطفل إلى بيت جون آلان، تاجر اسكتلندي في مدينة ريتشموند بفيرجينيا، وبرغم معاملة جون وزوجته للطفل الصغير كابنٍ لهما، إلا أنهما لم يتبنياه رسميًا.

عمّدت عائلة آلان الطفل في كنيسة إيبسكوبال عام **1812**، ثم انتقل الثلاثة إلى بريطانيا عام **1815**، حيث درس آلان بو في مدرسة النحو لفترةٍ قصيرة في إيرفين باسكتلندا (حيث وُلد جون) ثم عاد آلان بو إلى لندن حيث أسرته عام **1816**، واستمر ثلاثتهم هناك حتى عام **1820**، فعادوا إلى فيرجينيا مجددًا وبقوا هناك حتى عام **1824**. لم يمر وقتٌ طويل حتى خطب آلان بو سارة إلميرا رويستر قبل أن يتوجه إلى جامعة فيرجينيا لدراسة اللغات القديمة والحديثة، وإبّان فترة الدراسة التي لم تستمر أكثر من عام فقد إدجار اتصاله بخطيبته وساءت علاقته بوالده.

عاد آلان بو ليجد خطيبته قد تزوجت، فسافر إلى بوسطن ليشغل وظائف مختلفة كموظف وكاتب صحفي ومراجع. انضم آلان بو إلى صفوف الجيش الأمريكي، وفي نفس العام نشر كتابه الأول بعنوان (تامرلين وقصائد أخرى)، والذي جاء على أربعين صفحة اشتملت على عددٍ من القصائد الشعرية، وفي تلك الأثناء انهارت علاقة آلان بو بأبيه تمامًا، حتى أن الأخير لم يخطره بمرض أمه العضال، حتى ماتت وسُمح لآلان بو

بالزيارة في اليوم التالي لدفنها. تعاطف جون معه بعد ذلك وتدخّل لإنهاء خدمته العسكرية وإلحاقه بالعمل في الأكاديمية العسكرية بالولايات المتحدة.

انتقل آلان بو إلى مدينة بالتيمور للعيش مع خالته الأرملة، ماريا كليم، والدة فيرجينيا إليزا كليم، والتي ستكون زوجته فيما بعد.. وفي تلك الأثناء نشر آلان بو كتابه الثاني بعنوان (العرّاف وتامرلين وقصائد صغرى) عام 1829، وفي العام التالي تزوج جون من لويزا باترسون، وربما كان هذا السبب في الخلاف الأخير بين جون وإدجار، والذي أدى إلى تخلي جون عنه تمامًا، حتى أنه حرمه من الميراث في وصيته التي كتبها قبل وفاته، بل والأدهى من ذلك أنه كتب كل ميراثه لابنٍ غير شرعي لم يره قط.

عاش آلان بو سنواته التالية في فقرٍ تام، إلا أنه لم يتوقف عن الكتابة والنشر، فعمل كاتبًا بإحدى جرائد بالتيمور والتي ساعدها لتصبح أكثر الجرائد توزيعًا في الجنوب بأسره. نشر آلان بو قصصه وقصائده ومقالاته النقدية، وعُرف عنه توجيه سهام نقده للكتّاب بلا هوادة إلى حدٍ يصل إلى الإهانة أحيانًا، وفي عام 1845 نشر آلان بو أحد أهم أعماله بعنوان (الغراب)، وبسببه ذاع صيته وصار القرّاء يذهبون إليه لسماع محاضراته وإلقائه.

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. ساءت صحة فيرجينيا زوجته، ولم يدم الحال طويلًا حتى ماتت في شتاء عام 1847 بمرض السلّ في عامها الرابع والعشرين. بدا للجميع أن وفاة فيرجينيا قد حطّمت آلان بو تمامًا، وتوقعوا لحاقه بها قريبًا. وبالفعل توقف آلان بو عن الكتابة، وظل أسير الترحال من مدينةٍ لأخرى. عُثر على آلان بو ميتًا في السابع من أكتوبر لعام 1849 في عمر الأربعين، ومازال سبب موته مجهولًا حتى الآن.

***

القط الأسود

(1843)

لا أتوقع ولا ألتمس منك تصديق الحكاية الوحشية التي سأسردها عليك الآن، وإن كانت عادية للغاية.. وإذا توقعت منك هذا فإني مجنون، فحواسي نفسها ترفض تصديق ما عايشته، إلا أنني لست بمجنون، وعلى يقينٍ تام بأني يقظ لا حالم. الحق والحق أقول أني سأموت غدًا، أما اليوم فأحرر روحي من الحمل الذي أثقل كاهلي جرّاء هذه الحكاية. جل ما أريده الآن أن أضع أمام أعين العالم كله بكل وضوحٍ وإيجازٍ محكمين، وبدون تعليق، سلسلة من الأحداث العادية روّعتني في تعاقبها.. عذبتني ودمرتني. إلا أنني لن أفسرها، فلم أرَ منها إلا الخوف، أما للآخرين فستكون محض سردٍ أنيق لا حكاية مرعبة. لعلي يومًا أجد ضالتي فيما يأخذ بعقلي إلى ما هو مألوف، أجد ضالتي في عقلٍ أكثر هدوءًا، أكثر منطقية، أقل ميلًا للإثارة من عقلي هذا، عقل لا يرى في هذه الحكاية رعبًا، بل حكاية طبيعية تحكمها أحداث ونتائج.

طالما كنت طيّعًا منقادًا منذ نعومة أظافري، كنت رقيق القلب حتى صرت أضحوكة رفاقي. طالما جذبني الولع بالحيوانات على وجه الخصوص. دللني والداي بحيواناتٍ أليفة مختلفة، قضيت وقتي بينها، ولم أعهد سعادةً ولا فرحةً قدر ما كنت حين أطعمها وأداعبها، كبرت هذه الرغبة معي، وفي مراهقتي صارت أحد أهم مصادر سعادتي الأساسية، ولكل من وجد بداخله عاطفة تجاه كلبٍ وفيٍ ذكي لم أجد مشقةً في تفسير طبيعة سروري. هناك شيءٌ ما في حب الحيوانات، فهو حبٌ إيثاري غير أناني يسكن قلبك على عكس حب البشر التافه الواهي.

تزوجت في سنٍ مبكرة، وسعدت أنها ذات نزعةٍ إنسانية تجاه الحيوانات مثلي، لاحظت زوجتي ولعي بالحيوانات الأليفة المنزلية، فلم تضع وقتًا وجلبت ألطف الحيوانات، جلبنا طيور وسمكة ذهبية وكلب من سلالة جيدة وأرانب وقرد صغير وقط.

أمّا بالنسبة للقط فكان ضخمًا وجميلًا، لونه أسود داكن، كما أنه ذكي جدًا، طالما كانت زوجتي تؤمن ببعض الخرافات، فعندما تتحدث عن القط تشير إلى قولٍ قديم يرى بأن القطط السوداء ساحرات متخفيات، ولا يعني هذا أنها كانت جادة في هذا الشأن، ولا أقول هذا إلا لمجرد أني تذكرت ما قالت.

كنا نقول للقط "بلوتو".. حيواني المفضل ورفيق لهوي، أنا من أطعمه، وكان يلازمني أينما ذهبت في أرجاء المنزل، بل كان من المرهق إثناؤه عن مرافقتي إلى الشارع.

استمرت صداقتنا لعدة أعوام، فيها تحوّل مزاجي وشخصيتي بسبب إدماني الخمر (نعم، أخجل أن أقول هذا) تحولًا جذريًا إلى الأسوأ طبعًا، اليوم تلو الآخر كان مزاجي يزداد سوءًا، تصرفاتي متقلبة ولا أبالي بمشاعر الآخرين، استخدمت ألفاظًا قاسية في حق زوجتي، وصل بي الحد إلى الاعتداء عليها بالضرب. لابد أن حيواناتي قد استشعرت ما أصابني. لم أكتفِ بتجاهل حيواناتي تمامًا، بل عاملتها أسوء معاملة، إلا بلوتو الذي ظللت أحمل مودته بداخلي ولم أتعرض له بالإساءة مطلقًا. أسأت للأرانب والقرد والكلب عندما كنت ألاقيهم صدفة في طريقي أو حين يتقربون إليّ بود. إلا أن إدماني الخمر أثّر عليّ ولم ينج بلوتو – الذي صار عجوزًا – من مزاجي المتقلّب.

وفي إحدى الليالي عدت إلى المنزل ثملًا قادمًا من أحد الأماكن التي أتردد عليها في المدينة، خُيّل إلى أن بلوتو يتجنب مقابلتي، أمسكت به فأصابني بأسنانه بخدشٍ بسيط في يدي خوفًا من مزاجي. استشطت غضبًا كالممسوس، فقدت زمام أعصابي وكأن روحي قد غادرت جسدي وارتعشت كثيرًا وكأن شيطانًا يمتلّكني، هممت باستلال مطواة من جيب معطفي القصير وفتحتها وأمسكت بالقط الغلبان من حنجرته ثم أزلت عينًا من

عينيه من مكانها.. يعتريني الخجل، بل الاحتراق والارتجاف وأنا أعترف بهذا الفعل الوحشي اللعين.

ومع انفلاج الصباح عدت إلى رشدي وزالت عني أبخرة غضب المساء، انتابتني نوبة من الرعب والندم على ما اقترفته يداي، إلا أن النوبة لم تمس روحي من داخلها، فلم يضح إلا شعورًا مؤقتًا، غرقت من جديد في ملذات السُكر وغرقت معي ذكرى الأمس.

شُفيَ بلوتو ببطء، صار وجهه مخيفًا بعينٍ واحدة، ومع ذلك بدا بدون ألم.. تجول في أرجاء البيت كالمعتاد، ولكن كلما دنوت منه كان يفر مرتعبًا.. كنت لا أزال أحمل بداخلي الكثير من رقة القلب، لذا فقد آذاني ما رأيت منه من هجران، لكن سُرعان ما تحوّل هذا الشعور إلى إحساسٍ بالغضب، وها أنا أدخل في مرحلتي الأخيرة المؤدية إلى دماري نهائيًا.. مرحلة الانحراف، لم يجد الفلاسفة تفسيرًا لهذه المرحلة، إلا أنني لم أعد الشخص الذي عهدته، أعلم أن هذا الانحراف نبضة من النبضات الأولى في قلب المرء، موهبة بدائية لا تنقسم، عاطفة أولية تقود المرء، ومن منا لم يجد نفسه مئات المرات يرتكب حماقة لمجرد أنه علم بحرمانيتها؟ هي نزعة أبدية بداخلنا، بغض النظر عن تناقضها مع الصواب الذي نعرفه، نعرف الصواب ولذا ننتهكه. وها هي روح الانحراف جاءت لتضع بصمتها الأخيرة، طالما كانت تلك الرغبة في ارتكاب حماقة تقودني إلى إكمال الجرح الذي سببته لبلوتو المسالم.. وفي صباحٍ ما أمسكت بالغلبان وربطت رقبته بحبلٍ وشنقته على فرع شجرة، فعلت هذا ودموعي تقطر من عيني والندم يذبح قلبي، شنقته لأني أعلم أنه أحبني ولأنه لم يعطني مبررًا لفعلي هذا، شنقته لأني أعلم أن ما أفعله محض حماقة، خطيئة مميتة ستعرض روحي للعنات من الله الرحيم الجبّار.

وفي ليلة اليوم الذي شهد ارتكابي لهذا الفعل الوحشي أفزعتني من النوم صرخة حريق، كانت النيران قد أمسكت بستائر غرفتي، البيت كله يحترق.. وبصعوبة بالغة

تمكنت مع زوجتي والخادم من النجاة من الحريق الهائل.. التهمت النيران الهائلة ثروتي كلها.. ومنذ هذه اللحظة سلّمت روحي إلى اليأس.

لست بالضعيف الذي يسلم نفسه لخرافة الربط بين العمل الوحشي الذي ارتكبته والكارثة التي ألّمت بالبيت، ولكنني سأسرد لك تفصيليًا سلسلة من الوقائع ولن أترك أي حلقة فارغة.. ففي اليوم التالي للحريق زرت ما تبقى من بيتي، سقطت كل الجدران ماعدا جدار واحد كان يفصل بين غرف البيت، لم يكن سميكًا، بل انتصب في منتصف البيت وعلى ظهره انتصبت مقدمة فراشي، نجا طلاؤه من الحريق، ربما لأنه طلاء حديث.. تجمّع حول هذا الجدار جمع من الناس يتفحصون جزءًا منه بدقة شديدة.. أثاروا انتباهي.. كانوا يتبادلون كلمات مثل "غريب" و"مدهش" وتعبيرات أخرى من نفس القبيل، دنوت منهم ورأيت صورة قط عملاق ارتسم بنقشٍ بارزٍ خفيف على الجدار الأبيض.. صورة منقوشة بدقة رائعة وحبل حول رقبة القط في الصورة!.

لم أتصوره إلا شبحًا، تعجبت بشدة وسار الرعب في كامل جسدي.. تذكرت أني شنقت القط في حديقة مجاورة للبيت، انطلق جرس تنبيه الحريق وسرعان ما امتلأت الحديقة بالناس، أنزل أحدهم القط من الشجرة وألقاه عبر نافذة مفتوحة إلى غرفتي، لابد أنه فعل هذا بغية إيقاظي من النوم، صارت الحوائط المنهارة ضحية وحشيتي مثل بورتريه ارتسمت عليه صورة القط بفعل الجير والأمونيوم المنبعث من جثة القط.

سرعان ما سكن هذا التفسير عقلي، إلا أن ضميري خالفه، وراح يترك انطباعًا عميقًا على خيالي جراء تلك الصورة، ولأشهرٍ مضت بعد الحادثة لم أتخلص من شبح بلوتو، وإبّان تلك الفترة سكن روحي شعور بالندم، أو ما يشبه الندم، لم يكن أسفي يتعدى شعوري بفقدان بلوتو، توجهت إلى أماكن حقيرة حولي أبحث فيها عن قطٍ شبيه ليحل محله.

وذات ليلة بينما كنت أجلس مخدرًا نوعًا ما في وكرٍ مشبوه، جذب انتباهي خيالٌ أسود يرقد فوق أحد البراميل المعبأة بالخمر (الجن أو الرم) التي تُعد من ضمن أثاث المنزل، ظللت أنظر بثبات إلى البرميل، لم أرَ شيئًا كهذا فوق البرميل من قبل، دنوت منه ولمسته بيدي، قط أسود ضخم جدًا كبلوتو، يشبه بلوتو في كل شيئ تقريبًا، اللهم إلا شيئ واحد؛ كان بلوتو داكنًا تمامًا، ولكن لهذا القط لطخة بيضاء ضخمة غير محددة الشكل على صدره بالكامل.

عندما لمسته نهض توًا وخرخر بصوتٍ عال، ثم تمسّح بيدي، بدا سعيدًا باهتمامي، كنت أبحث عن مخلوق كهذا، وها هو.. عرضت على صاحب الأرض شراء القط لكن لم يطلب مقابلًا، لأنه لا يعرف عنه شيئًا ولم يره من قبل.. ربتّ على ظهره فأبدى ميلًا لمصاحبتي إلى البيت، سمحت له بهذا بينما أخذت أربت على ظهره وهو يصاحبني، وعندما وصلت إلى البيت ألفه وضحى المفضل لدى زوجتي.

إلا أن نفورًا أخذ يكبر بداخلي تجاهه على عكس ما توقعت تمامًا – لا أعرف كيف ولم – فشعرت بالقرف والانزعاج، وسرعان ما تحول شعوري هذا إلى الكراهية التامة، تجنبت القط الجديد، يبدو أن شعوري بالألم والخزي مما اقترفته يداي في حق بلوتو جعلني أتجنب الإساءة إليه، مرت أسابيع لم أتعرض له فيها بالإساءة ولا الضرب ولا القسوة، ولكن بمرور الوقت صرت أنظر إليه بنفور، بل وأهرب منه وأتجنبه كما لو أنني أتجنب مصابًا بالطاعون.

لا ريب في أن ما زاد من كرهي للقط الجديد هو اكتشافي صباح اليوم الذي جلبته فيه أنه كان بعينٍ واحدة مثل بلوتو، وهذا ما جعل زوجتي تتعاطف معه أكثر نظرًا لأنها تملك من الإنسانية قدرًا كبيرًا مثلما ملكت يومًا وكانت صفتي المميزة ومصدر سعادتي.

ورغم نفوري من القط بدأ ولعه بي يزيد.. صار يلاحقني أينما ذهبت بكل عناد صعب أن أصفه لك، أينما جلست يربض أسفل مقعدي أو يقفز على ركبتي ويلاطفني،

كرهت هذا.. وإذا نهضت لأتمشى لاحقني بين قدميّ ويكاد يسقطني أرضًا، أو يخدش ملابسي بمخالبه الطويلة الحادة ليتسلقني إلى صدري، وعلى الرغم من توقي إلى قتله ضربًا إلا أنني امتنعت عن هذا – ولو مؤقتًا – بسبب ذكرى بلوتو المؤلمة، وأيضًا بسبب فزعي الشديد منه.

لم يكن هذا الفزع ناجمًا عن إيذائي له جسديًا، لا أعرف، ربما كان شيئًا آخر، أخجل من الاعتراف، أجل أخجل من الاعتراف بأن الخوف والرعب اللذين زرعهما الحيوان بداخلي رواهما محض وهمٍ لا أفهمه.. طالما أشارت زوجتي إلى البقعة البيضاء على صدر القط التي شكلت الفارق الوحيد بينه وبين بلوتو، لعلك تذكر أنها علامة لا شكل لها، مجرد علامة ضخمة.. إلا أنها في النهاية صارت علامة واضحة المعالم، فعلت هذا تدريجيًا ببطءٍ شديد ظل عقلي يرفضه، صارت صورة شيئ أخشى وأرتجف من ذكره، ولهذا كرهته وفزعت منه، ليتني أقدر على التخلص منه.. صارت البقعة البيضاء الضخمة تأخذ شكل شيءٍ شنيع مخيف؛ المشنقة! أداة الجريمة والرعب.. أداة الموت والفناء!

والآن صار غضبي يتجاوز كل الحدود البشرية، أنا الإنسان المصنوع من روح الله العليّ أخشى حيوانًا أصم قتلت رفيقه بالأمس القريب، يا للأسف! لم تذق عيناي طعم الراحة لا نهارًا ولا ليلًا. في اليوم الأول لم يتركني القط قط، وفي الثاني أفيق جراء كابوس تلو الآخر لأجد في وجهي لهاث هذا الكائن المقيت ضاغطًا على صدري، على قلبي للأبد.

مات ما تبقى من خيرٍ بداخلي إثر ما رأيته من عذاب، والآن صارت أفكاري الشريرة رفيقتي الحميمة الوحيدة، بل أشد الأفكار سوادًا وظلمًا.. زادت تقلباتي المزاجية من كراهيتي لكل الأشياء والبشر، كانت زوجتي أكثر من عانى وتحمل تقلباتي الغاضبة المفاجئة والمتكررة التي أطلقت لها العنان بغبائي.

ذات يوم اصطحبتني زوجتي لغرضٍ منزلي إلى قبو البيت القديم الذي قطنّاه لافتقارنا، وجدت القط يتبعني إلى سلمٍ شديد الانحدار، وكاد أن يطرحني أرضًا، استشطت غضبًا، رفعت فأسًا ناسيًا الرعب الذي منعني من هذا حتى اللحظة وهويت بها على الحيوان، كادت أن تكون الضربة قاتلة لو جاءت كما أردت؛ إلا أن الضربة أوقفتها يد زوجتي، تملّكني حينها غضب شيطاني – وهو أقل ما يوصف به – فسحبت ذراعي من يدها وهويت بالفأس على رأسها.. فأرديتها قتيلة على الفور.

وما أن وقعت تلك الجريمة حتى طفقت أسويّ إجراءات مواراة جثتها.. لن أقدر على نقل الجثة من مكانها لا نهارًا ولا ليلًا، فقد يلاحظني أحد الجيران، رسم عقلي الكثير من الخطط، فكّرت في تقطيع الجثة إلى أجزاءٍ صغيرة وحرقها، فكّرت في حفر قبرٍ لها في أرضية القبو.. فكّرت في أن ألقي بالجثة في بئر الباحة الخلفية.. فكّرت في وضعها في صندوق بضائع متخذًا الإجراءات الاعتيادية ليحملها حمّال من المنزل.. وأخيرًا اهتدى عقلي لما اعتبرته خطة أفضل من تلك الخطط. قررت أن أهدم فوق الجثة جدار القبو كرهبان العصور الوسطى الذين كانوا يفعلون المثل بضحاياهم.

ولهذا الغرض كان القبو مهيئًا، فحوائطه آيلة للسقوط مُغطاة مؤخرًا بجصٍ خشن ضربته الرطوبة وأضعفته، بالإضافة إلى ما سبق فإن هناك بروزًا في أحد جدران القبو من أثر ردم مدخنة أو موقد ليماثل باقي الجدران، لا ريب في أنني أستطيع نزع الطوب بسهولة بالقرب من هذا البروز لإخفاء الجثة وردم كل شيئ كما كان لتجنب أي مظهرٍ مريب.

يبدو أنني مُوفقٌ في حساباتي، خلعت الطوب بمعولٍ ووضعت الجثمان داخل الجدار ودعمته، ثم أرجعت الجدار إلى الوضع الذي كان عليه بدون مشقة، دبرت ملاطًا ورملًا لتجهيز الجدار وإعادته إلى الوضع القديم، ثم دهنت الطوب الجديد بعناية.. وعندما

انتهيت شعرت بالرضا، فلم يبدُ على الجدار أي شيء مريب، أزلت النفايات بعنايةٍ فائقة، نظرت حولي بعجب وقلت: "لم يذهب مجهودي سُدى.. هنا على الأقل!"

خطوتي التالية هي البحث عن القط الذي تسبب في هذا الحادث التعيس، ذلك لأنني قررت قتله في النهاية، لو قابلته الآن لما ترددت في مصيره، ولكن يبدو أنه ماكر كفاية ليهرب إثر غضبي السابق ونأى بنفسه مني، لا أصف لك إحساس الراحة العميق والرائع الذي انتابني إثر غياب ذلك المخلوق المقيت، لم يظهر تلك الليلة، ولذا نمت بعمقٍ وطمأنينة.. أجل؛ نمت رغم الجريمة التي أثقلت روحي.

مر اليوم الثاني والثالث ولم يظهر معذبي، صرت أتنفس كرجلٍ حر، فقد هرب الوحش من البيت للأبد، لن أراه مجددًا، يا لسعادتي البالغة! لم أشعر بتأنيب الضمير أبدًا.. أجرت الشرطة بعض التحقيقات، لكنني أجبت على الأسئلة بسهولة، وفتشوا المنزل كذلك ولم يكتشفوا شيئًا طبعًا، صارت سعادتي أمرًا مضمونًا.

وبحلول اليوم الرابع على جريمتي جاء بعض رجل الشرطة إلى البيت بدون سابق إنذار، باشروا التفتيش بصرامة هذه المرة، فتشوا البيت والأراضي المحيطة، لم أرتبك لأني واثق من سرية المكان الذي أخفيت فيه الجثة.. طلب مني رجال الشرطة مصاحبتهم أثناء التفتيش، لم يتركوا شبرًا دون تفتيش، وفي النهاية هبطوا إلى القبو للمرة الثالثة أو الرابعة، ولم تهتز شعرة في جسمي، كان قلبي يدق كالهانئ بنومه، مشيت في القبو من أوله إلى آخره ريحةً وجيئة عاقدًا ذراعي على صدري، رضي رجال الشرطة بتفتيشهم وتأهبوا للمغادرة.. كبرت السعادة في قلبي حتى كدت أكشفها، كنت أتحرق شوقًا لأقول كلمة انتصارٍ واحدة وأن أعزز موقفي، قلت لهم في النهاية بينما يصعدون السلم:

- يا سادة.. يسعدني أني ساعدت في تهدئة شكوككم، لكم مني كل الاحترام وتمنياتي لكم بوافر الصحة.. يا سادة.. هذا بيت عتيد.

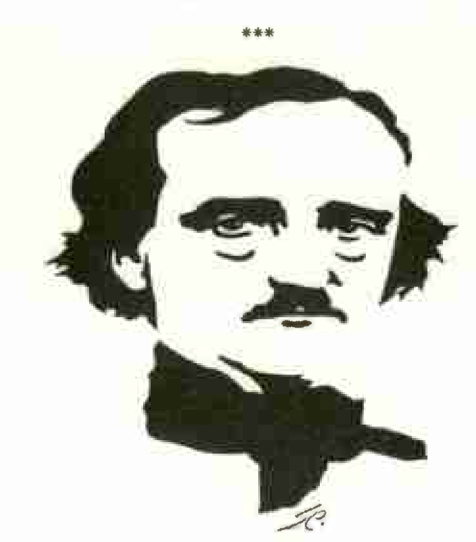
قلت هذا في رغبةٍ مسرورة.. لم أدرك ما قلته مطلقًا، ثم أردفت:

- إنه بيتٌ متين فعلًا.. هذه الحوائط.. هل ترحلون؟ هذه الجدران صلبة جدًا.

قادتني ثورتي العصبية إلى ضرب عصا كنت أحملها بقوة على الجزء الذي ترقد خلفه جثة زوجتي، ولكن شملتني رحمة ربي وخلصتني من مخالب إبليس. ما إن سكت صدى ضرباتي حتى ردّ عليّ صوتٌ من التابوت، سمعت صرخة متقطعة مكتومة وكأنها طفل يندب، ثم تحولت إلى صرخة طويلة عالية شاذة، عواءٌ وعويل.. صرخة مرعوبة وكأنها تخرج من قعر الجحيم من حناجر الملعونين في عذابهم ومن شياطين صارخة تلقى عذابها الأبدي.

سأكون أحمقًا إن تحدثت عن أفكاري، فترنحت متراجعًا إلى الجدار المقابل، وقف رجال الشرطة على السلم يملؤهم الرعب والهول، وفي اللحظة التالية نبشت أذرعهم القوية الجدار الذي سرعان ما انهار.. انتصبت الجثة أمام أعينهم متحللة متخثرة الدماء. يرقد على رأسها بفمٍ أحمر مفتوح وعينٍ وحيدة من نار القط الذي حثني على ارتكاب جريمتي وسلمني إلى الجلّاد.. لقد ردمت الوحش داخل الجدار.

***



سقوط بيت أشر

(1839)



"قلبه عودٌ متدلٍّ يترنّم بلمسه"

– دي بيرانجيه2

في يومٍ ممل مظلم ساكن من أيام الخريف التي تتدلى فيها الغيوم من السماء بكبرياء؛ كنت أسير وحيدًا على ظهر حصاني داخل حقل حزين يتيم، وبعدما تهادت ظلال الليل على الدنيا وقعت عيناي على "بيت أشر" الكئيب، لا أذكر كيف بدا البيت، ولكن بنظرةٍ واحدة عليه شعرت بكآبةٍ لا تُطاق تخلّلت روحي، كآبة لا تُطاق فعلًا لأن شعوري لم يُزَح بأي إحساسٍ شاعري جانبه السرور يتولد داخل العقل عندما نرى حتى أكثر الصور خرابًا وفظاعة على حقيقتها، نظرت إلى هذا المشهد أمامي –المترل وما يحيط به من مناظر طبيعية وإلى جدرانه السوداء الحزينة ونوافذه الدائرية الشاغرة وحشائشه القصيرة وجذوع أشجاره البيضاء المتحللة– ويعتريني حزن لا يُقارن بأي شعور إنساني في الكون، ولا ينافسني فيه إلا سكّير يتخبط من أثر الأفيون وآخرٌ متّزن يعاني من مرارة الحياة اليومية، يكشف بشاعة المكان، شعرت بفتورٍ مريض أصاب قلبي أو حالة من الكآبة العقلية التامة لا يقوى عليها أي خيال.. ما السبب؟ فكّرت.. ما الذي أثار حفيظتي وأنا أتأمل "بيت أشر"؟ غموضٌ لا تفسير له ولا أقوى على التعامل مع الخيالات التي أطلقها عقلي بسببه، كنت مضطرًا لإقناع نفسي – رغمًا عنها – بتفسيرٍ غير مقنع بأن هناك بعض العناصر الطبيعية البسيطة من حولنا تجتمع سويًا لتكوّن

---

[2] دي بيرانجيه شاعرٌ غنائي فرنسي وُلد عام 1780 وتُوفي عام 1857.

قوة تؤثر علينا، ولكن فهم هذه القوة يحتاج إلى اعتباراتٍ أبعد بكثير من فهمنا، فكّرت.. قد يكون هذا الشعور بسبب تجمّع بعض عناصر المشهد سويًا؛ وهو تجمع قد يكون كافيًا لتغيير أو تحوير قدرة المكان على ترك انطباعٍ حزين في نفس من ينظر إليه، أخذت هذه الفكرة في الاعتبار ثم وجّهت لجام حصاني نحو حافة بركة سوداء متوهجة ذات سطحٍ أملسٍ ذي بريق.. نظرت إلى الأسفل - وأنا أحس بقشعريرة أقوى من سابقتها- ناحية الحشائش الأرضية الرمادية المتناثرة والتي رسمت بتناثرها أشكالًا غريبة وشاذة، ثم جذوع الأشجار الضخمة، ونوافذ البيت الشبيهة بأعينٍ مفتوحةٍ شاغرة.

على أي حال، اتخذت قرارًا بالإقامة مؤقتًا في هذا البيت الكئيب، ربما لبضع أسابيع.. كان "رودريك أشر" مالك البيت؛ أحد رفقائي الطيبين فيما مضى، ولكن عمرًا قد مضى منذ آخر لقاءٍ بيننا، ربما مؤخرًا فقط وصلني خطاب من بقعةٍ بعيدة في الريف - خطاب منه - يُلّح عليّ فيه بالمجيء ولا يقبل فيه إلا بالموافقة من جانبي..

بدا من كلماته أن مرض "التصلب المتعدد" الذي أصابه قد أدّى إلى هيج أعصابه، حدّثني عن مرضه البدني الشديد الذي ألّم به - اضطراب عقلي يثير جنونه - ورغبته المضنية في رؤيتي نظرًا لكوني صديقه الأقرب والوحيد، حيث رأى في وجودي المسبب لسعادته دائمًا بعض التخفيف لمرضه.. لم يترك لي أسلوبه الودود النابع من قلبه مجالًا للتردد، وعليه فقد لبّيت النداء وجئت للقائه الذي مازلت أعتبره لقاءً شخصيًا.

رغم أننا كنا صديقين حميمين منذ الطفولة، إلا أنني لم أعرف عنه إلا القليل، كان متحفظًا بشدة ودائمًا، لكنّي كنت أعرف أن أسرته العريقة جدًا كان معهودًا عن أفرادها الحساسية المفرطة، ظهر ذلك على أعمالهم الفنية الراقية على مر العصور، كما أنهم ساهموا في عدد من الأعمال الخيرية السخية غير البارزة، هذا غير عشقهم الكبير للأمور المعقدة؛ ربما أكثر من حبهم للأمور الجمالية المعهودة والواضحة، كعلوم الموسيقى مثلًا..

عرفت أيضًا أنا هناك حقيقة لافتة للانتباه بخصوص أصول "عائلة أشر"؛ فهي عائلة مبجلة على مر العصور لم يكن لها فروع منبثقة منها أبدًا، بمعنى أن العائلة بأكملها تنحدر من جدٍ واحد، ولم تشهد تباينًا أو اختلافًا إلا في أضيق الحدود.. رأيت أن هذا العيب الذي يسري في هذه العائلة كان أفضل طريقة للحفاظ على العائلة نفسها بأكبر قدر من الأشخاص الموثوق فيهم.. فكّرت بعض الشيئ في الأثر الذي قد يتركه أحد أفراد العائلة في الآخر، على مر عصور طويلة، وفي رأيي أن هذا العيب كان له تأثير مباشر وخلق حالة متوارثة من الجد إلى الحفيد حافظت على اسم العائلة، ذلك الاسم الغريب والمريب الذي حافظ عليه الاثنان – الجد والحفيد – تحت عنوان "عائلة أشر"، هذا الاسم الذي يستخدمه أهل الريف للإشارة إلى العائلة نفسها وبيتها كذلك.

بإمكاني القول بأن الأثر الناجم عن تجربتي الطفولية – النظر إلى البركة– عَمَّق انطباعي الأول.. لا شك أن إيماني المتعاظم بالخرافة قد زاد من سرعة تعاظمه، ولكن أي خرافة؟ مثلًا؛ عرفت من فترة طويلة أن الخرافة هي ذلك القانون المتناقض الذي يقول أن كل المشاعر الإنسانية أصلها الخوف، قد يكون إيماني هذا هو سبب نظري مجددًا ناحية البيت نفسه، من صورته المنعكسة على سطح البركة، حتى كبر بداخلي خيال غريب.. خيال سخيف بالتأكيد، ولم أذكره إلّا لإبانة تلك المشاعر القوية التي غمرتني.. فعلت نفس الشيئ مع خيالي لأصدق كل ما يتعلق بالبيت والجو الغريب المحيط به وبالجوار؛ ذلك الجو المتنافر مع الهواء الطبيعي والصادر عن جذوع الأشجار المتعفنة، والجدار الرمادي، والبركة الراكدة، والبخار المميت الغامض.. كل ذلك خلق جوًّا مملًا بطيئًا ذا صوتٍ ضعيف ولون رصاصي باهت.

نفضت عن روحي ما ظننت أنه مجرد حلم، ونظرت مجددًا ناحية البيت، متفحصًا إياه هذه المرة.. الصفة الأوضح والتي تغلب عليه من أول نظرة هي عراقته وقدمه، تغيرات ألوانه على مر الزمان، وترك عليه هذا أثرًا جميلًا.. تنتشر الفطريات على الباحة

الخارجية للبيت وتتدلى من سقف المنزل كشبكة عملاقة جميلة.. إلا أن كل هذا كان بعيدًا كل البعد عن أي وحشة غريبة تحيط بالمكان، لم يسقط أي جزء من البيت، وهنا تشعر بغرابة التنافر بين سلامة أجزائه من جانب وأحجاره المتناثرة المتفتتة من جانبٍ آخر، هذا المشهد ذكّرني بعملٍ خشبي قديم عفى عليه الزمن لدرجة التعفن في إحدى المقابر المهجورة التي لا تطولها ولو نسمة من نسائم الهواء خارجها، وبعيدًا عن هذا الإيحاء بتعفن المكان؛ فالواجهة الخارجية أوحت بدورها بنوعٍ ما من عدم الراحة، وربما تقع عينا الملاحظ المتفحص على تشققاتٍ لم تطلها يد أحد من قبل، تمتد من واجهة سقف البيت عبر جداره بطريقٍ متعرج حتى تضل طريقها إلى مياه البركة الراكدة.

امتطيت حصاني من جديد بعد ملاحظاتي تلك وسلكت طريقًا قصيرًا نحو البيت.. أخذ الحصان مني خادم كان في انتظاري، ثم دلفت من مدخلٍ قوطي إلى صالة البيت، رافقني خادم بخطى خفيّة في صمتٍ تام عبر ممرات كثيرة مظلمة ومعقدة إلى غرفة سيده، كثيرٌ من الأشياء التي صادفتني في طريقي إلى الداخل ساهمت في ازدياد تلك المشاعر الغامضة التي خالجتني وتكلمت عنها من قبل.. وعلى الرغم من أن تلك الأشياء التي قابلتها – المنحوتات على الأسقف، والمطرزات القاتمة على الجدران، والسواد الداكن على الأرضيات، وكل تلك الجوائز التذكارية التي اهتزت وأنا أخطو بجوارها – كانت جزءًا من أمورٍ اعتدت عليها من صغري، وعلى الرغم من اعتيادي على كل ذلك، إلا أنني استغربت من مدى وحشة تلك الأحاسيس التي داهمتني وأنا أنظر إلى صورٍ عادية بالنسبة لي، قابلت طبيب العائلة على درج البيت، ملامحه بدت كمزيجٍ من الخبث والارتباك، دنا مني ببعض الخوف وأكمل طريقه.. فتح الخادم باب غرفة ثم قدمني إلى سيده.

وجدت نفسي في غرفة واسعة وعظيمة جدًا، فيها نوافذ طويلة ضيقة بارزة على مسافةٍ بعيدة من الأرضية المصنوعة من خشب البلوط جعلت من الصعب الوصول

إليها.. وجدت ومضات ضعيفة من ضوءٍ قرمزي طريقها إلى الداخل من خلال ألواح النوافذ الزجاجية المحاطة بتعريشة خشبية، سمحت ببروز أكثر الأشياء أهمية في الغرفة، وجدت عينيّ تتوهان في محاولة للوصول إلى أبعد زاوية في الغرفة أو خبايا سقف الغرفة المقبب المربك.. وجدت ستائر داكنة معلقة على جدران الغرفة، ثم لاحظت أن أثاثها كثير، وغير مريح، ومليء بالقطع الأثرية، وممزق، رأيت كتبًا وآلاتٍ موسيقية كثيرة متناثرة هنا وهناك بدون أن تعطي أي حيوية للمكان.. شعرت أني أتنفس جوًّا من الحزن.. هواء من الكآبة العابسة العميقة التي لا حلّ لها غزا الغرفة من أعلاها إلى أسفلها.

فور دخولي الغرفة قام "أشر" من على كنبته التي كان ممدًا عليها وحيّاني بطريقة شعرت فيها بالدفء والمودّة المبالغ فيها من رجل متكلّفٍ ممل.. إلا أنني وبنظرة واحدة اقتنعت بأنه صادق تمامًا، جلسنا ونظرت إليه وهو صامت ورأيت بين قسماته بعضًا من الشفقة وبعضًا آخر من الرهبة.. ولم لا! ولم يحدث أن تغير رجل بشكلٍ كامل في فترةٍ قصيرة مثل "رودريك أشر".. أقنعت نفسي بصعوبة بأن الرجل الجالس أمامي كان من قبل رفيق طفولتي..

ولكن، لطالما كان وجهه بارزًا طول الوقت.. بشرته شاحبة، وعيناه كبيرتان مائعتان لامعتان إلى أبعد حد، وشفتاه نحيفتان بعض الشيء شاحبتان مرسومتان بانحناءة جميلة على الرغم من ذلك، وأنفه أنيق على الطراز العبري ذو فتحتين عريضتين بشكل غير معتاد، وذقنه مرسومة جيدًا وترسم معها رغبة في المزيد من العنفوان، وشعره أشبه بشبكة ليّنة وصلبة، تلك التقاسيم المدعومة بصدغٍ يعلوه توسعٌ مفرط جعلت شكله لا يُنسى أبدًا.. ومع تلك التقاسيم والتعبيرات التي ترتسم عليها بدا التغيير على مظهره لدرجة جعلتني أشكّ في من أتحدث إليه الآن..

بشرته الشاحبة المروعة، والبريق البارز من عينيه - بخلاف تقاسيم أخرى - جعلتني أُصاب بالدهشة.. بل بالخوف كذلك، شعره الحريري صار غير مهندم بملمسٍ رقيق يطفو على رأسه بعدما كان يتدلى على وجهه، ولم أقدر حينها - مهما فعلت - أن أربط بين هذا الرسم الزخرفي الذي بدا عليه وبين أي مظهر من مظاهر الحياة.

حتى أنا نفسي في إحدى الأوقات بدا شكلي غير متناسق ولا متسق، وسرعان ما وجدت أن ما حدث لي كان نتيجة لسلسلة من المحاولات اليائسة غير المجدية للتغلب على خوفي المعتاد.. حالة من التوتر العصبي الزائد، وعلى الرغم من ذلك؛ كنت متجهزًا لمنظرٍ كهذا، ربما بسبب خطابه أكثر من بعض الذكريات عن صفاته الصبيانية وما وجدته عليه من حالة بدنية ومزاجية غريبة، حركاته كانت متجهمة مرة وكئيبة مرة، تغيرت نبرة صوته بسرعة من التردد المرتجف (كغريزة حيوانية أصيلة بداخل أي إنسان) إلى الإيجاز المفعم بالحيوية، صوته الحاد الثقيل المتئد، ونبرته الجوفاء، وكلامه القليل المتوازن المضبوط، الذي تسمعه حينما تتحدث إلى رجلٍ سكّير أو أحد متعاطي الأفيون بكثرة، حتى في أكثر اللحظات إثارة.

تكلّم حينها عن سبب زيارتي له، ورغبته المضنية في رؤيتي، والعزاء الذي توقع مني أن أبديه له.. دخل في حكايةٍ مطولة عن سبب إعيائه، تحدث عن شرٍ مقيم داخل عائلته، لطالما بحث عن حلٍ له، ثم قال بحدة وعصبية أن لا حل له في المستقبل القريب، شعرت بأشياءٍ غير طبيعية، أشياء حكى عنها أثارت اهتمامي وحيرتي، ويمكن أن ذلك بسبب كلماته وأسلوبه الثقيلين.. كان يعاني كثيرًا من حدة أحاسيسه؛ لم يطعم إلا وجبة شهية، ولم يلبس إلا قماشًا بعينه، وأرهقته روائح الزهور، وعيناه تتعبان من أضعف شعاع ضوء، ولم يرتح إلا لأصواتٍ غريبة تصدر عن آلاته الوترية، والأصوات الأخرى تصيبه بالرعب.

وجدته يسقط من شدة الرعب والخوف ويقول:

- يجب أن أموت! يجب أن أموت بهذه الحماقة الساذجة! وإلا سأضيع.. أنا مرتعب من الغد، ليس لمجرد قدومه، ولكن أخاف مما سيأتي بعده، أنا أنتفض رعبًا من أقل حادث تافه يزلزل أركان روحي.. لست أخاف من الخطر نفسه، بل من الأثر الذي سيتركه عليّ، أنا في حالة متوترة يُرثى لها، وأشعر إن كان عاجلًا أم آجلًا بأني سأفقد حياتي وعقلي سويًا خوفًا من ذلك الوهم القاتم.. خوفًا من الخوف.

لاحظت بين ثنايا كلماته المتقطّعة وبين تلميحاته المتكسرة الملتبسة شيئًا آخر بخصوص حالته العقلية.. الرجل كان مربوطًا بانطباعاتٍ خرافية تجاه البيت الذي يسكنه، ولم يجرؤ ولو مرة لسنين طويلة أن يتحدث عن أثر هذه الطاقة الخرافية إلا بكلماتٍ غامضة جدًا.. ذلك الأثر الناتج عن أمور غريبة تحدث بشكل صريح وواضح في بيتٍ العائلة جعلته يعاني كثيرًا وأثرت في روحه، ذلك الأثر يسكن جدران البيت الرمادية وأبراجه وبركته الكئيبة.. كل تلك الأشياء شهدت ذلك الأثر ونقلته إلى روحه.

اعترف - على الرغم من تردده - أن بعض من تلك الكآبة الغريبة التي تحيط به تعود إلى أسباب طبيعية ومنطقية أيضًا؛ مرض أخته الحبيبة الشديد المزمن الذي يقربّها كل يوم من الموت، أخته الوحيدة المتبقية له ومعه منذ سنين طويلة.. قال بحسرة:

- موتها لا يمكن أن أنساه.. موتها سيتركني يائسًا ضعيفًا.. أختي هي آخر فرد في عائلة "أشر".

وبينما كان يتحدث، مرت السيدة "مادلين" - هكذا كان اسمها - من ركن بعيد في الغرفة بدون أن تلاحظ وجودي، ثم اختفت.. نظرت إليها بدهشةٍ شديدة مع رهبةٍ لا أنكرها، رغم أني لم أهتم بمشاعري تلك، تملكني شعور بالذهول بينما كانت عيناي ترقب خطواتها المتقهقرة، عندما أغلَقَت الباب خلفها نظرت إلى أخيها رغمًا عني، ولكنه وضع وجهه بين يديه وشعرت بشحوبٍ غطّى وأضعف أصابعه التي ظلت تسمح دموعه.

حيّر مرض السيدة "مادلين" أطبائها، لكن التشخيص غير الاعتيادي لحالتها كان اللامبالاة الشديدة، وفقدان العقل بالتدريج، والعواطف المتكررة رغم سهولتها التي خلقت بداخلها شخصية متحفزة نوعيًا.. وحتى الآن مازالت صامدة أمام الضغط الذي يمارسه مرضها، ولم ترقد على فراشها أبدًا، ولكن مع نهاية ليلة وصولي البيت استسلمت (كما أخبرني شقيقها تلك الليلة بحزن غير مسبوق) وانبطحت أرضًا لتلك القوة التي حطمتها، وعلمت حينها أن اللمحة البسيطة التي رأيتها فيها هي الأخيرة؛ على الأقل في حياتها.. ولن أراها مجددًا.

مرت ليالٍ عدة لم يأت اسمها على لسان "أشر" ولا حتى لساني، وخلال تلك المدة كنت منشغلًا في مساعيّ المضنية للتخفيف من الكآبة التي سكنت روح صديقي، رسمنا سويًا وقرأنا سويًا، واستمعت وحدي – وكأني في حلم – لتأويلات موسيقى جيتاره الرنّانة، ومع مرور الوقت ازدادت الحميمية بيننا لدرجة سمحت لي بالدخول إلى تلابيب روحه، وكلما دخلت أكثر وجدت نفسي أحزن لمدى عبثية محاولاتي التخفيف عن روحه التي امتلأت بالظلمة، وكأن طاقتي الإيجابية الكامنة التي انصبَّت بالكامل على كل عناصر الكون المعنوية والمادية؛ غرقت كليًا إثر شعاعٍ واحد من الكآبة.

لاشك أني سأظل محافظًا على ذكرى تلك الساعات المهيبة التي قضيتها وحدي مع سيد بيت "أشر"، إلا أني لن أقدر على فهم معنى الهدف من الدراسات أو الوظائف التي ورطّني فيها أو دفعني إليها.. شعرت بمثالية تامة غير نافعة تلقي على روحي ضوءًا لامعًا غطّاني وغطّى كل شيءٍ حولي.. ألحانه الحزينة هذه لن تترك أذنيّ تهنأ بليلة سلامٍ واحدة.

وعلى صعيدٍ آخر، فكّرت مليًا بمنتهى الألم في معنى ذلك الارتجال الحزين والإسهاب الذي شاب ألحان "فون فيبر"[3] الأخيرة، تلك اللوحات الزيتية التي تجلّت فيها تهيؤاته المعقّدة، حتى كبرت شيئًا فشيئًا، ثم صارت غموضًا أثار القشعريرة في جسمي لأني لم

---

[3] فون فيبر مؤلف موسيقي ألماني ومايسترو وناقد وُلد عام 1786 وتوفي عام 1862.

أعلم حينها – وأيضًا بسبب تلك الرسومات (التي شعرت فيها بالحياة طالما كانت أمامي) – لَم ذهبت مساعيّ الحثيثة في فهم ولو جزء بسيط من معنى كلماتٍ كُتبت بالكاد هباءً.. أسرني ببساطة ووضوح تصميماته وأثار اهتمامي.. لو كان على وجه الأرض رجل رسم فكرةً في عقله، لكان هذا الرجل هو "رودريك أشر"، أما بالنسبة لي أنا، ووسط تلك الأجواء التي تحاصرني؛ شعرت بفضل الأفكار الغامضة التي ألقاها عليّ صديقي المُصاب بوسواس المرض من خلاله لوحاته الزيتية برهبةٍ لا تُطاق، رهبة لم أشعر بمثيلٍ لها إلا وأنا أتأمل ألحان "هنري فوسيلي"4 التي تنبض بالحياة.

تجسدت إحدى المفاهيم السيريالية التي ساهمت بالكاد في إحدى لوحاته الفنية التجريدية، على هيئة كلمات على الرغم من ضعفها، مهّدت صورة صغيرة الحجم مدخل قبو أو نفق طويل جدًا مستطيل الشكل، جدرانه منخفضة ناعمة بيضاء لا يشوبها شيءٌ أو انقطاعات أو زخرفة، بعضٌ من لمسات ذلك التصميم ساهم في تأكيد فكرة أن هذا التجويف يقع على عمق كبير تحت الأرض، لم أرَ مدخلًا له في أي جزءٍ منه على الرغم من امتداده الشديد، ولم ألحظ مصباحًا أو أي مصدرٍ صناعي للضوء، إلا أن فيضانًا من الأشعة كان يعم النفق ويمهد الدرب في هيبةٍ مخيفة غير طبيعية.

تحدثت مسبقًا عن الحالة المرضية التي يعاني منها صديقي والتي جعلت أعصابه السمعية حساسة للغاية لا تتحمل أي موسيقى، باستثناء بعض الآلات الوترية.. ربما كان هذا بسبب انحسار حاسة سمعه إلى جيتاره الذي خلق بداخله ذلك الأداء الرائع، إلا أن حماسه وتوجهه الغريب نحو الارتجال أمرٌ لا يُعتد به، لابد أن تلك النوتات الموسيقية وكلماته التي تراود خياله (لأنه كان دومًا محاط بكلماتٍ ارتجالية مسجوعة ومقفّاة) هي نتاج تركيزه الزائد الذي لاحظت مسبقًا أنه لا يظهر إلا في لحظاتٍ معينة من الإثارة الفنية، مازلت أذكر كلمات إحدى تلك المقطوعات، والأرجح أني أُعجبت

---

[4] هنري فوسيلي رسّام بريطاني من أصل ألماني وُلد عام 1741 وتوفي عام 1852.

كثيرًا بالطريقة التي ألقاها بها، لأن كلماتها الغامضة – على قدر ما أعجبتني – جعلتني أفهم ولأول مرة جزءًا كاملًا من عقل "أشر" المترنح رغم شموخه، جرت كلمات مقطوعته "القصر الملعون" على نحوٍ وثيق، برغم عدم دقتها، فكانت كما يلي:

(1)

ملائكةٌ ذات قلوبٍ طيبة

تسكن أوديتنا الخضراء.

يقف ملكٌ في قصرٍ جميلٍ لامع،

تناطح قبته السماء.

يبسط حكمه على الدنيا،

ولا يقدم ملاكٌ على بسط أجنحته،

ولو في الخفاء.

(2)

راياتٌ صفراءُ شامخة ذهبية

ترفرف وتحتضن الهواء.

(كان هذا في زمانٍ غابر)

وكل نسمة ليلة حينها

كانت تلفح الأسوار والبناء.

في ذلك اليومِ الجميل،

ذهبت ريحٌ طيبة.

(3)

والناس يمرحون في الأودية ببهاء،

ومن نافذتين منيرتين في وادٍ سعيد،

تتراقص الأرواح دون انتهاء.

تعزف على الأعواد ملائكةً

حول العرش يلتفّون بلا عناء.

والملك حينها فوق عرشٍ أرجواني،

لا تشاركه في الحكم أرضٌ ولا سماء.

(4)

الباب مزدانٌ بالياقوت والكستناء

واللؤلؤ يعلوه والمرجان.

علت على جانبيه أصواتٌ ذات أصداء،

أبواقٌ صادعة نغماتها تعلو وتعلو وتعلو،

لا تعرف في حياتها إلا الموسيقى والغناء.

تصدع الأبواق لمليكها المُفَدّى ذي الجمال

والحكمة والأبهة والذكاء.

(5)

لكن جاءهم شرٌ نشر الحزن في الأرجاء

دعونا ننعِ أنفسنا، فلا نهار جديد

سيأتينا بعدما سقط الملك من العلياء.

والآن أضحى المجد والأبهة من الماضي،

وصار الزمان قصةً سوداء.

(6)

والمارة الآن يرون بأعينهم أودية قفراء،

يشهدون الموت والخراب من نوافذهم الحمراء.

لا تسمع آذانهم هناك صوتًا،

إلا ألحانًا سوداء.

وكفلكٍ في النهر يجري،

شرٌ مقيمٌ سريع الخطى

لا يترك في الوادي إلا العزاء.

أتذكر حينها أن كلمات تلك المقطوعة خلقت بداخلنا قطارًا من الأفكار تحول بعدها إلى رأي بداخل دماغ صديقي، رأي لا أستطيع أن أعوّل عليه لحداثته، وهو نفس الرأي الذي حافظ عليه بعناد شديد، كان رأيًا ضعيفًا حساسًا كأعواد النباتات الخضراء، ولكن في أعماق أفكاره الملتوية، كانت لكل فكرة شخصية جريئة تتعدى حدودها في ظروفٍ معنية ضمن نظامٍ لا يعرف النظام، لا تكفي كلماتي لوصف ما أشعر به ولا ما يحاول حثيثًا إقناعي به..

إلا أن اعتقادي كان مرتبطًا (كما أشرت مسبقًا) بتلك الأحجار الرمادية التي بُنيَ بها بيت آبائه وأجداده، ذلك الاعتقاد والشعور كان يغزو المكان ويغزو فكره معه بفضل تلك الأحجار– ربما بسبب تراتبها وربما بسبب العفن المتراكم عليها وربما أيضًا بسبب تلك الأشجار المتعفنة – وثبات تلك الحالة بدون أي شيئ يعكرها، وانعكاس كل ذلك على مياه البحيرة الراكدة.. قال صديقي أن الدليل على هذا الإحساس يبدو واضحًا (وهنا ركّزت في حديثه) في كثافة الجو حول المياه والجدران، إلا أن النتيجة غير واضحة في ظل هذا التأثير الصامت المزعج الرهيب الذي ترك بصمته على أفراد هذه العائلة لقرون، وهو ما جعله يصير إلى ما صار إليه.. لم تكن آراؤه تلك بحاجة إلى تعليق، ولا حتى مني أنا شخصيًا.

كانت كتبنا – تلك الكتب التي على مدار الأعوام الماضية شكلت قدرًا كبيرًا من الحضور الفعلي للأمور غير العقلانية – من المفترض أن تكون على وفاقٍ تام مع ذلك الوهم الذي يسيطر على الأجواء.. استغرقنا سويًا في قراءة هذه الكتب مثل "السنجاب وقطي" لجريسيه5، و"بيلفيجور" لميكيافيللي6، و"الجنة والجحيم" لسويدنبورج7،

---

[5] جان لويس جريسيه شاعر وكاتب مسرحي فرنسي وُلد عام 1709 وتوفي عام 1777.

[6] نيكولو ميكيافيلي مفكّر وفيلسوف إيطالي وُلد عام 1469 وتوفي عام 1527.

[7] إيمانويل سويدنبرج عالم وفيلسوف سويدي وُلد عام 1688 وتوفي عام 1772.

و"رحلة نيكولاس كليم الأرضية" لهولبرج[8]، و"كشف المستور" لروبرت فلود[9] وجين دا إنداجين وديلاتشامبر[10]، و"رحلة إلى الأفق الأزرق" لتيك[11]، و"مدينة الشمس" لكامبانيلا[12].. إلا أن العمل الذي كان مفضلًا بالنسبة لنا إصدارٌ صغير باسم "تعليمات إلى الرهبان المحققين مع المهرطقين" الذي أبدعه إيميريك دي جريون الدومينيكي[13]، وفقرات في كتاب لبومبينوس ميلا[14] عن الإلهين الإفريقيين ساتير وبان، حيث كان "أشر" يعكف على التفكير فيهما لساعاتٍ طويلة، إلا أنه كان يجد متعته الكبرى في الاطّلاع على كتاب قديم ونادر جدًا مكتوبٍ بحروف قوطية يحمل اسم "حراسة الموتى"، وهو دليل لإحدى الكنائس العتيقة المنسية.

ليس بإمكاني التوقف عن التفكير عن الطقوس المتطرفة لهذا الكتاب وتأثيره المحتمل على صديقي المصاب بوسواس المرض الذي أخبرني في ليلةٍ ما فجأة أن السيدة "مادلين" قد ماتت، ثم أبدى رغبته في الاحتفاظ بجثتها لمدة خمسة عشر يومًا (قبل أن يوردها مقامها الأخير) في أحد القباء الكثيرة التي تملأ قاع البيت بين الجدران الرئيسية.. إلا أن السبب المنطقي لإقدامه على هذا التصرف لم يكن بالإمكان مغالبته عليه، كان قد وصل لقراره هذا (كما أخبرني) نظرًا لمرضها الغريب الذي أثار تساؤلات مريبة ومقلقة من أطبائها، وكذلك لأن مدافن العائلة لم تكن في مكانٍ قريب يسمح بنقلها إليه، لا أنكر أني عندما تذكرت تلك الملامح الشريرة التي ارتسمت على وجه ذلك الرجل الذي

---

[8] لودويج هولبرج كاتب وفيلسوف نرويجي وُلد عام 1684 وتوفي عام 1754.

[9] روبرت فلود عالم وطبيب بريطاني وُلد عام 1574 وتوفي عام 1637.

[10] جين دا إنداجين وماريا ديلاتشامبر كاتبتان فرنسيتان غير معروفتين شاركتا في نفس العمل، ويُقال أنهما امرأة واحـــدة وُلدت عام 1594 وتوفيت عام 1669، لكن تظل هذه المعلومة غير أكيدة.

[11] لودويج تيك شاعر وموسيقي ألماني وُلد عام 1773 وتوفي عام 1853.

[12] توماسو كامبانيلا شاعر وفيلسوف إيطالي وُلد عام 1568 وتوفي عام 1639.

[13] إيميريك دي جيرون عالم دين كاثوليكي وُلد عام 1316 وتوفي عام 1399.

[14] بومبينوس ميلا عالم جغرافي ومستكشف إسباني وُلد عام 43 وتوفي عام 45 بعد الميلاد.

صادفته على درج البيت وأنا في طريقي لمغادرته؛ لم تكن لديّ رغبة في مقاومة حذري الطبيعي غير المؤذي.

ساعدت صديقي – بطلب منه – في الإعداد لقبر أخته مؤقتًا، كان الجثمان داخل تابوت وضعناه بداخله وحدنا. كان القبو الذي وضعناها فيه (والذي ظل مقفولًا لزمنٍ طويل، إلا أن مصابيحنا نصف المضاءة سمحت لنا بتحسس خطواتنا خلاله بعض الشيء) صغيرًا، رطبًا، ولا وسيلة فيه لإدخال الضوء، ويقع على عمقٍ كبير أسفل ذلك الجزء من المبنى الذي فيه غرفة نومي..

يبدو أن قبوًا كهذا كان يُستخدم إبّان العصور الإقطاعية؛ وأسوأ الاحتمالات أنه كان يُستخدم كزنزانة، ثم تحول بعد ذلك كمكان لتخزين البارود أو أي مادة أخرى شديدة الانفجار، حيث كان جزء كبير من أرضية القبو ومدخل الممر الطويل الذي دخلنا إليه مغطى بالنحاس، أما بالخارج..

فكان للقبو بابٌ حديدي ضخم يكفي لحمايته، صدر عن الباب – نظرًا لثقله – صوت حاد مزعج من مفصلاته.

وضعنا جثمان أخت صديقي على منصة في مكانٍ يعمّه الخوف، ثم غيّرنا وضعية الجثمان قليلًا داخل التابوت الذي تركناه غير محكم الغلق، ثم نظرنا إلى وجه المتوفاة.. لأول مرة ألحظ هذا الشبه الكبير بين صديقي وأخته، ووجدته يتمتم ببعض الكلمات والصلوات التي علمت من خلالها – أو ربما هكذا خُيل إليّ – أن صديقي وأخته كانا توأمًا وأن توافقًا وتناغمًا كبيرًا كان بينهما، لم تدُم نظراتنا نحو الجثمان طويلًا حتى نتركها فيما هي فيه، ترك المرض الذي ماتت بسببه في ريعان شبابها، مثل كل أمراض الدنيا، آثاره عليها؛ فارتسم على صدرها ووجهها استحياءٌ خافت، وعلى شفتيها ابتسامة طويلة غريبة صارت أكثر رعبًا مع موتها.. غيّرنا التابوت وأغلقنا عليها تابوتها الجديد،

ثم أوصدنا الباب الحديدي، وخرج بالكاد كلٌّ منا من ذلك القبو المعتم إلى أجنحة الجزء العلوي من البيت التي لا تقل عتمة عنه.

والآن، وبعد مرور أيام من الحزن الأليم، بدا على صديقي تغيُّرًا واضحًا على سمات مرضه العقلي، تغير أسلوبه كليًا، حتى اهتماماته أهملها أو نسيَها.. كان يطوف بين غرفةٍ وأخرى في خطواتٍ متسارعة غير متوازنة لا هدف لها.. تحوّل شحوب وجهه – لو كان بالإمكان وصفه – إلى مسحةٍ باهتة مروّعة، ليس هذا فقط، حتى النور النابع من عينيه بدا منطفئًا تمامًا، لم تعد البحّة المعهودة في نبرته مسموعة على الإطلاق، وتحولت إلى ارتجاف – ربما من الخوف الشديد – صار هو السمة السائدة في نبرته، بالطبع كانت هناك أوقات كنت أفكّر ما إذا كان عقله المتهيج دائمًا مسكونًا بسرٍ كبير يحاول بشتى الطرق وبكل ما أوتي من شجاعة أن يبوح به..

وفي أوقاتٍ أخرى كنت أضطر آسفًا إلى تحمّل تقلباته المجنونة، ففي بعض الأحيان أجده يحملق في الفراغ لساعات طويلة باهتمامٍ كبير، وكأنه يستمع إلى صوتٍ خيالي.. لا عجب أن حالته تلك جعلت الرعب يدب في قلبي ويتملكني.. شعرت بقشعريرة تتخلل روحي ببطءٍ تتسارع وتيرته شيئًا فشيئًا، وشعرت أن خيالاته التي ملأت رأسه بدأت تنتقل إليّ.

كان هذا الشعور يتملّكني خصوصًا عندما كنت ألجأ لفراشي في قطعٍ متأخرٍ من الليل، بعد سبعة أو ثمانية أيامٍ من وضع السيدة "مادلين" في القبو، حينها كانت تلك الأحاسيس تهاجمني بكل قوة، جافاني النوم والوقت يمر أمّر وأمّر، حاولت جاهدًا فهم سبب عصبيتي التي بدأت في فرض سيطرتها عليّ.. سعيت لتصديق أن أغلب ما أشعر به – إن لم يكن كله – كان نتاجًا لتأثير ذلك الأثاث الكئيب الذي يملأ أرجاء غرفتي؛ وخصوصًا تلك الستائر الداكنة الرثّة المتراقصة يمينًا ويسارًا بفعل الزوبعات الهوائية، تتعثر ذهابًا وإيابًا أمام الجدران، وتصدر خشخشة خفيفة عندما تلامس ديكورات الفراش..

ذهب كل تعبي ومجهودي هباءً، ثم داهمني ارتجافٌ ليس بإمكاني إنكاره، وشعرت بروحٍ شريرة جاثمة فوق قلبي بلا سبب على الإطلاق.. حاولت جاهدًا إزاحة هذا الشعور عني؛ فرفعت جسمي فوق وسائد الفراش، وحدّقت نظري جديًا وسط ظلام الغرفة الدامس، نظرت بجديّة لا أعرف سببها، إلا أن روحًا غريزية دفعتني لسماع أصوات خافتة غير متناهية تعلو كلما سكت هزيز الرياح على فتراتٍ طويلة، لا أعرف مصدر تلك الأصوات.. شعرت برعبٍ شديد يسكن فؤادي؛ خوفٌ أكاد لا أعرف مقداره، ولا أطيقه رغم ذلك، وضعت ملابسي على عجل (حيث شعرت أن لا نوم صار لازمًا تلك الليلة)، وجاهدت نفسي للخروج من تلك الحالة البائسة التي وجدتني عليها، فقمت وخطوت بسرعة ذهابًا وإيابًا داخل غرفتي.

لم تستمر حركتي داخل الغرفة على هذا المنوال إلا قليلًا، حتى ظهر ضوء من الدرج المجاور لغرفتي، حتى عرفت أن مصدره هو صديقي "أشر"، طرق برفق على باب الغرفة ثم دخل حاملًا مصباحه، بدا وجهه شاحبًا مصفرًا كالمعتاد، ولكن هذه المرة لاحظت مرحًا مجنونًا يسود عينيه وهستيريا مكبوحة بالكاد تعمّ سلوكه بالكامل.. أفزعني محيّاه، ولكني أقبل بأي شيئ يكسر هذه الوحدة التي تحملتها طويلًا، حتى أني شعرت بالراحة لوجوده معي.

ظلّت عيناي واقعتين عليه بضع لحظات من الصمت التام، ثم قال فجأةً:

– ألم تره؟ ألم تره بعد؟ انتظر.. يجب أن تراه.

قتم ضوء المصباح في يده بعض الشيء وهو يتحدث، ثم هرع نحو نافذةٍ طويلة وفتح بابيها على مصرعيهما حتى تخللت العاصفة إلى الداخل.

كادت الرياح الغاضبة المتهورة التي اقتحمت الغرفة من الشباك أن ترفعنا إلى الأعلى. صحيح أنها كانت ليلة مضطربة، لكن لا شك أنها كانت جميلة جدًا أيضًا، تتميز عن باقي الليالي في رعبها وجمالها في نفس الوقت.. هبّت علينا زوبعة قوية جدًا

مصحوبة برياحٍ متكسرة متلاطمة عنيفة، حتى أن الغيوم الكثيفة جدًا (التي حاصرت أبراج البيت) لم تمنع تلك الرياح السريعة المملوءة بالحياة التي تلاطم بعضها البعض من كل اتجاه دون أن تذهب بعيدًا.. أقول أنه على الرغم من كثافة الغيوم إلا أننا كنا قادرين على الرؤية، رغم عدم وجود ولو شعاع ضوء من القمر أو النجوم، ولا حتى بصيص نور يأتي من صاعقة في السماء، ولكن أسفل الغيوم الكثيفة الهائجة وأثاث الغرفة المحيط بنا ظهر ضوء لامع غير طبيعي مصحوب بزفير غازي مضيء بصوت ضعيف اكتنف البيت بالكامل وسكن أركانه كلها.

– لا تنظر! لا تعطِ بالًا!

هكذا قُلت لصديقي بصوتٍ مرتعش، ثم أمسكت به برفقٍ حازم ودفعته بعيدًا عن النافذة وأجلسته على المقعد. قلت له:

– هذه التجليات التي تحيّرك هي مجرد ظواهر كهربائية لا أكثر ولا أقل، وربما يكون مصدرها ذلك المستنقع الذي تقبع فيه بحيرتك.. دعنا نغلق هذه النافذة، فالهواء بارد وخطر على صحتك، دعني أقرأ لك إحدى قصصك الرومانسية واسمعني جيدًا حتى تمر هذه الليلة المخيفة على كلينا على خير.

أمسكت بإصدارٍ قديم لقصةٍ بعنوان "لقاء المجنون" للسير "لانسيلوت كانينج"، ولكن وصفي للقصة بالمفضلة لدى صديقي "أشر" كان من باب المزاح المصحوب بالحزن لا من باب الجد، حيث لم يكن في إسهابها الكريه والغريب ما قد يثير الاهتمام لدى المثالية الروحية التي يتميز بها صديقي، إلا أن هذا كان هو الكتاب الوحيد الذي التقطته يداي؛ حتى أني قد ملأني الأمل في أن تتسبب الإثارة التي ظهرت على محيّا صديقي المصاب بوسواس المرض في بعض الراحة له (حيث أن للاضطرابات العقلية ارتباط وثيق ببعض الحالات الغريبة كهذه) حتى ولو كان سببها تلك الحماقات التي على وشك أن أقرأها على مسمع صديقي.. لو كان الأمر بيدي لكنت هنأت نفسي

على نجاح خطتي، وخصوصًا بعدما وجدت صديقي يصغي – أو هكذا يُهيَّأ إليّ – إلى كلمات القصة التي ألقيها عليه.

وصلت في قراءتي للقصة إلى النقطة التي فقد فيها بطل القصة "إيثيلريد" الأمل في دخول بيت ناسك الكنيسة بسلام، ثم بدأ في استخدام العنف.. أتذكر حينها أن كلمات القصة جرت كما يلي:

"وإيثيلريد، ذو القلب الشجاع العظيم بفضل كؤوس الخمر التي احتساها، لم ينتظر طويلًا حتى يتحدث ويتناقش مع ناسك الكنيسة ذي الطبع الهادئ والعِناد الشديد، والأمطار تتساقط على كتفيه، يخشى أن تزداد العاصفة سوءًا، ثم طرق الباب بقوة شديدة بصولجانٍ حديدي بيديه المغطاتين بقفازين، ثم أخذ يسحب ما كسره من الباب بثبات.. كسر ومزّق كل ما تطوله يداه..

مزّق كل شيءٍ إربًا، حتى أن صوت تكسير الخشب الجاف تردد صداه في أركان الغابة".

انطلق لساني بعد هذه الجملة، ثم توقف فجأة بعدما تبين لي (على الرغم من أني اقتنعت بأن أوهامي الجيّاشة خدعتني) من ركنٍ بعيد في البيت صوتٌ لم تسمعه أذناي من قبل، كان شبيهًا بصوت طرق بطل القصة على الباب وتمزيقه للخشب (ولكنه صوت مخنوق وخامد بالتأكيد)، ليس هناك شك لديّ أن مصادفة سماع ذلك الصوت مع وصفه في القصة أثار انتباهي كثيرًا، إلا أنه وفي وسط أصوات خشخشة نوافذ الغرفة والأصوات المعتادة الصادرة عن العاصفة الآخذة في الازدياد بالخارج، لم يكن لذلك الصوت أي شيء يثير حفيظتي أو يقلقني، فأكملت الحكي:

"ولكن البطل الطيب،إيثيلريد، دخل من الباب أخيرًا، مملوءًا بالغضب، متعجبًا من عدم وجود ناسك الكنيسة الخبيث، بل وجد مكانه تنينًا مريضًا ذا منظرٍ غريب ولسانٍ

ناري جالسًا أمام قصرٍ ذهبي على أرضيةٍ من الفضة، وعلى الجدار يتدلى درع نحاسي لامع مكتوب عليه:

من يدخل هنا يكن فاتحًا نافرًا، ومن يقتل التنين كان بالدرع ظافرًا.

رفع إيثيلريد صولجانه ونزل بها ضربًا على رأس التنين حتى سقط أمامه وأخرج نفسًا عظيمًا وصرخةً مزعجةً قاسية، وضع إيثيلريد يديه على أذنيه من شدة فظاعتها، كان صوت التنين حقًا لا مثيل له".

هنا توقفت أيضًا فجأة، وقد ملأتني هذه المرة دهشة كبيرة – فلا شك أني في هذه المرة قد سمعت (على الرغم من استحالة سماع الصوت من الاتجاه الذي ظننته) صوتًا خافتًا بعيدًا، لكن في نفس الوقت كان صوتًا قاسيًا طويلًا يشبه الصراخ – فالصوت هذه المرة كان شبيهًا تمامًا بصرخة التنين التي سمعت صداها في عقلي كما وصفها المؤلف.

أرهقني مجرد التفكير في وجود صوتٍ آخر، وتلك المصادفة الغريبة بآلاف المشاعر والأحاسيس المختلفة؛ أخطرهم كان الذهول والرعب.. حاولت التشبث بتلابيب عقلي حتى آخر فرصة كي أتجنب إثارة أي مشاعر لدى صديقي – ولو حتى بمجرد الملاحظة، لم أكن متأكدًا ما إذا قد سمع تلك الأصوات، إلا أني متأكد أن هناك تغيُّرًا قد وقع له خلال الدقائق القليلة الماضية، كان صديقي قبلها يجلس قبالتي، ولكن أدار مقعده شيئًا فشيئًا حتى صار وجهه مواجهًا لباب الغرفة، حتى أني لم أعد قادرًا على قراءة تقاسيم وجهه إلا قليلًا، إلا أنني رأيت شفتيه ترتعدان وكأنه يتمتم بأشياءٍ غير مسموعة.. مالت رأسه على صدره، إلا أني عرفت أنه مازال مستيقظًا لا نائمًا بعدما رأيت عينيه القويتين مبصرتين ولمحت شيئًا منها، حتى حركة جسمه أيضًا شهدت اختلافًا، حيث كان ينتقل من جانبٍ إلى آخر في تمايلٍ رقيق ثابت منتظم.. لاحظت كل تلك التغيرات ثم عدت من جديد إلى قصة السير "لانسيلوت" وأكملت حاكيًا:

"والآن، بعدما هرب البطل من غضب التنين الشديد، أثار الدرع النحاسي تفكيره، وأراد فكّ السحر الذي يحيط به، ثم أزال جثمان التنين من الطريق إليه، واقترب بشجاعة من أرضية القلعة الفضية التي كان الدرع معلقًا على جدارها، ثم تلكأ بهدوء، حتى سقط على الأرضية الفضية، وأحدث صوت رنينٍ هائل".

لم تكد تلك الكلمات تخرج من بين شفتيّ، إلا وأحسست بدرعٍ نحاسي – في لحظتها – يسقط بقوة على الأرضية الفضية، حينها فقط سمعت صدى صوت مميز، أجوف، رنّان، لكن مكتوم.. تملّكني التوتر تمامًا، فهممت واقفًا، ولكن حركة "أشر" المتهزهزة لم تتأثر.. اندفعت صوب مقعده، عيناه كانتا منحنيتين تمامًا أمامه، وطليعته متحجرة لا حركة فيها، ولكن عندما وضعت يدي على كتفه، أحسست بقشعريرة تكتنف جسمه بالكامل، ثم ارتسمت ابتسامة صفراء على شفتيه المرتجفتين، وبدأ يتحدث بصوتٍ منخفض وتمتمةٍ متعجلة متسارعة، وكأنه لا يدري بوجودي، انحنيت بالقرب منه حتى أسمع كلماته الخفية التي يتمتم بها، ثم سمعته يقول:

– ألم تسمع؟ أجل.. سمعت ومازلت أسمع.. سمعت منذ عدة دقائق، عدة ساعات، عدة أيام.. طويلة.. طويلة.. طويلة.. إلا أني لم أجرؤ.. يا لتعاستي! يا لبؤسي! لم أجرؤ، لم أجرؤ على الحديث.. دفنّاها حية في قبرها! ألم أقل أن أحاسيسي فطنة؟ والآن أخبرك أني سمعت حركاتها الواهنة الأولى في قبرها الشاغر.. سمعتها، منذ أيامٍ طويلة، ولكني لم أجرؤ، لم أجرؤ على التحدث! والآن، الليلة، إيثلريد، ها! ها! الذي كسر باب ناسك الكنيسة، وصرخة الموت التي أطلقها التنين، وضجّة الدرع الصاخبة، كان هذا صوت تمزيق تابوتها الخشبي، وصرير بوابة محبسها الحديدية، ومعاناتها وهي تسير على أرضية مدخل القبو المفروشة بالنحاس.. أوه! إلى أين أطير؟ هل ستكون هنا حالًا؟ أليست تتعجل لومي على تسرعي؟ ألم أسمع صوت خطواتها على درج البيت؟ ألست أميّز صوت ضربات قلبها الثقيل المرعب؟ رجل مجنون!

وقف "أشر" غاضبًا على قدميه وصرخ عاليًا كمن يسلم روحه أخيرًا وقال:

- رجلٌ مجنون! أؤكد لك الآن أنها واقفة خلف هذا الباب.

انطلقت كلماته مفعمة بطاقة خارقة وكأنه يلقي تعويذة، لدرجة أن اللوحات التي كان يشير إليها سقطت وحدها على الأرض بكل ثقلها..

خرجت الكلمات من فمه وكأنها عاصفة عاتية، ولكن عندما توجهت أنظارنا نحو الباب، وجدنا جثمان السيدة "مادلين" واقفًا مُكفنًا، ترتدي فستانًا أبيض تغطيه الدماء، ويبدو على جسمها الهزيل أثر معاناة مريرة.. بقيت ترتجف للحظات وتعاني جيئةً وذهابًا على عتبة الباب، ثم أطلقت صرخة أنين خفيضة وانهالت بالكامل على أخيها.. أذاقته من عنفها وآلام موتها الآخير، فسقط صريعًا على الأرض ضحيةً للرعب الذي ألقته عليه.

هربت مذعورًا خارج الغرفة ومنها إلى خارج البيت، كانت العاصفة في أوجها وأنا أعبر الطريق القديمة، حتى داهمني ضوء قوي آتٍ من نهاية الطريق، فاستدرت لأرى مصدر ذلك الضوء والمنزل وظلاله وحدهم من خلفي.. جاء الضوء من البدر في تمامه مكتسيًا بلونٍ أحمر دموي لامع بشدة يصدر من ذلك الشق في سقف البيت الذي لاحظته بالكاد لدى وصولي في البداية؛ شقٌ متعرج يصل إلى الأرض، حملقت في الشق وهو يزداد اتساعًا، ثم جاءت زوبعة عنيفة فجّرت مدار القمر أمام عيناي، اضطرب عقلي وأنا أرى جدران البيت العظيمة تتقطع إربًا، ثم صدر صوت صياحٍ عنيف جدًا كصوت بحرٍ عظيم، واقتربت مياه البحيرة العميقة الداكنة من قدميّ وغطّت ركام "بيت أشر" في صمت.

***



الرسالة المسروقة

(1844)

حلّ الظلام على باريس في مساءٍ عاصفٍ من خريف عام ألف وثمانمائة وكذا، كنت حينها أجمع بين متعتي التأمل وتدخين الغليون في صحبة صديقي س. أوجست دوبِن، في مكتبته الخلفية الصغيرة، أو حجرة كتبه، في 33 شارع دونت، فوربورج – سانت جيرمان، الطابق الثالث، دثّرنا صمتٌ عميق لساعةٍ على الأقل، بدا على كلٍ منا الانشغال والانغماس في دوّامات دخان الغليون اللولبية التي عبأت جو الغرفة بالكامل.. أما بالنسبة لي؛ فانشغلت بمناقشة موضوعاتٍ بعينها لطالما كانت موضع حوارٍ بيني وبينه قبل أن تفترش ظلمة الليل الدنيا، أعني بالضبط قضية شارع مورج والغموض الذي يمتطي جريمة قتل ماري روجيه، نظرت في الأمر من قبيل الصدفة قبل أن ينفتح باب شقتنا معلنًا وصول أحد معارفنا القديمة، صديقنا السيد جي، مدير الشرطة الباريسية.

رحّبنا به بحرارة، فقد كان الرجل مسليًا تقريبًا بقدر تفاهته، ولم نره منذ سنواتٍ عدة..

كنا جالسين في الظلام حتى قام صديقي دوبِن ليشعل المصباح، إلا إنه جلس مجددًا ولم يشعل شيئًا، ذلك لأن الضيف السيد جي أخبرنا أنه قد جاء من أجل استشارتنا، أو بمعنى أصّح جاء ليسأل صديقي عن أمرٍ رسمي سبّب متاعب جمّة.

أمسك دوبِن بفتيل إشعال المصباح وقال: "لو أن هناك أمرًا يحتاج إلى هذا القدر من التفكير فالأولى أن نفعل ذلك في الظلام".. فرد عليه مدير الشرطة قائلًا: "هذه إحدى

غرائبك"، والمعروف عن هذا المدير أنه يطلق على أي شيء صفة "غريب" طالما أن هذا الشيء لا يدركه عقله، ومن ثم عاش في دائرةٍ مفرغة من "الغرابة".

قال دوبِن: "فعلًا" وأعطى ضيفه غليونًا ومقعدًا مريحًا.

بادرت بالسؤال: "وما المشكلة إذن؟ أرجو ألا يكون طريقة القتل نفسها".

– لا، لا شيئ من هذا القبيل، الحقيقة أن الأمر بسيطٌ جدًا، وكلي ثقة أننا قادرين على تسويته بكل سهولة، إلا إني أرى أن دوبِن يريد سماع تفاصيل الموضوع، لأنها فعلًا غريبة جدًا.

قال دوبِن: "بسيطة وغريبة".

– أجل، ولكن ليس الأمر بهذه البساطة، الحقيقة أن الأمر غافلنا كلنا لأنه بسيط جدًا، لدرجة أدهشتنا جميعًا.

– ربما بساطة القضية هي ما تثير دهشتك.

ضحك مدير الشرطة مستهزئًا وقال: "أي هراءٍ هذا الذي تقوله؟!"

– ربما كان اللغز واضحًا جدًا.

– يا إلهي! ومن قال لك هذا الهراء؟

– دليلٌ اكتشفته بنفسي.

– ها ها ها ها.. هو هو هو هو.

زمجر الضيف وأكمل قائلًا:

– آهٍ يا دوبِن، ستميتني ضحكًا!

بادرت بالسؤال مجددًا: "ولكن ما الأمر الذي تود مناقشته؟"

- سأخبرك.

اعتدل في جلسته بعدما نفث نفسًا طويلًا هادئًا من دخان الغليون وقال:

- سأخبرك حالًا، ولكن قبل هذا عليّ أن أخبرك أن هذه القضية في غاية السرية، وإلا سأفقد منصبي الحالي إذا علم أحدهم أني أخبرت أحدًا بها.

- أكمل إذن.

قال دوبِن: "أو لا تكمل".

- حسنًا.. فإني قد وصلني معلومات شخصية من مصدرٍ رفيع المستوى أن هناك وثيقة مهمة للغاية سُرقت من غرفته الملكية، الشخص الذي سرق الوثيقة معروف لا محالة، فقد شاهده المسروق، ومعروفٌ أيضًا أن الوثيقة مازالت بحوزته.

سأل دوبِن: "وكيف تعلم هذا؟"

- من طبيعة الوثيقة نفسها، ولأنه لم تظهر أي نتائج كان من المفترض أن تظهر فور انتقالها من ملكية السارق، أقصد من حيث استغلاله إياها، لأنه بالتأكيد هذا هدفه في النهاية.

قلت: "أوضح بعض الشيء".

- حسنًا، لعلي أغامر قليلًا إذا قلت لك أن تلك الوثيقة تمنح صاحبها سلطةً ما في مستوى ما.. أقصد سلطة كبيرة.

تحدث مدير الشرطة هنا بدبلوماسية كبيرة.

قال دوبِن: "مازلت لا أفهم بالكامل"

– أمازلت؟ حسنًا، فإن إفشاء محتوى تلك الوثيقة لطرفٍ ثالث لا أريد ذكر اسمه قد يعرض شرف شخصيةٍ ذات مكانةٍ رفيعة إلى الكثير من التساؤل.. كما أن هذه الوثيقة ستجعل صاحبها متسيدًا على الشخصية الخاضع لهذا التهديد.

– ولكن تلك السيادة تعتمد في الأساس على مدى علم ودراية السارق بعلم ودراية المسروق به، فمن يجرؤ؟

قال السيد جي، مدير الشرطة، "إن السارق هو الوزير دي، لذا فهو يجرؤ على كل شيء، يجرؤ على ما هو لائق وما هو غير لائق، حتى طريقة السرقة نفسها كانت جريئة بقدر ما هي حاذقة، فالوثيقة المسروقة عبارة عن رسالة استلمها المسروق في غرفة نومه وحيدًا، تلك الشخصية الرفيعة هي امرأة، وبينما كانت تطالع الرسالة فوجئت بدخول شخصيةٍ رفيعةٍ أخرى، فقررت إخفاء الرسالة عنها، ورغم محاولتها السريعة إخفاء الرسالة في الدرج، إلا إن الوقت داهمها واضطرت لوضعها على المنضدة مفتوحة.. إلا أن العنوان والمحتوى لم يكونا واضحين، فلم يلحظها أحد، وفي تلك اللحظة دخل الوزير دي ووقعت عيناه الحادتان على الرسالة، فعرف العنوان، ولاحظ ارتباك السيدة رفيعة المستوى، فكشف السر.. وبعد أن أنجز بعض معاملاته العادية بأسلوبه العادي؛ أخرج رسالة أخرى عادية تشبه الرسالة المهمة ووضعها بجانبها، ثم أكمل الوزير السارق حديثه عن بعض الشئون العامة، ولكن قبل رحيله أخذ الرسالة الأصلية.. رأت السيدة ما حصل، ولكن لم تجرؤ على الاعتراض، وخصوصًا في ظل وجود شخصٍ ثالث بجوارها.

قال لي دوبِن: "هذا هو ما يمنح السارق السيادة على المسروق.. معرفته به.

ردّ مدير الشرطة: "أجل، وقد تعززت تلك السيادة لأغراضٍ سياسية، حتى وصلت حد الذُبى، ومازالت السيدة مقتنعة بحقها في المطالبة بالرسالة المسروقة منها، إلا إن هذا الأمر لا يمكن علانيةً.. وعليه، فقد لجأت لخدماتي بأدبٍ يعتريه اليأس.

قال دوبِن في وسط غيمة كثيفةٍ من دخان الغليون: "ومن أذكى منك يتصدى لتلك القضية؟!"

– أخجلتم تواضعنا، ولكن هذا الرأي قد يحتاج إلى بعض المراجعة.

بادرت بالحديث قائلًا: "الأمر واضح كما قلت أن الرسالة مازالت بحوزة الوزير، ولكن السلطة التي صارت ملكه هي في الأصل قائمة على امتلاكه للرسالة وليس استغلاله لها، فمع استغلاله للرسالة ستذهب تلك السلطة هباءً منثورًا.

– فعلًا، وبناءً على هذا الاستنتاج قررت أن أبدأ بالتفتيش في فندق الوزير، والأمر جد صعب، فعليّ أن أفعل هذا من دون علمه، وقد حذرني آخرون من مغبّة ما أنا مقدمٌ عليه، ومن خطوره كشفه لمخططاتي.

– ولكنك خبيرٌ في هذا العمل، وقد قامت الشرطة الفرنسية بأعمالٍ مثل تلك مسبقًا.

– بالفعل، ولهذا السبب لم يتملكني اليأس، فقد درست عادات الوزير جيدًا، فالرجل يغيب عن بيته طوال الليل، وخدّامه ليسوا بالكثيرين، كما أنهم ينامون على مسافةٍ من شقة الوزير، ولأنهم أصلًا من نابولي فهؤلاء القوم يسكرون كثيرًا.. تعرفان أني أمتلك مفاتيحًا أفتح بها أي باب غرفة أو كابينة في باريس، ولم تمر ليلة طوال ثلاثة شهور لم أفتش فيها فندق الوزير بنفسي.. شغفني الأمر كثيرًا، والحق يُقال أن الجائزة التي وُعدت بها كبيرة جدًا، لذا لم أستنكف حتى علمت أن السارق أدهى مني، فقد خُيّل لي أني قد فتشت كل ركنٍ وكل شبر يمكن أن يخبئ فيه الرسالة.

– ولكن أليس من الممكن أنه على الرغم من امتلاك السارق للرسالة فقد أخفاها في مكانٍ آخر بخلاف مسكنه؟

قال دوبِن: "هذا احتمال ضعيف، فالوضع الراهن والشكوك التي تدور حول الوزير تحول دون ذلك، وقد تؤدي إلى كشف حقيقته، هذا إن ظهرت تلك الرسالة.

– إن ظهرت؟!

– فعلًا، واضح أن الرسالة مازالت في المبنى.. إلا إذا كان الوزير يخفيها بداخله.

– بالضبط، فلقد نصبت له كمينًا مرتين وكأن قطّاع طرق يسرقونه، وفتّشوه تمامًا تحت إشرافي.

– أظنك كلفت نفسك الكثير من العناء، فالوزير ليس بالغبي، ومن الطبيعي أن يتوقع مثل تلك التصرفات.

– ليس بالغبي، أتفق معك.. ولكن الرجل شاعر، أي لا يبعده عن الغباء إلا خطوة واحدة.

قال دوبِن بعدما نفث دخان غليونه حتى عبأ المكان: "صحيح، حتى أنا متهم بالخروج عن الوزن الشعري"

قلت: "هلا أطلعتنا على تفاصيل عملية التفتيش التي قمت بها؟"

– الحق يُقال أننا أخذنا كل الوقت الذي نحتاجه، وبحثنا في كل شبر، لطالما كانت لدي الخبرة في هذا.. فتّشت المبنى بالكامل غرفة غرفة، خصصت لكل غرفةٍ ليلة كاملة لمدة أسبوع.. فتّشنا أولًا أثاث كل شقة، ثم فتحنا كل درجٍ محتمل، لم يفُتنا أي درجٍ سري، فتلك الأمور ليست بالخفية عن رجال الشرطة، ولو سمح أيّ منا بأن يفوته درجٌ سري لكان غبيًا.. كما أننا نتمتع بقواعد صارمة، لا تفوتنا فائتة، فبعد الخزائن فحصنا المقاعد، واستخدمنا إبرًا طويلة رفيعة في جس الوسائد، أعتقد أنكما رأيتماني أستخدمها من قبل، حتى الطاولات نفسها نزعنا عنها أسطحها.

– لماذا؟

– في بعض الأحيان تجد أحدهم يخلع رأس الطاولة أو أي قطعة أثاث أخرى ليخبئ فيها مقالة مثلًا، حتى الأرجل نفسها فحصناها، وفي بعض الأحيان كنت تجد آخرين يخبئون مقالات في تلك الأرجل، حتى قواعد وأعمدة السرير لم تسلم منّا.

– ألم يمكنكم فحص تلك التجويفات بالصوت؟

– مستحيل، فمن يخبئ مقالة في مثل هذا المكان سيملؤه بالقطن.. كما أننا اضطررنا للعمل بدون إصدار صوت.

– ولكن ليس بوسعكم تفكيك وتفتيش كل قطعة أثاث تقابلكم، فمن أخبأ الرسالة من الممكن أن يضعها داخل أسطوانة رفيعة لا تختلف في شكلها عن إبرة كروشيه كبيرة، ويمكن إدخال تلك الإبرة في ظهر مقعدٍ ما.. هل فككتم كل المقاعد؟

– بالطبع لا، ولكننا فعلنا ما هو أفضل، فحصنا أغطية مقاعد الفندق بالكامل، فحصنا كل مفصل من مفاصل الأثاث، كل ذلك بمساعدة أقوى ميكروسكوب لدينا، ولو كان هناك أدنى قطع أو خياطة حديثة لما غابت عن أعيننا، على سبيل المثال، كانت أي حبة رمل صغيرة ناتجة عن استخدام الميكروسكوب واضحة وكأنها تفاحة كبيرة، بمعنى أن أي تشوه في الغراء أو أي تجويف في المفاصل كان سيتضح لنا.

– أعتقد أنكم بحثتم في المرايا، أقصد فيما بين حوافيها وألواحها، وقمتم بجس كل فراش، وكل غطاء، وكل ستارة، وكل سجادة أيضًا.

– بالطبع، وعندما انتهينا من المرحلة الأولى انتقلنا إلى تفتيش المنزل ذاته، فقسّمنا سطحه بالكامل إلى أقسام رقمناها حتى لا ننسى أيًا منهم، ومن ثم فتشنا في كل شبر داخل المبنى، بما في ذلك بيتين ملاصقين تمامًا، كل ذلك بالميكروسكوب كما قلت لكم مسبقًا.

– البيتين الملاصقين؟ لابد أن مهمة كهذه كبدتكم الكثير من العناء!.

– فعلًا، ولكن المكافأة المعروضة علينا كبيرة جدًا.

– وهل بحثتم في الأراضي المحيطة بالبيتين؟

– كل الأراضي ممهدة بقوالب الطوب، فلم تسبب لنا مشكلةً نسبيًا، ففحصنا الطحالب المتراكمة بين فواصل القوالب، ووجدناها لم تُمس.

– وبالتأكيد بحثتم بين أوراق الوزير وبين طيات كتب مكتبته.

– طبعًا، فتحنا كل طرد وكل رزمة ورق، ولم نكن نفتح الكتب فقط، بل كنا نقلب كل ورقة في كل مجلد، لا نكتفي بهز الكتب فقط كما يفعل بعض ضباط الشرطة.. كما كنّا نقيس سمك كل غلاف كتاب بأدق المقاييس وأجهزة الميكروسكوب، ولو كان أي من تلك الأغلفة محشوة بشيءٍ ما ما كانت لتفوتنا فائتة.. حتى لو كان الكتاب يتكون من خمسة أو ستة مجلدات كنا نستكشفهم بالكامل بالإبر.

– وهل فتشتم في الأرضيات أسفل السجاد؟

– بدون أدنى شك، نزعنا كل السجاد وفحصنا الأرضيات بالميكروسكوب.

– وماذا عن ورق الحائط؟

– أيضًا.

– وماذا عن القبو؟

– أيضًا.

قلت: "لابد أنك قد أخطأت في الحسابات إذن، والرسالة ليست بالمبنى كما افترضت"

– أخشى أنك محق فعلًا.. والآن يا دوبن، بم تنصحني؟

– أعد التفتيش من جديد.. وليكن شاملًا.

- لا داعي لذلك، فأنا متأكد تمامًا أن الرسالة ليست بالفندق.

- ليس لدي ما أقوله لك غير ذلك، ولكن أتعرف شكل الرسالة بدقة؟

- أجل..

وهنا أخرج الرجل مذكرة وطالعها بصوتٍ مرتفع واصفًا بدقة شكل الرسالة الداخلي والخارجي "الخارجي بالذات"، وفور أن انتهى من الوصف التفصيلي رحل محبطًا تمامًا أكثر من أي وقتٍ آخر عرفت فيه هذا الرجل الطيب الصالح.

وبعد مضي شهرٍ تقريبًا زارنا الرجل مجددًا، ووجدنا مشغولين كما المرة الأولى تقريبًا، أخذ غليونًا ومقعدًا وانخرط في حديثٍ عادي.. بعدها بادرت بالحديث.

- حسنًا يا جي، ماذا عن الرسالة المسروقة؟ أعتقد أنك اقتنعت أخيرًا أن لا شيء يفوت ذلك الوزير.

- عليه اللعنة! نعم، اقتنعت.. ولقد فتّشت المبنى بالكامل من جديد كما اقترح دوبِن، ولكنه عناءٌ بلا طائل.. بالضبط كما توقعت.

- كم كانت المكافأة المعروضة عليك؟

سأل دوبَن.

- لماذا؟ المكافأة ضخمة للغاية وسخية جدًا، لا أود ذكر قيمتها، ولكني لا أمانع أن أمنح أحدهم شيكًا بخمسين ألف فرنك لمن يساعدني في الحصول على تلك الرسالة.. الحق يُقال أن أهميتها تزداد يومًا تلو الآخر، ولقد تضاعفت قيمة المكافأة مؤخرًا.. ولكن لو وصلت إلى ثلاثة أضعاف قيمتها الحالية لن يكون بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت.

قال دوبِن متشدقًا ونفخات غليونه تحيط به: "ولكني أعتقد يا جي أنك لم تبذل قصارى جهدك في هذا المسعى.. ربما تحتاج إلى المزيد من الجهد.

– كيف؟ بأي طريقة؟

– لماذا؟ (بوف.. بوف) ربما (بوف.. بوف) توظف مستشارًا في هذه المسألة (بوف.. بوف.. بوف)، تُرى هل تذكر تلك القصة التي تحكي عن أبيرنيثي؟

– أتقصد قصة إعدام أبيرنيثي؟

– بالتأكيد، اشنقه ثم رحّب به، ولكن في يوم من الأيام جاء رجلٌ بخيل إلى أبيرنيثي ليحصل منه على مشورةٍ طبية.. وبعد حوارٍ عادي في جلسةٍ حميمية دسّ قضيته إلى الطبيب باعتبارها قصة من بنات أفكاره.

قال البخيل: " فلنفترض أن فلانًا يعاني من أعراضٍ كذا وكذا.. ما الذي تنصحه به أيها الطبيب؟"

قال أبيرنيثي: "أنصحه بماذا؟ بأن يأخذ نصيحة الطبيب بالتأكيد"

انفعل مدير الشرطة قائلًا: "ولكني على أتم الاستعداد لآخذ بالنصيحة، بل وأن أدفع في مقابلها أيضًا، كنت على وشك دفع خمسين ألف فرنك لمن يساعدني في هذه القضية."

أجاب دوبِن، بينما يفتح درجًا ويخرج دفتر شيكات منه: "إذن حرّر لي شيكًا بالمبلغ المذكور.. حينها سأعطيك الرسالة"

صُعقت.. بدا مدير الشرطة وكأن البرق صعقه، ظل الرجل غير قادرٍ على النطق والحركة لبضع دقائق.. ظل ينظر إلى دوبِن بنظراتٍ كلها شك بينما بقي فمه مفتوحًا وظلّت عيناه جاحظتين، تمالك مدير الشرطة نفسه، ثم أمسك قلمًا.. وبعد عدة وقفات وتحديقاتٍ لا معنى لها حرّر شيكًا بخمسين ألف فرنك ومرّره لدوبِن عبر الطاولة، أمسكه

الأخير وفحصه، ثم جلب الرسالة المسروقة وأعطاها إياه، ابتهج السيد جي بجنون، وأخذ يفض الرسالة بيدين مرتعشتين وألقى على محتواها نظرةً سريعة، وبعدها تقدم نحو الباب بأنفاسٍ متقطعة وخطواتٍ متكسرة، ومن الباب إلى خارج المنزل بدون أن ينبس ببنت شفة منذ أن طلب منه دوبن تحرير الشيك.

فور رحيل الرجل انخرط صديقي في شرح بعض المسائل قائلًا: "إن الشرطة الفرنسية متمكنةٌ حقًا، فهؤلاء الرجال حاذقون بارعون ماكرون، كما أنهم ضليعون في المعرفة التي تتطلبها مهامهم.. وعليه، عندما استغرق السيد دي في عرض تفاصيل تفتيشه فندق السيد دي كنت متأكد تمامًا من إجرائه تفتيشٍ شامل.. على نقيض العاملين معه"

قلت: "على نقيض العاملين معه؟"

- أجل، فالمعايير التي نفّذها صديقنا لم تكن الأفضل من نوعها فقط، بل إنه نفّذها بكل امتياز، فلو كانت الرسالة في مجال بحث هذا الفريق لوجدها أحد العاملين معه.

ضحكت.. ولكن بدا صديقي جادًا جدًا فيما يقوله.

واصل حديثه قائلًا: "صحيحٌ أن المعايير جيدة من نوعها، وصحيحٌ أنها نُفّذت بكل امتياز، إلا أنها لا تصلح مع تلك القضية وذلك الرجل.. لابد وأنه كيّف مصادره الجيدة على القضية التي بين يديه، وعليه فقد ارتكب من الأخطاء ما جعله يبدو دقيقًا جدًا أحيانًا وسطحيًا جدًا في أحيانٍ أخرى.. حينها يصبح طالب المدرسة أذكى منه، أعرف أحدهم كان يبلغ من العمر ثمانية أعوام، أعجب نجاحه في لعبة "زوج وفرد" الجميع.. إنها لعبة بسيطة تُلعب بالنرد، حيث يحمل اللاعب عددًا من أحجار النرد في يده ويسأل اللاعب أمامه ما إذا كان العدد زوجيًا أو فرديًا.. ولو جاء تخمينه صحيحًا يفوز المخمّن بحجر نرد، ولو جاء خاطئًا يخسر واحدًا.. فاز هذا الولد الذي أحدثك عنه بكل أحجار النرد في مدرسته.. بالطبع يعرف قاعدة معينة للتخمين، وذلك من خلال دراسة مهارة وحدس منافسيه، على سبيل المثال، إذا كان منافسه ساذجًا يسأله والنرد

بين يديه: "زوج أم فرد؟" فيقول المنافس "فرد" ويخسر، ولكن في المرة الثانية يفوز لأنه يقول لنفسه حينها: "إن هذا الساذج كان لديه عدد زوجي في المرة الأولى، لذا في المرة الثانية سيكون فرديًا.. سأقول فرد" وينجح.. ولكن إذا كان المنافس أقل سذاجة سيقول لنفسه: "هذا الرجل سيظن أني سأقول فرد لأغير النتيجة، ولكني سأقول زوج" ويقول زوج بالفعل وينجح.. والآن، تُرى أي نمطٍ تفكيري يتمتع به طالب المدرسة لدرجة أن زملاءه يقولون أنه محظوظ؟"

قلت: "إنه تطابق بين تفكير حامل النرد والمخمّن"

– بالفعل، وعندما سألت ذلك الطالب عن هذا التطابق الكامل وجدته يقول لي: "عندما أريد أن أعرف مدى ذكاء أو غباء أو دهاء أو طيبة من أمامي أجعل تعبيرات وجهي هي نفس تعبيرات وجهه، ثم أرى أي الأفكار والمشاعر التي تتولد في عقلي" تلك هي الإجابة التي كشفت العمق الزائف الذي تميز به كلٌّ من روشفوكو، ولابوجيف، وميكيافيللي، وكامبانيلا.

– وبهذا يتطابق فكر حامل النرد مع المخمّن، وعليه يعتمد هذا التطابق على الدقة التي يقيس بها الأول فكر الثاني.

– لقد فشل مدير الشرطة ورجاله مرارًا وتكرارًا بسبب نقص هذا التطابق والقياس الخاطئ، أو بالأحرى عدم قياس ذكاء الذين اشتركوا معه، فقد أخذوا في اعتبارهم فقط أفكارهم عن الإبداع، وأثناء بحثهم ارتسمت في عقولهم الأنماط التي كانوا سيخبئون بها أي شيء، ولهذا خدعهم الوزير.. حدث هذا لأنهم افتقروا للتنوع في أنماط تفكيرهم، وعندما وُعدوا بمكافأة مالية كبرى تمادوا في التفكير في الأنماط الشخصية القديمة بدون النظر في المبدأ الأساسي.. تُرى لِمَ كل هذا الحفر والجس والتفتيش والتمحيص واستخدام الإبر والميكروسكوب؟ تُرى لِمَ كل هذا التقسيم؟ كل هذا مجرد مبالغة غير محسوبة في تطبيق مبدأ واحد اعتاد عليه مدير الشرطة في تنفيذ عمله الروتيني، ألم تسمع

الرجل يقول أن كل الرجال يلجأون إلى حفر ساق مقعد أو حفرةٍ في ركنٍ بعيد، أليس هذا بديهيًا في الأساس؟ يمكن للرجل العادي تخمين تلك الممارسات بصورةٍ طبيعية جدًا.. هل تفهم وجهة نظري الآن؟ لو كانت الرسالة مخفيةٍ في مكان من الأماكن التي فتشها مدير الشرطة ورجاله لكان أمر إيجادها سهلًا وميسورًا، إن مكمن هزيمة السيد جي قائم على اعتقاده بأن الوزير أحمق لأنه يكتب الشعر، كل الحمقى شعراء، هكذا يرى مدير الشرطة.. وعليه فقد أخطأ بظنه أن كل الشعراء حمقى.

– ولكن هل هو الشاعر حقًا؟ أعتقد أن هناك أخان، وكلاهما معروف بكتابة الأدب.. أعتقد أن الوزير كتب في التفاضل والتكامل عن جدارةٍ وعلم، فالرجل رياضي وليس بشاعر.

– أنت مخطئ، أنا أعرف الرجل جيدًا.. الرجل رياضي وشاعر في نفس الوقت، يفكر بعقل الشاعر والرياضي في آنٍ واحد، لم يكن الرجل ليمتلك العقل الجيد لو أنه رياضي بحت، لكان وقع حينها تحت رحمة مدير الشرطة.

– أنت تفاجئني بهذه الآراء التي تناقض كل أصوات العالم.. أعتقد أنك لا تقصد الاستهانة بالفكرة التي تمثّلت عبر القرون، فالعقل الرياضي هو العقل المتميز عبر الزمن.

أجاب دوبِن مقتبسًا من الكاتب الفرنسي نيكولاس شامفورت "الغريب أن تكون كل فكرةٍ عامة وكل عرفٍ شائع مجرد هراء لأنه يتماشى مع الأغلبية" واستطرد قائلًا: "أؤكد لك يا صديقي أن الرياضيين بذلوا جهدًا واسعًا في نشر هذا المنطق الذي تتحدث عنه، والذي صار حقيقةً فيما بعد لمجرد شيوعه، فقد دسوا مصطلح "التحليل" في علم الجبر، إن الفرنسيين هم من حاكوا تلك الخدعة، ولو أن أي كلمة تستقي قيمتها من قابليتها للتطبيق، لكان علم الجبر تاليًا لمصطلحات مثل "الطموح" و"الدين" و"الشرف".

– أرى أنك قوي الحجة وتقدر على مجابهة علماء الجبر في باريس.. ولكن أكمل..

- دحضت الحجة المتاحة، أي أني دحضت تلك الحجة التي خرجت عن التفكير الرياضي، الرياضيات هي علم الشكل والكم، والعقل الرياضي عقلٌ منطقي يصلح لهذا، الخطأ هنا هو افتراض أن الجبر المحض قائم على حقائق تجريدية، ولذا ارتبكت من الشمولية التي تحدث بها صديقي.. كل ما هو يبدو حقيقيًا في العلاقة بين الشكل والكم هو في الغالب خاطئ فيما يتعلق بالأخلاقيات على سبيل المثال.. ففي علم الأخلاقيات - رغم عدم حقيقيته في الغالب - هناك قاعدة تقول بأن إجمالي الأجزاء يساوي الكل، ولا تنطبق هذه المنطقية على علم الكيمياء كذلك، هناك حقائق رياضية أخرى هي مجرد حقائق مجردة داخل حدود العلاقة، يقول براينت في كتابه العلمي بعنوان "الميثولوجيا" أنه على الرغم من أننا لا نؤمن بالقصص الخرافية الوثنية، إلا أننا نظل نشير إليها وكأنها واقع حقيقي، يشير علماء الرياضيات - وهم وثنيون في حد ذاتهم أصلًا - إلى الخرافات الوثنية بالحقائق، باختصار شديد، فإني لم أقابل بعد الرياضي الذي يطبّق مفهوم الجذر التربيعي في حياته تمام التطبيق.. ولو حدثته عن هذا لطرحك أرضًا.. فابعد عنهم أفضل لك.

ضحكت على تعليقه الأخير فأكمل قائلًا: "لو كان الوزير رياضيًا بحتًا لم يكن مدير الشرطة مضطرًا لتحرير ذلك الشيك، ومن ناحيةٍ أخرى فإني أعرف أن الرجل رياضي وشاعر في آنٍ واحد.. كما عرفت الرجل كأحدِ رجال الحاشية كذلك، وأنه مخادعٌ وجريئ، رجلٌ كهذا لم يكن لتفوته ألاعيب الشرطة وأساليبها، فالرجل توقع كل صغيرة وكبيرة سيفتش فيها رجال الشرطة، استغل رجال الشرطة غياب الرجل المتكرر مساءً، وهي خدعة محبوكة ليترك رجال الشرطة يبحثون طوال تلك الليالي واصلين في النهاية إلى النتيجة التي وصلوا إليها بأن الرسالة ليست بالفندق.. لابد وأن تلك الإجراءات كلها مرت عبر عقل الوزير، ولابد وأنه فكّر بأن كل الأماكن الخفية ستكون تحت أنظار رجال الشرطة كما الأماكن الظاهرة.. لابد أنه اقتنع ببساطة الأمر، وأعتقد أنك تذكر يا صديقي كم ضحك مدير الشرطة بصوتٍ يملؤه اليأس عندما قلت له أن هذا اللغز يسبب له الكثير من المشقة.

– أجل، أتذكر.. ظننته سيسقط أرضًا في نوبة ضحك.

استطرد دوبن شارحًا: "إن العالم المادئ غني بالتناظرات الجزئية مع العالم اللامادي.. وبناءً على هذا اكتسبت المبادئ (العقيدة) البلاغية لمسة من الحقيقة، فالمجاز أو التشبيه يجمّل الوصف الأدبي، وعليه يبدو مبدأ القصور الذاتي متطابقًا في الفيزياء والميتافيزيقا، في الفيزياء على سبيل المثال تجد أن الجسم الضخم يتحرك بصعوبة أكبر من الجسم الصغير..

هذا ما يعادله في الميتافيزيقا أن العقول الضخمة تجد صعوبة في التفكير وتعاني من قيودٍ أكبر من العقول الصغيرة، على الرغم من قوتها وثباتها.. من جديد، هل جذبت انتباهك أي لوحة من اللوحات المعلقة فوق أبواب المحال؟"

– لم أفكّر في هذا من قبل.

– هناك لعبة من الألغاز تُلعب فوق خريطة، وكل لاعب يحتاج إلى آخر ليجد كلمة عبارة عن اسم بلدة، أو نهر، أو دولة، أو امبراطورية، أي كلمة مهما كانت.. باختصار شديد، فوق تلك الخريطة يعمد اللاعب إلى إحراج منافسيه بإعطائهم أسماء ذات حروف دقيقة جدًا، في حين أن خبراء اللعبة ذاتها يعمدون إلى اختيار كلماتٍ ذات حروفٍ ضخمة تمتد من أول الخريطة حتى آخرها، تلك الكلمات والحروف تفلت من انتباه اللاعب من فرط وضوحها، ولكن هذا المفهوم كان أكبر من دهاء مدير الشرطة.. أو أصغر منه إلى حدٍ ما، لم يعِ أن الوزير قد يضع الرسالة المسروقة تحت أنف العالم بأسره بأفضل طريقة تمنع هذا العالم من مجرد ملاحظتها، ولكن كلما تأملت ذلك الذكاء الجريئ الذي تميز به الوزير والاندفاع الذي تميز به مدير الشرطة؛ علمت أن الوزير قد استخدم حيلةً شاملة وذكية تجعله يقتنع بعدم إخفاء الرسالة على الإطلاق.

أكمل صديقي قائلًا: "وبعد اقتناعي بتلك المقدمات، أحضرت نظارة خضراء العدستين وتوجهت إلى فندق الوزير، وجدت الوزير في مسكنه يتثاءب ويتشدق

كعادته متظاهرًا بالملل.. لعله أنشط إنسان حتى الآن، ولكن هذا فقط حين لا يراه أحد، وعندما انفردت به شكوت من ضعف نظري وتحججت بالنظارة التي من خلفها أخذت أمسح الغرفة كلها بمنتهى الحذر وركّزت في حديثه في نفس الوقت، وجّهت نظري إلى طاولة للكتابة كبيرة الحجم بالقرب من مجلسي، على سطحها عدد من الرسائل الملقاة عفويًا مع أوراق أخرى، ثم آلة موسيقية أو آلتين وعدد من الكتب..

وبعد فحصٍ شاق لم أجد ما يثير ريبتي، في النهاية وقعت عيناي على حامل بطاقات من الورق المقوّى المخرم المزركش يتدلى بشريطٍ أزرق غير نظيف مثبت بزرٍ نحاسي صغير تحت منتصف رف المستوقد مباشرةً، الحامل مقسم إلى ثلاثة أجزاء أو أربعة مثلًا، أعلاه خمس بطاقات زيارة أو ست، ثم رسالة جديدة منبعجة وعليها أختام كثيرة.. كانت ممزقة من المنتصف تقريبًا كما لو بقصد.. عليها ختم أسود كبير يحمل الحروف الأولى من اسم الوزير.. الرسالة موجهة إلى الوزير شخصيًا بخطٍ أنثوى منمق..

كانت بين البطاقات الأخرى بإهمال وازدراء متعمدين، علمت أنها المقصودة بمجرد أن وقعت عيناي عليها، صحيح أنها مختلفة في الشكل عن الرسالة التي وصفها مدير الشرطة، ولكن التضليل المتعمد وتركها بارزةً للقاصي والداني يتوافقان تمامًا مع استنتاجي السابق.. تعمّدت إطالة زيارتي بالدخول في نقاشٍ أعلم تمام العلم أنه سيجذب انتباه الرجل، ظلّ انتباهي منصبًا على الرسالة.. حفظت شكلها عن ظهر قلب ومكانها فوق الحامل، حتى اكتشفت شيئًا قتل الشك باليقين..

لاحظت أن حواف الرسالة بالية أكثر مما يجب. اتضح لي أن الرسالة قد قُلبت على ظهرها كالقفاز وتم ختمها من جديد كنوع من أنواع الخداع البصري.. تمنيت للرجل صباحًا جميلًا ورحلت على الفور تاركًا علبة النشوء خاصتي على الطاولة"

استطرد صديقي قائلًا: "عدت إلى الوزير في الصباح التالي لاستعادة علبة النشوء، ثم استكملت مع الوزير حديث الأمس الشيّق، وبينما انخرطنا في حديثنا دوى صوت

انفجارٍ عالٍ وكأنه طلقة مسدس أسفل النافذة، ثم انطلقت صرخات مفزعة وصيحات حشودٍ من الناس مرتعبة.. اندفع الرجل نحو النافذة وفتحها لينظر ما حدث، وفي تلك الأثناء توجهت لأضع الرسالة في جيبي ووضعت مكانها رسالة أخرى بنفس منظر الأصلية الخارجي، كنت قد قلّدت شكلها الخارجي في مسكني ووضعت نفس الحروف الأولى من اسم الوزير عليها بختمٍ مصنوع من الخبز"

"كان الصوت صادرًا من بندقية رجلٍ ثبت أن طلقاها فارغة بدون رصاص، فتركوه لحاله واصفين إياه بالمجنون أو السكران.. عاد الوزير من النافذة وودعته.. كان الرجل صاحب البندقية من طرفي.

– ولكن ما غرضك من استبدال الرسالة بأخرى؟ ألم يكن كافيًا بأن تأخذها وترحل؟

– إن الوزير رجل يائسٌ وسريع الانفعال.. كما أن الفندق لا يخلو من رفقائه الذين يعملون على خدمته، ولو فعلت كما اقترحت لما غادرت الفندق حيًا.. لم يكن ليسمع عني الصالحون في باريس أبدًا، بالإضافة إلى أني أمتلك هدفًا آخر أبعد من هذا.. أنت تعرف غرضي السياسي، في تلك المسألة عملت كمناصرٍ للسيدة المسروقة.. ظل الوزير مضطهدًا ومستغلًا لها لثمانية عشر شهرًا، والآن صارت هي صاحبة اليد العليا، سيكمل الرجل ابتزازه السياسي لها، غير عالمٍ بأنه يدمر حياته السياسية تمامًا.. كما أن انهيار الرجل سيكون صادمًا جدًا.. تحدث فرجيل عن السقوط السهل في "الإنيادة"، ولكن في هذه الحالة فإن الصعود أسهل وأهون من السقوط، في الوقت الحالي لا أتعاطف أبدًا مع الساقط، فهو وحشٌ كاسر، رجل ذكي بلا مبادئ.. إلا أنني وددت أن أعرف رد فعله عندما يفتح الرسالة المزروة التي تركتها له.. عندما يعلم أنه قد هُزم على يد "شخصيةٍ ما" كما وصفها مدير الشرطة.

– لماذا؟ هل تركت شيئًا ما بها؟

- عجبًا، وهل يصح أن أتركها فارغة؟ هذا أمرٌ مهين للوزير.. في مرةٍ من المرات أذاني هذا الوزير في فيينا، حينها قلت له مداعبًا إياه أنني لن أنسى هذا الفعل.. أعلم تمام العلم أنه سيود معرفة الشخص الأذكى والأدهى منه الذي انتصر عليه للتو، إلا أنني أعلم أنه على دراية تامة بخط يدي، فلم أمنحه مفتاحًا لفضوله القاتل.. إلا أنني تركت له الكلمات التالية في منتصف الرسالة المزورة:

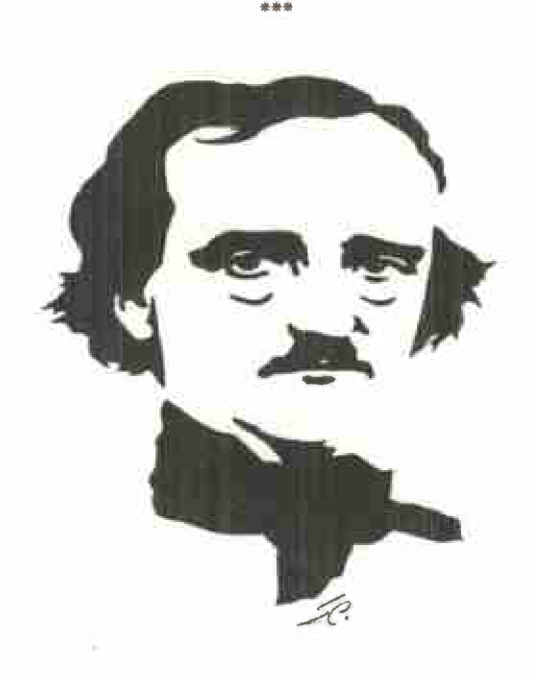
حبكةٌ قاتلة كهذه،

إن لم يستحقها أتريس،

فثيتيس يستحقها.

ستجد هذه الكلمات في مسرحية أتري لصاحبها كريبلون.

***



اللوحة البيضاوية

(1842)



القصر الذي جازف خادمي باقتحامه محاولًا فتح بابه لإدخالي لأقضي ليلةً في الهواء الطلق مرتاحًا من عنائي، هذا البيت كان نموذجًا للمزج بين الكآبة والأبّهة، كئيبًا وحيدًا بين جبال أبينيني الإيطالية كما وصفته السيدة رادكليف تمامًا، يبدو من مظهره أنه مهجور منذ عهدٍ قريب. اخترنا السكن في أصغر الغرف وأقلها أبهة، في برجٍ بعيد ضمن المبنى، زخارفه غنية على حالها الرث وقدمها، جدرانه مزدانة بالنسيج ومزخرفة بجوائز تذكارية كثيرة متعددة الأشكال، كل هذا مع عدد كبير جدًا من الرسومات حديثة الذوق داخل أطرٍ من خشب الأرابيسك الذهبي الثمين. لم تكن الجدران وحدها هي المزدانة بتلك الرسومات، بل حتى الزوايا الكثيرة المنتشرة في أرجاء القصر، زوايا فرضها تصميم القصر العجيب، وفي تلك الرسومات شيءٌ أثار اهتمامي الشديد، حتى طلبت من بيدرو – خادمي – إغلاق مصاريع الغرفة الثقيلة لأن الليل قد حان، معطيًا الفرصة لإشعال الشمعدان الزيني المنتصب لدى مقدمة فراشي وإزاحة الستائر المخملية السوداء التي غلّفت الغرفة ذاتها.. آملت أن يكون هذا كافيًا لا لأنام ولكن على الأقل لأنال قسطًا من التأمل في تلك الصور وأطّلع على مجلدٍ صغير وجدته أعلى الوسادة، المجلد يصف وينتقد الصور.

قرأت وقرأت، ونظرت بتمعّن..

مضت الساعات سريعًا بروعتها، وجرت الساعات حتى حلّ منتصف الليل.. ضايقني وضع الشمعدان، فمددت ذراعي بصعوبة – بدلًا من إيقاظ خادمي الناعس – لأضعه في مكانٍ يسلط ضوءه على الكتاب كله.

غير أن حركتي أتت برد فعلٍ غير متوقع.. سقطت آشعة الشمعدان (أكثر من شمعدان واحد) على ركنٍ في الغرفة لم يكن واضحًا بفضل الظلمة التي أسقطها عليه أحد أعمدة الفراش.. وبأثر هذا الضوء المنير رأيت صورة لم تكن ملحوظة من قبل.. صورة امرأة شابة يانعةٌ أنوثتها، لمحت اللوحة على عجل، ثم أغلقت عيني، لا أعرف لم فعلت هذا، ولكني فكّرت في السبب بينما ظلت عيناي على حالهما، كانت لحظة عفوية لكسب المزيد من الوقت للتفكير، ولأصدق أن عيني لم تخدعاني، لأفكر وأستجمع أفكاري استعدادًا لنظرةٍ أخرى عاقلة وأكيدة، وبعد لحظاتٍ معدودة نظرت إلى اللوحة بتركيز..

والآن لا داعي للشك، فومضة الشمع الأولى المنعكسة على اللوحة بدّدت ذهولي المسيطر على حواسي، فأيقظتني.

قلت أن اللوحة كانت لامرأةٍ شابة رأسها وكتفاها لا تفاصيل غنية فيهما، تمامًا مثل لوحات توماس سولي.. الذراعان والصدر وأطراف الشعر ذائبة في ظلٍ عميق غامض شكّل خلفية اللوحة كلها.. الإطار بيضاوي مُذَهّب ومزركش بطرازٍ موريسكي، أما عن العمل الفني نفسه فلا أجمل من اللوحة نفسها، إلا أن لا شيء جذبني فجأة وبشدة سواء كان تشطيب العمل أو جمال مظهره الخلّاب، ربما ظن عقلي الغائب نصفه أن رأس المرأة الشابة شيئًا أخر.. لاحظت على الفور غرائب التصميم وتفاصيله الغائمة، وإطاره، حتى تبددت ظنوني التي منعتني من الاستمتاع اللحظي باللوحة، ظللت أفكّر في الملاحظات الثلاث لساعةٍ تقريبًا لا نائم ولا مستلق، وعيناي لا تغيبان عن اللوحة، وفي الأخير استمتعت بسر أثرها الحقيقي، فألقيت ظهري على الفراش، وجدت سحر الصورة حي التعبير، في البداية أدهشني، وفي النهاية أربكني وهزمني وأفزعني..

بخوفٍ شديدٍ عظيم أعدت الشمعدان إلى مكانه الأصلي، والآن صار مصدر ارتيابي الشديد مظلمًا كما كان.. لجأت فورًا إلى المجلد الذي يصف الرسومات وتاريخها وصولًا

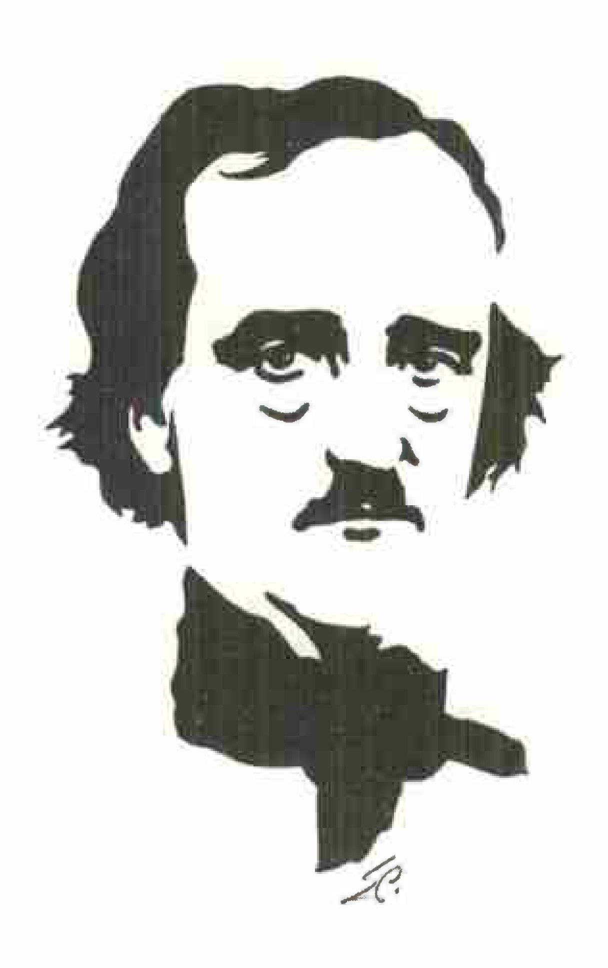
إلى الفصل الذي يصف تلك اللوحة البيضاوية؛ وفيه قرأت الكلمات الغامضة الغريبة التالية:

"كانت فتاة ذات جمال نادر، فتاة طروب.. ملعونة تلك الساعة التي رأت وأحبت وتزوجت فيها الرسّام.. كان محبًا، توّاقًا، صارمًا، فرحًا بفنه، وكانت فتاة ذات جمالٍ نادر، فتاة طروب، ضوّاءة، متبسّمة، سامرة كغزالٍ صغير، محبة مدلّلة لكل الأشياء، كارهة للفن فقط الذي كان نظيرها، خائفة من لوح التجميل والفرش والأدوات المشاكسة التي حرمتها من مقابلة حبيبها..

كانت ترتعد عندما تسمع الرسّام يبدي رغبته في رسمها، غير أنها كانت متواضعة طيّعة، فجلست بهدوء لأسابيعٍ طويلة في الظلام في غرفةٍ بالبرج العالي حيث يسقط الضوء على قماشها الباهت من الأعلى فقط، ولكن الرسّام أعجب بعمله الذي استغرق ساعة تلو الأخرى ويوم تلو الآخر.. ولأنه حسّاسٌ وشرس متقلب الطباع يغرق في أفكاره الحالمة، لم يرَ ذلك الضوء يسقط بشناعةٍ على ذلك البرج الوحيد ويسرق الصحة والروح من عروسه التي بهتت في أعين الكل إلا عينيه.. غير أنها ابتسمت وأكملت لا تشكو لأنها رأت الرسّام ذات الصيت الذائع يحترق من فرط سعادته بمهمته، فأخذ يصل الليل بالنهار يرسم عروسه التي أحبته، والتي يومًا تلو الآخر خسرت روحها ووهنت.. وفي الأخير من رأى اللوحة تحدث بكلماتٍ خافتة عن الشبه الكبير بين الأصل والصورة، عن روعة الرسم، وعن كونه دليلٌ على عشقه لمن رسمها بهذا الجمال لا على جمال الرسم فقط. ومع قرب انتهاء الرسم لم يسمح الرسّام لأحدٍ بدخول البرج، فصار أشد إعجابًا بعمله.. وعندما أبعد عينيه عن اللوحة لينظر إلى زوجته لم يجد لون خديّ زوجته الجالسة أمامه كما يبدو في اللوحة! مرت أسابيع طوال، لم يتبق الكثير على انتهاء اللوحة، مجرد فرشاة على الثغر وفرشاة أخرى على العين، عادت الروح إلى الفتاة كما تعود شعلة المصباح من انطفائها، وضع الرسّام فرشاته،

أنهى رسمه ووقف أمام اللوحة، غير أنه نظر فارتجف وشحب لونه.. ذُعر وبكى وذاع بكاؤه. قال: "تلك هي الحياةّ" ثم التفت إلى زوجته ليجدها فارقت الحياة!

***



حفلة الموت الأحمر التنكرية

(1842)



دمّر الموت الأحمر البلاد طويلًا، لم يحل من قبل طاعون قاتل وشنيع كهذا؛ الدم عنوانه.. حمرة ورعب الدم، يُصاب المرضى بألمٍ موجع، ودوارٍ مفاجئ، ونزيفٍ غزير يخرج من مسام الجلد، ثم يحل الموت.. كانت البقع القرمزية فوق أجساد الضحايا، وخاصةً فوق الوجنتين؛ هي وصمة الوباء التي تحول دون تلقّي هؤلاء الضحايا أي مساعدة، وتحرمهم من أي تعاطف، ولا يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة، يأتي المرض بأعراضه ويتطور ولا يرحل إلا بموت الضحية.

إلا أن الأمير بروسبيرو كان سعيدًا وشجاعًا وحكيمًا، فعندما راح نصف سكان أراضيه جراء الطاعون استدعى ألف صديقٍ معاف للمثول أمامه، كانوا من بين فرسان البلاط وسيداته، ثم نأى بنفسه إلى مكانٍ منعزل في أحد أديرته الحصينة، كان الدير عبارة عن مبنى واسع وأنيق يجسد أطوار الأمير نفسه على غرابتها، إلا أنه كان ذا ذوقٍ حسّاس.. كان المبنى محصنًا بجدارٍ صلب مرتفع وأبوابٍ حديدية، دخل رجال الحاشية وأحضروا الأفران والمطارق الضخمة ولحموا المزاليج من الداخل، كل هذا لمنع أي وسيلة دخول أو خروج إلى أو من المبنى، كان الدير مليئًا بالمؤن الوفيرة، وربما أعلن رجال الحاشية بتلك المؤن والتحصينات الحرب على الطاعون.. كان شعارهم "فليحترق العالم الخارجي ما دام الدير بأمان" كما أن الأمير قد وفر كل أشكال المتعة، فجلب المهرجين والموسيقيين وراقصات الباليه ووسائل المتعة والنبيذ..

كل هذا في إطارٍ من الأمان، أما بالخارج فالسيطرة للموت الأحمر.

ومع اقتراب نهاية الشهر الخامس أو السادس من العزلة، وبينما كان الطاعون يفترس ما يقابله بالخارج، أقام الأمير بروسبيرو حفلة تنكرية لأصدقائه الألف.. حفلة لا مثيل لروعتها.

كانت حفلة بهيجة تمتع الحواس، ولكن دعوني أخبركم عن الغرف التي وفرها الأمير لضيوفه.. كانت سبع غرف؛ جناحًا امبراطوريًا، من المعهود في القصور أن جناحًا كهذا يكون عبارة عن دهليز طويل مستقيم وغرفه ذات أبوابٍ قابلة للطي على الناحيتين، ولذا لا يحول الباب دون رؤية الدهليز بأكمله، إلا أن الأمير كان معروفًا بحب الغرائب من الأمور، فالغرف لا نظام معروف لها، بحيث لا توجد غرفة وحدها على حدة..

فبين كل غرفة والأخرى انحناءٌ حاد على بعد عشرين أو ثلاثين ياردة، وفي منتصف كل جدار تنتصب نافذة قوطية طويلة وضيقة، تطل النافذة على ممرٍ مغلق. النوافذ كلها من الزجاج الملون، ولكن كل لون يتناسب مع زينة الغرفة نفسها، على سبيل المثال؛ كان الجانب الشرقي مزينًا بالأزرق، ولذا فنوافذه باللون الأزرق الزاهي، وغرفة ثانية أرجوانية الزخرفة، فنوافذها أرجوانية برّاقة، وغرفة ثالثة خضراء الزخرفة، وكذلك النافذة.. أما الرابعة فتلمع بالبرتقالي، والخامسة بالأبيض، والسادسة بالبنفسجي، والسابعة مكسوةٍ بقماشٍ أبيض مخملي يتدلى من السقف على طول الجدران ساقطًا رأسيًا على سجادة من نفس الخامة واللون.. إلا أن هذه الغرفة مختلفة، فألوانها غير متسقة مع نوافذها، أقصد أن الألواح هنا قرمزية اللون. ليس بأي غرفة شمعدان أو قنديل، ولا أي ضوء من أي نوعٍ ينبعث من مصباحٍ أو حتى شمعة داخل أي غرفة، ولكن الأمر مختلف في الممرات، فأمام كل نافذة هناك كان ينتصب حامل ثلاثي القوائم ثقيل متين يحمل جمرةً من النار تنعكس آشعتها عبر الزجاج الملون لتضيئ الغرفة، يخرج من الجمرة أشكال مبهرجة وغريبة، ولكن في الغرفة الغربية السوداء كان انعكاس جمرة النار على زخارفها السوداء عبر الألواح دموية الشكل مروعًا، ويبدو أنه أضفى هيئةً وحشية على ملامح من سكنها، قلة فقط من روّاد الحفل كانت لديهم الجرأة لدخولها.

كما أن هناك ساعة ضخمة الجثة تقف عند الحائط الغربي مصنوعة من خشب الأبنوس، يتأرجح بندولها يمينًا ويسارًا برتمٍ كئيب وثقيل وممل، وعند رأس كل ساعة يصدر عن الساعة صوت عالٍ وعميق ذو نغمة فريدة معلنًا عن الساعة، بحيث كان يتوجب على عازفي الأوركسترا التوقف عن العزف لسماع الصوت، وحينها يتوقف الراقصون عن حركاتهم، وأثناء دوي الساعة يُلاحظ أن أكثر المُصابين بالدوار تتحول وجوههم إلى الشحوبة، والأكبر سنًا يمررون أصابعهم فوق حواجبهم وكأنهم في حلم يقظة، وما أن ينتهي صوت الساعة ينخرط المحتفلون جميعًا في ضحكاتٍ جزلة، وينظر الموسيقيون إلى بعضهم البعض وكأنهم يقولون أن صوت الساعة التالية لن يؤثر فيهم، وبعد انقضاء ستين دقيقة (أي ثلاثة آلاف وستمائة ثانية ضائعة هباءً) تدوى رنة أخرى،وحينها يحل الاضطراب والتأمل نفسه كما كان من ساعة.

ولكن بغض النظر عن هذه الأشياء، قد كان وقتًا بهيجًا ولذةً مبهجة، طالما كان الدوق ذا ذوقٍ استثنائي، يملك نظرةً فنية في اختيار الألوان وتأثيرها على الأشياء، طالما كره الزخرفة المبهرجة، تصميماته جريئة ونارية، أفكاره متألقة، ظن البعض أنه مخبول، إلا أن رفاقه خالفوهم الظن، لابد أن تسمعه وتراه وتلمسه لتتأكد أنه ليس بمخبول.

أشرف الدوق على جزءٍ كبير من الزخارف المتحركة في الغرف السبع استشرافًا لهذا الحدث الجلل.. كان ذوقه هو ما يحدد شخصيات الوجوه التنكرية في الحفلة، وتأكد أن الوجوه ستكون زخرفية، الوجوه تعبر عن شخصياتٍ مبهرجة لامعة شبحية كثيرًا، تماثل الوجوه شخصيات مسرحية "هيرناني" لفيكتور هوجو.. هذا بالإضافة إلى الأشكال الأرابيسكية ذات الأنماط المبهرجة والأجزاء المتنافرة، وأيضًا الخيالات الغريبة مثل الرجل المجنون..

الكثير من الجمال يغطي الحفلة، والكثير من الإسراف والبذخ كذلك، وأيضًا الكثير من الغرابة، وشيء من الفظاعة، وقدر ليس بالضئيل من الاشمئزاز المتعمد، حشدٌ من

الأحلام يروحون ويجيئون في الغرف السبع، أحلامٌ ملتوية متموجة ازدانت بألوان الغرف وتألقت بموسيقى الأوركسترا.. وفورًا تدق الساعة الأبنوسية المنتصبة في القاعة المخملية.. ضجّ الصمت في أنحاء القاعة، لا يقاطعه إلا رنين الساعة.. تجمدت الأحلام في موقعها، وبتلاشي الرنين شيئًا فشيئًا عادت الضحكات الخفيفة شبه المكبوتة من جديد، ومرة أخرى تعلو الموسيقى وتعود الأحلام متلوية متموجة أكثر، تتلون الأحلام بألوان النوافذ التي تنعكس عليها آشعة الشمعدان ثلاثي القوائم، إلا أن أحدًا من الحاضرين المحتفلين لم يجرؤ على اقتحام الغرفة أقصى غرب الغرف السبع..

فمع انحسار الليل يتدفق بداخلها ضوءٌ أحمر قادمًا من نوافذها الحمراء الدموية، سجادها الأسود يثير في النفس الرعب، ولذا فمن يطأ بقدمه السجاد يجعل الساعة الأبنوسية تطلق جلجلة خامدة مخيفة أكثر من صوتها العادي، سيسمعها كل المنغمسين في متع الغرف السبع الأخرى.

غير أن الغرف الأخرى كانت أكثر ازدحامًا، بل وأكثر حيوية أيضًا.. سار بين أرجاء المكان حلم يقظة حتى منتصف الليل.. سكتت الموسيقى، وهدأت رقصات الراقصين، وماتت اللحظات.. والآن تطلق الساعة اثنتي عشرة قرعة، وكأن القرعات أيقظت الرغبة في صدور الحاضرين، وقبل أن تموت القرعة الأخيرة انتبه الكثير من الحضور إلى شخصٍ متنكر غريب بينهم.. أخذوا يتهامسون ويتبادلون الأحاديث عن هذا "الشيئ" مستنكرين بهمهماتهم وجوده،حتى صار الاستنكار رعبًا، فذعرًا، فاشمئزازًا.

ليس من المفترض أن يثير هذا الإحساس ظهورٌ عادي كهذا، وخصوصًا في ظل هذا الجو الشبحي.. الحق يُقال أن ترخيص الحفل التنكري لم يكن محدودًا تقريبًا، ولكن هذا الشخص فاق الاصطناع باصطناعٍ غيره، تجاوز الحدود اللانهائية لزينة الأمير نفسه، هناك رهطٌ من الطائشين ترتسم الأوتار على قلوبهم وتنزرع في قلوبهم العاطفة، ولكن ثمة مسائل لا يمكن المزاح بشأنها..

والآن صار الحفل كله يشعر بأن مظهر وملابس الشخص الغريب غير ملائمين. كان الشخص الذي نتحدث عنه طويل القامة نحيل البنية مكفنًا من رأسه حتى أخمص قدميه بلباس الدفن، وقناعه الذي يرتديه يغطي وجهه على هيئة جثة متيبسة، ولو نظرت إلى الوجه عن كثب لن تكشف حقيقة القناع، ومع ذلك فقد كان هذا ما يقدر الحاضرون على تحمله، إلا تلك الغمغمة التي صوّرت للبعض أنها صوت الموت الأحمر؛ فثوب الرجل كان يقطر دمًا، كما أن وجهه العريض وملامحه تنضح بالرعب الأحمر.

عندما وقعت عينا الأمير بروسبيرو على هذا الطيف الذي أخذ يتحرك ببطء وخلسة وكأنه يؤدي دورًا بين صفوف الراقصين، رأي الجميع انتفاضته مرتعدًا لهول ما رآه ولبشاعة ما وقعت عليه عيناه، ولكن تحول الوجه الخائف إلى غاضب بعدها بلحظة.

سأل أحد رجال البلاط بالقرب منه بصوتٍ أجش: "من ذا الذي يجرؤ على إهانتنا بهذا المظهر الساخر المهين؟ اقبضوا عليه وانزعوا عنه قناعه، نود أن نعرف من سنشنق عند شروق الشمس من شرفة الحصن"

كان الأمير حينها يقف في الغرفة الشرقية الزرقاء، انطلقت كلماته عالية واضحة عبر غرف المكان السبع.. طالما كان الأمير جريئًا جسورًا، سكتت الموسيقى بإشاره من إصبعه.

وقف الأمير في الغرفة الزرقاء بصحبة مجموعة من رجال البلاط ذوي الوجوه الشاحبة.. وبينما كان الأمير يتكلم تحرك الرجال حركةً خفيفة في اتجاه ذلك الرجل الذي صار في متناول أيديهم، حتى أنه صار يقترب منه متأنيًا، ولكن نظرًا للهيبة التي زرعها الغامض في نفوس الحاضرين لم يجرؤ أحدهم على القبض عليه..

دنا الرجل من الأمير بلا عائق يحول بينهما بينما بدا الحاضرون جميعًا وكأنهم ينكمشون داخل الجدران، شق الرجل طريقة نحو الأمير بسهولةٍ يعتريها بعض التباطؤ

الحذر، عبر الغرفة الزرقاء إلى الأرجوانية، ومنها إلى الخضراء، ثم البرتقالية، ثم البيضاء، وصولًا إلى البنفسجية، حينها أقبل أحدهم للإمساك به، أقبل الأمير بروسبيرو غاضبًا باندفاعٍ وخجل من خوفه المؤقت عبر الغرف الست، كما أن أحدًا لم يقترب منه بسبب الرعب المميت الذي أسكت الجميع، استلّ خنجرًا من غمده ودنا بجموحٍ بقدر ثلاثة أو أربعة أقدام من الشخص المتراجع الذي وصل إلى الغرفة المخملية، التفت فجأة وواجه مطارده..

انطلقت صرخةٌ مدوية ثم سقط الخنجر اللامع على السجادة السوداء التي هوى عليها الأمير بروسبيرو هو الآخر.. سقط صريعًا، تمكنت الشجاعة من الحاضرين فاندفعوا جميعًا إلى الجناح الأسود والتفوا حول الشخص المتنكر الذي ظل منتصبًا باردًا في ظلال الساعة الأبنوسية، دوت شهقاتهم المرتعبة فور علمهم بأن الكفن والقناع ليس أسفلها كائنٌ ملموس.. اعترف الجميع بوجود الموت الأحمر، استسلموا جميعًا.. قدم الموت كلصٍ في الليل، سقط الحاضرون في قاعات الحصن المخضبة بالدماء، ماتوا جميعًا في أماكنهم، حتى الساعة الأبنوسية فاضت روحها مع آخر أنفاس المرح.. انطفأت شعلات الشمعدان، وهيمن الظلام والدمار والموت الأحمر على كل شيء.

***



الحقائق في قضية م. فالديمار

(1845)

بالطبع لن أدّعي أن الجدل الذي أثارته قضية م. فالديمار يثير الدهشة.. وإن لم تفعل لكانت معجزة، وخصوصًا نظرًا لظروفها الاستثنائية، فبموجب رغبة كل الأطراف المعنية بالأمر بالحفاظ على سرية المسألة، في الوقت الحالي على الأقل، أو حتى تسنح فرصة إضافية أخرى لبحثها، ونظرًا لكل مجهوداتنا لتحقيق هذه الرغبة، وجدت رواية منقوصة أو مبالغ فيها منقولة إلى المجتمع، وأصبحت مصدرًا لأكاذيب كثيرة مزعجة، وبالتالي مصدرًا للكثير من عدم التصديق.

والآن، صار من الضروري أن أعرض الحقائق، وبقدر فهمي الشخصي لها، هاك تلك الحقائق باقتضاب:

طالما انصب اهتمامي خلال السنوات الثلاث الأخيرة على موضوع التنويم المغناطيسي، وفجأة، خطر لي منذ تسعة شهور تمامًا أن سلسلة التجارب التي أجريت حتى هذا الحين تضمن حذفًا كبيرًا جدًا غير مبرر على الإطلاق؛ حيث لم يُنوّم أحدهم حتى الآن وهو في قبضة الموت.. يبقى أن نرى أولًا ما إذا كان المريض في هذه الحالة قابلًا للتنويم المغناطيسي، وثانيًا إذا كانت تلك القابلية موجودة، ما إذا كانت تزيد أو تنقص بسبب الحالة، وثالثًا إلى أي مدى أو كم تطول مدة احتجاز العملية للموت.. صحيح أن هناك نقاط أخرى يجب التحقق منها، غير أن تلك النقاط هي التي أثارت فضولي إلى أقصى حد، وخصوصًا النقطة الأخيرة، نظرًا لأهمية نتائجها الكبيرة.

عندما بحثت عن أحدهم لأجرّب تلك التفاصيل، تذكّرت صديقي م. إرنست فالديمار، مؤلف (موسوعة الطب الشرعي) المعروف، ومؤلف الإصدارات البولندية من

(فالنستاين) و(جارجانتوا) تحت اسمٍ مستعار هو "إساكار ماركس". كان صديقي يقطن أساسًا في هارلِم، نيويورك، منذ عام 1839، وهو شخص لافت للنظر، وخصوصًا لتميز خصائص جسده؛ فأطرافه السفلى تشبه أطراف جون راندولف، وسوالفه البيضاء، تلك المتناقضة تمامًا مع شعره الأسود، قد يظنها المرء خطأ أنها شعر مستعار. كان مزاجه العصبي ملحوظًا، مما جعل منه شخصًا مناسبًا لتجربة التنويم المغناطيسي.. لم أتعب في تنويمه إلا قليلًا في مرتين أو ثلاث، إلا أنه خيّب أملي بنتائجه الأخرى التي توقعتها من نظري لتكوينه الخاص. لم تكن إرادته تحت سيطرتي مطلقًا، لا كليًا ولا حتى جزئيًا، ولم أنجح في صقل إدراكه بالصورة التي يُعوّل عليها، عزوت فشلي في تلك النتائج إلى صحته غير المستقرة؛ فقبل عدة شهور من تعارفنا كان أطباؤه قد أعلنوا مرضه بسلٍ عِضال، اعتاد الحديث بهدوء عن اقتراب أجله باعتباره أمرًا لا يمكن تفاديه، ولا يمكن الأسف عليه.

عندما جالت في بالي تلك الأفكار التي أشرت إليها مسبقًا، كان منطقيًا أن أفكر في السيد فالديمار، فلقد عهدت فيه ربطة الجأش الثابتة، فلم أخشَ أي تردد من جانبه، كما أن ليس للرجل أي أقارب في أمريكا ليتدخلوا في الأمر.. حدثّته في الأمر بصراحة، واندهشت من اهتمامه الشديد، اندهشت لأنه على الرغم من إخضاعه جسده لتجاربي طواعيةً لم تبد عليه أدنى إشارة تعاطف مع ما أفعل، فقد كان مرضه من النوع الذي يسمح بإجراء حسابات دقيقة لتوقع موعد قدوم الأجل.. اتفقنا على أن يرسل إليّ قبل الفترة التي يعلن أطباؤه أنها الأربعة وعشرين ساعة الأخيرة.

مضى أكثر من سبعة شهور تقريبًا منذ أن أرسل إليّ السيد فالديمار الملاحظة التالية:

"عزيزي بـــ..، بإمكانك الحضور الآن، فقد اتفق كلٌّ من (د) و(ف) على أنني لن أعيش إلى ما بعد منتصف ليلة غد، وأعتقد أن توقعاهما صادقة إلى حدٍ كبير.

تلقيت هذه الرسالة في غضون نصف ساعة من كتابتها، وفي خلال ربع ساعة كنت في غرفة الرجل المحتضر.. لم أكن قد رأيته منذ عشرة أيام، خفت جدًا من التحول المرعب الذي طرأ عليه إبّان الفترة الزمنية الوجيزة التي لم أقابله خلالها؛ فقد تحول لون وجهه إلى الرمادي، وانطفأت عيناه تمامًا، وأصبح نحيفًا جدًا لدرجة أن عظمتي وجنتيه اخترقتا جلد وجهه. كان كثير البُصاق، وبالكاد قست نبضه، ومع ذلك احتفظ الرجل بكل قواه العقلية ودرجةٍ من قواه الجسدية بصورةٍ استثنائية. تحدث بوضوح، كان قد أخذ بعض المهدئات بدونَ مساعدة، وعندما دخلتُ غرفته كان منشغلًا بتخطيط بعض الوثائق القانونية داخل محفظةٍ ورقية، كان متكئًا إلى وسائد ساعدته على الجلوس في الفراش، بينما كان الطبيبان حاضرين.

ربتّ على يديه ثم انفردت جانبًا بالطبيبين، حصلت منهما على تفاصيل دقيقة لحالته، كانت رئته اليسرى في حالةٍ شبه عظمية أو غضروفية منذ ثمانية عشر شهرًا، ولا تنفع طبعًا لأداء أي نشاطٍ حيوي، كما أن الجزء العلوي من الرئة اليمنى عظميًا – جزئيًا – بينما الجزء السفلي من نفس الرئة عبارة عن كتلة من الأورام المتقيّحة يسيل كل ورم منها على الآخر، وفي كل ورم ثقوب كثيرة، وعند نقطةٍ من الرئة يلتصق اللحم بالأضلاع.. تبدو الإصابة في الفص الأيمن جديدة نوعًا ما، فقد تسارعت عملية التعظّم بشكل استثنائي، ولم تبد لها أي أمارات قبل شهر..

لاحظ الطبيبان هذا الالتصاق خلال الأيام الثلاثة المنقضية فقط، وبعيدًا عن السل، فقد كان الرجل معرضًا لتمدد الشريان الأورطي، وبناءً على هذه الحالة، فقد منعت أعراض التعظّم القيام بتشخيصٍ دقيق.. رأى الطبيبان أن السيد فالديمار ميتٌ بحلول منتصف ليل الغد (الأحد). كانت الساعة وقتها السابعة من مساء السبت.. تركت مكاني بجوار فراش المريض العِضال لأجري حديثًا مع نفسي، ودع الطبيبان الرجل الوداع الأخير، لم ينتويا العودة إليه من جديد، وبكن بناءً على طلبٍ مني وافقا على فحص المريض مجددًا في الساعة العاشرة من الليلة التالية.

رحل الطبيبان، فتسنى لي الحديث بحرية مع السيد فالديمار حول موته الوشيك، كما تحدثت معه عن التجربة المقترحة بخصوصيةٍ أكبر.. مازال موافقًا، بل أعرب عن تشوقه لإجرائها، وشجعني على البدء فيها فورًا.. كان معنا ممرض وممرضة، ولكنني لم أجد نفسي حرًا أبدًا للمشاركة في تجربة من هذا النوع بدون شهود أدق من هذين، في حالة ما إذا طرأ شيءٌ ما مفاجئ، ولذلك أجلت التجربة حتى الثامنة من الليلة القادمة، حينها شعرت بالحرية عندما قدم طالب طبي على معرفة بي اسمه تيودور ل. ي.، فلم يعد هناك مجال للإحراج.. كانت خطتي أساسًا انتظار حضور الطبيبين، ولكنني تشجعت بكثرة توسلات السيد فالديمار الطارئة، وأيضًا باقتناعي بأنه لا توجد لحظة لأضيعها.. فالرجل كان ينهار بسرعة.

كان السيد ل. ي. لطيفًا، حيث لم يعارض رغبتي في تسجيل كل ما يحدث، وأغلب ما أحكيه الآن هو من دفتر ملاحظاته سواء كان مكثفًا أو منقول حرفيًا.

أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة إلا خمس دقائق، حينها أخذت يد السيد فالديمار وطلبت منه أن يخبر السيد ل. ي. ما إذا كان مستعدًا تمامًا أن يخضع لتجربة التنويم المغناطيسي في حالته هذه أم لا.

أجاب المريض بصوتٍ مسموعٍ تمامًا على ضعفه: "أجل، أرغب في أن أُنوّم مغناطيسيًا".. ثم أضاف فورًا: "أخشى أنك أجلّت التجربة طويلًا."

وبينما كان يتحدث هكذا، حرّكت يدي التي وجدتها أكثر فاعلية في تهدئته.. كان واضحًا أنه تأثر بالربتة الطرفية الأولى ليدي على جبهته.. ولكن على الرغم من أنني بذلك قصارى جهدي، لم يقع أي أثر إضافي واضح حتى العاشرة وبضع دقائق حين جاء الطبيبان (د) و(ف) طبقًا للميعاد؛ شرحت لهما ما أنتويه في كلماتٍ معدودات، لم يعترضا لأن المريض كان بالفعل يعاني من سكرات الموت، فواصلتُ بدون تردد..

أبدلت من ناحيةٍ أخرى الحركات اليدوية الجانبية بحركاتٍ أخرى سفلية موجهًا نظري تمامًا إلى عين المريض اليمنى.

حينها كان نبضه ضعيفًا جدًا، كما كان يصدر صوت شخير أثناء تنفسه، هذا كل نصف دقيقة.

لم يتغير الوضع هذا تقريبًا لربع ساعة، وبانتهاء هذه المدة – من ناحيةٍ ثانية – أصدر صدر المريض تنهيدة طبيعية، إلا أنها عميقة جدًا، ثم توقف شخيره، بمعنى أن تنفسه لم يعد مسموعًا، غير أن الفترات الزمنية بين كل نفسٍ والآخر ظلت كما هي. كانت أطراف المريض باردة برودة الثلج.

وفي الحادية عشر إلا خمس دقائق، بدت أمارات قوية على تأثير التنويم المغناطيسي.. تغيرت حركة العين المتقلّبة الزجاجية ليبدو عليها أن فحصًا داخليًا يتم ولا يُرى إلا في حالات النوم .. أقصد اليقظة! وهو أمر من المستحيل فهمه خطأ، قمت بعدة حركاتٍ يدوية جانبية لأجعل الجفنين يرتعشان كما يحدث في المرحلة الأولى من النوم، ومع حركاتٍ أخرى أغلقت الجفنين تمامًا.. ومع ذلك، لم أكتف بهذا، بل واصلت نفس الحركات بقوة وبكامل إرادتي حتى تخشبت الأطراف تمامًا بعد أن وضعتهما في موضعٍ سهل.. كان الساقان ممتدين،وكذلك الذراعان تقريبًا.. كانا موضوعَين على الفراش على مسافةٍ متوسطة من عورته.. ظل الرأس مرفوعًا قليلًا.

عندما انتهيت من هذا الإجراء كان منتصف الليل قد حل تمامًا، طلبت حينها من الطبيبين فحص السيد فالديمار.. وبعد أن قاما بمهمتهما أكّدا على أنه في حالةٍ استثنائية من النوم.. أثارت حالته هذه ذهول الطبيبين! قرر الطبيب (د) فورًا أن يظل مع المريض طوال الليل، بينما غادر الطبيب (ف) على أن يعود مع بزوغ النهار.. ظل السيد (ل) والممرضان مع المريض.

تركنا السيد فالديمار مستريحًا تمامًا، هذا حتى الثالثة صباحًا، حيث اقتربت منه ووجدته في نفس الحالة بالضبط التي كان عليها عندما غادر الطبيبان.. ظل المريض راقدًا في نفس الوضع، كما ظل النبض خافتًا إلى درجةٍ كبيرة، وكذلك ظل التنفس لطيفًا (الذي لا يمكن ملاحظته إلا بوضع مرآة قرب شفتيه)، وأيضًا ظلت العينان مغلقتين بصورة طبيعية، والأطراف متخشبة للغاية وباردة كالرخام.. الغريب أن مظهر المريض الخارجي كان لا يعكس أبدًا مظهر الموت.

عندما دنوت من السيد فالديمار بذلت مجهودًا قليلًا لكى أجعل ذراعه اليمنى تلاحق ذراعي؛ فمرّرت ذراعي ريحةً وجيئة فوق جسمه.. لم أنجح كليةً في هذا الأمر مع المريض مسبقًا، ولم أظن أن التوفيق سيحالفني هذه المرة، ولكن أدهشتني ذراعه بينما تتحرك بسهولة شديدة، ولو بضعف مع ذراعي، قررت المجازفة بتوجيه بعض الكلمات إليه.

– سيد فالديمار، هل أنت نائم؟

لم يجب، ولكنني لاحظت رعشة حول شفتيه، وكأنه يحفزني لتكرار السؤال مرة تلو الأخرى، وعند المرة الثالثة، مرت رعشة خفيفة بجسده كله، انتصب جفناه وارتسم خط أبيض في مقلتيه.. تحركت شفتاه ببطء، ومن بينهما بهمسٍ أسمعه بالكاد خرجت بعض الكلمات.

– أجل، أنا نائم الآن! لا توقظني.. دعني أموت هكذا!

تحسست أطرافه فوجدتها متيبسة كما هي.. تبعت ذراعه اليمنى حركة يدي، سألت النائم – المستيقظ من جديد:

– هل مازلت تشعر بألمٍ في صدرك يا سيد فالديمار؟

– لا ألم! أنا أموت!

جاءت إجابته فورية هذه المرة، ولكن أقل وضوحًا.

رأيت أن من الأفضل عدم إزعاجه هذا الحين أكثر من هذا، فلا يوجد شيء أقوله أو أفعله قبل وصول (ف)، وعندما وصل الأخير قبل شروق الشمس بقليل أعرب عن دهشته العارمة عندما وجد المريض حيًا! جسّ نبضه ووضع مرآة بالقرب من شفتيه، ثم طلب مني أن أتحدث إلى النائم – المستيقظ من جديد.

– سيد فالديمار، هل مازلت نائمًا؟

وكما سبق، مرت دقائق عدة قبل أن يجيب، وخلال تلك الدقائق بدا عليه أنه يستجمع قواه ليجيب. عند تكراري السؤال للمرة الرابعة، قال بضعفٍ شديد، وبصوتٍ غير مسموع تقريبًا:

– نعم، مازلت نائمًا.. أموت!

حينها كان رأي الطبيبين – أو بالأحرى رغبتيهما – أن نترك السيد فالديمار دون إزعاج في حالته الهادئة البادية عليه حتى يغلبه الموت، وقد تم الاتفاق على أن هذا سيحدث خلال دقائق معدودات.. ومن ناحية أخرى، قررت أن أتحدث إليه مرة واحدة أخيرة وأن أكرر نفس سؤالي السابق.

وبينما كنت أتحدث، وقع تغير ملحوظ على ملامح النائم – المستيقظ من جديد. دارت عيناه ببطء وانفتحتا حيث اختفت الحدقتان إلى الأعلى، كما اكتسب الجلد – بصورة عامة – مسحة لون أشبه بلون الجيفة، حيث كان يشبه لون الرق أكثر مما يشبه ورقًا أبيضًا.. ذهبت بقع السل الحمراء التي كانت واضحة من قبل في منتصف كلٍ من وجنتيه..

أقصد بكلمة "ذهبت" المفاجأة التي اختفت بها البقع، مما جعلني أفكر فقط في شيء أشبه بانطفاء لهيب شمعة بنفخة نفس، وفي الوقت ذاته، كانت الشفة العليا قد التوت بمنأى عن الأسنان التي كانت مغطاة تمامًا من قبل، وفي نفس الحين وقع الفك السفلي

مصدرًا صوت طقطقة مسموعة، وهو ما ترك الفم ممتدًا على اتساعه وكشف تمامًا عن اللسان المبلوع أسود اللون..

أظن أن لا أحد في الجمع الحاضر حينها لم يكن معتادًا على أهوال سكرات الموت، ولكن مظهر السيد فالديمار كان فظيعًا بصورة تجاوزت المألوف، لدرجة أن جميعنا انكمشنا بعيدًا عن الفراش.

أشعر أنني قد وصلت الآن إلى مرحلةٍ ما في هذه القصة ستجعل القارئ يميل بعض الشيء إلى عدم التصديق تمامًا، غير أن ما يهمني الآن هو متابعة القصة ببساطة.

لم تعد هناك أدنى إشارة على حيوية السيد فالديمار، ونظرًا لأننا اقتنعنا بأنه مات،فقد وضعناه تحت رعاية الممرضين، حينها لاحظنا حركة اهتزازية قوية تنتاب لسانه، استمرت الحركة لعدة دقائق على الأرجح، وفور انتهائها صدر صوت من الفك المنبسط الجامد – صوتٌ من الجنون أن أحاول وصفه – تنطبق عليه صفتان أو ثلاث جزئيًا؛ فقد أقول إن الصوت، بمعنى الحروف والحركات على سبيل المثال، أجش متهدج أجوف، ولكن لا يمكنني وصف بشاعته بالكامل لسببٍ بسيط وهو أنه لا توجد أصوات شبيهة سمعتها الأذن البشرية من قبل..

ومع ذلك، فإن هناك سمتان فريدتان ظننت حينها – ومازلت – أنه يمكن النظر إليهما باعتبارهما تميزان طبقة الصوت، بالإضافة إلى أنهما تنفعان لنقل صورةٍ ما عن طبيعته غير الأرضية، ففي المقام الأول بدا أن الصوت يصل إلى مسامعنا – مسامعي أنا على الأقل – من مسافةٍ بعيدة، أو من كهفٍ واسع داخل الأرض، وفي المقام الثاني تَكَوَّن عندي انطباع – حيث أخشى أنني لم أكن مفهومًا بطبيعة الحال – أنه يشبه مواد هلامية أو غروية تترك انطباعًا عند لمسها.

تحدثت عن "الصوت" و"النبرة" على حدٍ سواء.. أقول أن الصوت كان من الأصوات ذات المقاطع اللفظية المميزة، بل وأيضًا مميزة تمييزًا رائعًا مرعبًا.. نطق السيد

فالديمار مجيبًا على السؤال الذي طرحته عليه منذ دقائق قليلة على ما يبدو. سألته – كما تتذكرون – عمّا إذا كان نائمًا، فقال:

– أجل.. لا.. كنت نائمًا.. والآن، الآن أنا ميت!

لم يجرؤ أيٌ من الحاضرين على إنكار أو قمع الرعب الفظيع والمروّع الذي نجحت هذه الكلمات التي نطق بها السيد فالديمار.. شعر السيد ل.ي. (الطالب) بغثيانٍ شديد.. غادر الممرضان الغرفة على الفور ولم يعقّبا مهما كانت المغريات.. لن أدّعي محاولتي جعل انطباعاتي ملموسة للقارئ.. انهمكنا لمدة ساعة تقريبًا – بصمت – دون أن ينبس أحدنا ببنت شفه، محاولين إسعاف السيد ل.ي.، وفور أن استعاد الرجل وعيه عدنا من جديد إلى فحص حالة السيد فالديمار، والتي ظلت على ما كانت عليه – من كل النواحي – فيماعدا أن المرآة لم تعد تشير إلى أي تنفس.. كما باءت محاولات سحب الدم من ذراعه بالفشل.. الجدير بالذكر أيضًا أن هذه الذراع لم تعد تطيع أوامري.. حاولت عبثًا أن أجرها على تتبع يدي، وفعليًا كان المؤشر الوحيد الحقيقي على أثر التنويم المغناطيسي هو حركة اللسان الاهتزازية حينما كنت أطرح الأسئلة على السيد فالديمار.. بدا أن الرجل يبذل مجهودًا ليجيب، ولكن لم تكن لديه الإرادة الكافية، بدا عليه عدم الشعور بأي سؤالٍ يُطرح عليه من أي شخص آخر غيري.. وذلك على الرغم من أنني عملت جاهدًا على الربط مغناطيسيًا بينه وبين كل المتواجدين في الغرفة..

أعتقد أنني قد حكيت التفاصيل الضرورية لفهم حالة النائم – المستيقظ من جديد – بهذا القدر.. استدعينا ممرضين آخرين، وعند العاشرة غادرت المنزل مع الطبيبين والسيد ل.ي.

عدنا من جديد بعد الظهر لكي نرى المريض.. ظلت حالته تمامًا كما كانت.. تحدثنا حينها عن مناسبة وإمكانية إيقاظه، ولكننا اتفقنا على أن لا هدف جيد قد نحققه من

هذا الفعل، كان واضحًا أن عملية التنويم المغناطيسي قد حاصرت الموت، حتى هذه اللحظة، بدا واضحًا لنا جميعًا أن إيقاظ السيد فالديمار لن يؤدي إلا إلى تأكيد انهياره الحالي أو تسريع وتيرته على الأقل.

ومنذ ذلك اليوم وحتى نهاية الأسبوع الماضي – سبعة شهورٍ تقريبًا – واصلنا زيارة بيت السيد فالديمار بصورةٍ يومية، بصحبة أصدقاء من الأطباء وغيرهم من حينٍ لآخر.. ظل النائم – المستيقظ من جديد – على نفس الحالة كما وصفته مسبقًا.. كما استمرت رعاية الممرضين له.

اتفقنا في النهاية يوم الجمعة الماضي على أن نجري تجربة إيقاظه أو نحاول على الأقل، وربما كانت النتيجة المؤسفة لتجربتنا الأخيرة هي التي خلقت كل هذا الجدل الكبير في الدوائر المختصة، وهي أيضًا التي ولدت كثيرًا مما لا أقوى على منع نفسي من اعتباره شعورًا عامًا غير مبرر.

استخدمت الحركات اليدوية الاعتيادية لإيقاظ السيد فالديمار من غيبوبته الاستثنائية، فشلت محاولاتي لبعض الوقت، غير أن المؤشر الأول على استيقاظه كان الهبوط الجزئي لحدقة عينه.. لاحظنا، لأنه أمر ملفت للنظر على وجه الخصوص، أن هبوط حدقة العين الجزئي صاحبه خروجٌ وفير لسائلٍ مصفر (مصدره تحت الجفنين) ذي رائحةٍ حادة كريهة جدًا.

اقترح الحيطون بي محاولة التأثير على ذراع المريض كما فعلت مسبقًا، حاولت وفشلت.. أبدى (ف) حينها رغبته في أن أطرح على المريض سؤالًا.. وجاء كما يلي:

– سيد فالديمار، هل يمكنك وصف مشاعرك أو رغباتك الآن؟

عادت بقع السل إلى وجنتيه على الفور، واهتز اللسان، أو بالأحرى أصابه التواء عنيف (رغم تيبس الفكين والجفنين كما كانوا) وفي الأخير صدر نفس الصوت الفظيع الذي وصفته:

- بالله عليكم! بسرعة، بسرعة، أنمني أو بسرعة أيقظني بسرعة.. أقول لك إنني ميت!

توترت أعصابي جدًا، وبقيت للحظة عاجزًا عن التصرف.. حاولت في البداية إعادة رباطة جأش المريض، ولكنني فشلت بعدما أصاب الشلل كامل إرادتي، عدت لأحاول مجددًا جاهدًا إيقاظه، ولكنني رأيت هذه المرة أنني سأنجح، أو على الأقل تعجلت في تصور نجاحي كاملًا، كما أنني متأكد من أن كل المحيطين بي متوقون لرؤية المريض مستيقظًا.

ومع ذلك، ما حدث فعلًا من المستحيل أبدًا أن يكون أي إنسان مستعد له.

فبينما كنت أمارس حركاتي اليدوية بسرعة وسط صيحاته "ميت! ميت!" المنطلقة من لسانه مباشرةً لا من شفتيه، تقلص جسمه كله مرة واحدة في دقيقةٍ واحدة.. تفتت جسمه واهترأ تمامًا تحت يدي، وفوق السرير، وعلى مشهدٍ من المحيطين أجمعين رقد جسمه كتلة سائلة من العفن الكريه.. عفن مقرف الرائحة.

***





القلب الواشي

(1842)

حقًا! عصبيٌّ أنا.. طالما كنت عصبيًا جدًا جدًا، بشكل مخيف، ومازلت كذلك، ولكن، لَمَ ستصفني بالجنون؟ لقد صقل السقم حواسي، لم يدمرها، ولم يمحها.. كما أن السقم قد صقل حاسة السمع لدي، فسمعت كل ما يدور في السماء والأرض.. سمعت أصواتًا من الجحيم.. تُرى أمجنونٌ أنا؟ اسمعني واصغِ لي، سأحكي لك القصة كلها..

مستحيل أن أصف لك كيف تغلغلت تلك الفكرة إلى عقلي، ولكن منذ أن فعلت وهي تطاردني ليلًا ونهارًا.. فكرة لا هدف منها ولا عاطفة فيها.. أحببت أبي، لم يظلمني أبدًا، ولم يهني أبدًا.. لم أطمع فيه قط، أعتقد أنها كانت عينه، أجل! عينٌ من عينيه بدتا كعين النسر، زرقاء شاحبة تغلّفها غشاوةٌ ما، وكلما وقعت عليّ تجمد دمي، وعلى هذا المنوال قررت قتله لأخلص نفسي من عينه إلى الأبد.

إليك ما حصل، تخيل أنني مجنون، المجانين لا يعقلون شيئًا، ولكن كان عليك أن تراني، أن ترى كيف طفقت أنفذ خطتي بحكمة وحيطة وبصيرة وتمويه، لم أكن يومًا حنونًا مع أبي بقدر ما كنت الأسبوع الأخير في حياته، قبل أن أقتله.. كنت أفتح باب غرفته كل مساء برفقٍ شديد وأُدخل رأسي فقط لأطفئ المصباح كي لا يشع نورًا.. كنت ستضحك عليّ وأنت ترى كيف أقحم رأسي ببراعة، تحركت رويدًا رويدًا متجنبًا إيقاظ الرجل العجوز من منامه، استغرق الأمر مني ساعة كاملة لأدخل رأسي بالكامل من فتحة الباب، كل ذلك لأراه نائمًا في فراشه. تُرى هل يتصرف المجنون بكل هذه الحكمة؟ وعندما يدخل رأسي أفتح المصباح بهدوء شديد كي لا يصدر بابه صوتًا..

أفتح باب المصباح بالقدر الكافي لتسليط شعاع نور بسيط على عين النسر.. فعلت هذا لسبع ليال، وكل ليلة أسلّط الضوء على عين النسر، وكل ليلة أجدها مغلقة تمامًا.. كيف لي أن أنفذ مهمتي؟ لم يكن الرجل هو من يغيظني، ولكنها عينه الشريرة.. وفي كل صباح أتوجه إلى غرفته بجرأة وأتحدث معه بشجاعة.. أناديه باسمه بمنتهى الود، وأسأله عن منامه، لو شكّ الرجل في أسئلتي ومراقبتي إياه خلال الليل فإنه رجلٌ صعب المراس فعلًا.

وفي ثامن ليلة كنت حذرًا أكثر من أي ليلةٍ سبقت.. عقرب الساعة أسرع من خطواتي.. لم أشعر بمدى قوتي وحيطتي مثلما شعرت تلك الليلة.. كبتّ شعوري بالانتصار بالكاد، فتحت الباب رويدًا رويدًا، لم يكن الرجل ليحلم حتى بأفكاري وأفعالي السرية، أضحكتني الفكرة لدرجة أنني ظننته استيقظ لأنه تحرك في فراشه فجأة وكأن شيئًا أيقظه! هل تظنني تراجعت حينها؟ لا، لم أفعل.. الظلام يعبئ المكان، كان أبي يغلق النوافذ بإحكام خوفًا من اللصوص.. ربما عرفت من هذا أنه لن يرى فتح الباب، فأخذت أدفع الباب بثبات.. بثبات.

أدخلت رأسي في الغرفة، وحين أوشكت على فتح المصباح انزلق إبهامي على زر القصدير، فانتفض أبي في الفراش صارخًا: "من هناك؟!"

وقفت صامتًا ولم أعقّب.. لم تتحرك عضلة في جسمي طوال ساعةٍ كاملة ظل فيها الرجل مستيقظًا منتصبًا في فراشه.. ظل هكذا يسمع صوت خنفساء الموت تنقر الحائط، تمامًا مثلما كنت أفعل كل ليلة.

ثم سمعت أنينًا ضعيفًا، إنه أنين الرعب المميت.. ليس بأنين ألمٍ أو أنين حزن، لا.. بل كان صوتًا مخنوقًا ضعيفًا يصعد من أعماق الروح المثقلة بالخوف.. أعرف هذا الصوت جيدًا، طالما سمعته كل ليلة عندما يخلد العالم كله إلى النوم، صوتٌ يصدر من صدري، تتضاعف مع ارتفاعه الأهوال التي أذهلتني.. الآن أعرف بماذا شعر الرجل، شعرت بما

شعر به، وضحكت من قلبي، علمت أنه يرقد مستيقظًا بعد أول صوتٍ سمعه، عندما استدار في فراشه، وكأن مخاوفه تكبر أمام ناظريه منذ ذلك الحين وحتى هذه اللحظة، حاول إقناع نفسه بأن لا فائدة منها، وأن لا مبرر لها، ولكن هيهات! كان يقنع نفسه قائلًا: "لابد أنه صوت الرياح تعانق المدخنة، ربما فأرٌ مر بجانبي، ربما صرصور ليلٍ أصدر سقسقة مرة" أجل.. ظل يقنع نفسه بتلك الأفكار المطمئنة، ولكن هيهات.. لأن الموت الواقف على بابه ألقى بظله الأسود عليه وغطّاه، ربما كان هذا الظل المخيف هو ما جعله مقتنعًا بأن شيئًا ما في الغرفة.. رغم أنه لم يرَ ولم يسمع شيئًا!

انتظرت طويلًا، بصبرٍ واسع، إلا أنه لم يستلق ولو مرة.. اضطررت لفتح باب المصباح هنيهة.. فتحة بسيطة جدًا.. لا يمكنك تخيل كم كنت حريصًا في هذا، وفجأة انطلق شعاعٌ معتم وحيد كخيط العنكبوت سقط على عين النسر.

كانت عينه مفتوحة على وسعها، استشطت غضبًا بينما أحدّق بها، والآن ترتسم تلك العين أمام ناظري بكل وضوح، زرقاءٌ غائمة يغشاها غطاءٌ ما ارتعدت له فرائصي، ولا شيء آخر من وجه أبي أراه، وكأنني سلّطت الشعاع بغير قصدٍ على عينه الملعونة.

ألم أخبرك في البداية أن جنوني الذي اتهمتني به ما هو إلا حواسًا مصقولة؟ والآن دعني أقول لك أني سمعت صوتًا خفيضًا مكتومًا مر بسرعة وكأنه صدر من ساعةٍ مغلفة بقطعةٍ من القطن، أعرف هذا الصوت جيدًا، إنها ضربات قلب أبي.. ضاعفت غضبي وكأنها طبول حرب.

إلا أنني آثرت البقاء ساكنًا، وبالكاد تنفست، حملت المصباح برفق محاولًا بكل جهدي إبقاء الشعاع على عين النسر، وفي نفس الوقت أبت دقات قلبي إلا الازدياد والإسراع كل لحظة، لابد أن فرائص الرجل ترتعد من الهول، وها هي دقات قلبي يزداد ضجيجها كل لحظة، ألم أخبرك في البداية أني عصبي جدًا؟ ها أنا ذا، والآن وقد عمّ ظلام الليل في وسط عتمة البيت؛ كيف لا يدفعني صوت دقات قلبي إلى هذا القدر

من الرعب؟ إلا أنني ظللت واقفًا ولم أعقب، ولكن صوت أنفاسي يتعالى أكثر وأكثر، حتى ظننت أن صدري سينفجر، وها هو قلقٌ جديد يسيطر عليّ، هل يسمع هذا الصوت أحد جيراني؟ وها قد حانت ساعة أبي! صرخت عاليًا ورميت المصباح مفتوحًا ودلفت إلى الغرفة.. صرخت مرةً واحدة.. مرة واحدة فقط، سحبته إلى الأرض وقلبت الفراش فوقه، ارتسمت على وجهي ابتسامه المنتصر، ولكن لدقائق معدودة دق قلبي بسرعةٍ بطيئة مكظومة، لم يضايقني هذا، فلن يسمعني أحد عبر الحوائط.. وأخيرًا توقف الصوت.. مات أبي! رفعت الفراش من فوقه وفحصت جثته.. تيقنت من موته، وضعت يدي على قلبه وأبقيتها عدة دقائق.. لا نبض على الإطلاق.. مات أبي ولن تزعجني عينه مجددًا.

هل مازلت تظنني مجنونًا؟ لن تفعل إذا وصفت لك كم كنت حريصًا في موارة سوءة أبي، أوشك الصبح على الانفلاج، فعملت بعجلةٍ ولكن في صمت، وقبل كل شيء قطّعت أوصال جثة الرجل، نزعت الرأس ثم الذراعين ثم الساقين.

خلعت ثلاثة ألواح من أرضية الغرفة، ثم وضعت أشلاء الجثة أسفلها، ثم وضعت الألواح كما كانت بمنتهى الذكاء كي لا تقع على ما دونها عين إنسان.. حتى عينه هو، لا داعي للتنظيف، فلا شيء هناك يستدعي هذا، لا دماء ولا شيء آخر.. حوض الاستحمام قام بالمهمة كلها.. ها ها ها!

انتهت المهمة في تمام الرابعة صباحًا، ومازال الظلام يحكم قبضته وكأنه منتصف الليل، وبينما دق جرس الساعة سمعت نقرًا على الباب، هبطت لأفتح بقلبٍ منفرج، ليس هناك ما أخشاه، دخل ثلاثة رجال عرّفوا أنفسهم على أنهم ضباط شرطة، عرفت منهم أن أحد الجيران سمع صراخًا أثناء الليل، فظن أن جريمة قتلٍ وقعت.. ذهب الجار إلى قسم الشرطة وأبلغ عمّا سمعه، وقدمت الشرطة لتفتيش المنزل.

ابتسمت، فليس هناك ما أخشاه، رحبت بالسادة، قلت لهم أن الصرخة صدرت مني جراء كابوس انتابني، قلت لهم أن أبي في الريف ليس هنا، أخذت بيدهم في كل أرجاء المنزل، دعوتهم أن يفتشوا جيدًا.. ثم دعوتهم إلى غرفته أخيرًا، أريتهم ماله كما هو لم يمسسه أحد، وبمنتهى الحماس أحضرت مقاعدًا إلى الغرفة كي يستريحوا، بينما جلبت مقعدًا لي وضعته فوق مكان دفن جثة أبي.. بمنتهى التهور الجامح من انتصاري الفائق.

اطمأن الشرطيون، أقنعهم أسلوبي، ارتحت تمامًا.. وبينما كنت أجيب عليهم بابتهاج أخذوا يتبادلون أطراف الحديث في أمورٍ مألوفة.. ولكني شعرت بشحوبٍ انتابني من قبلها بكثير، وددت أن يرحلوا، انتابني صداع وكأنني أسمع رنينًا في أذني.. إلا أن الشرطيين مازالوا في الغرفة يدردشون.. صار الرنين أكثر وضوحًا، عمدت إلى التحدث معهم لأهزم هذا الشعور.. لكنه استمر وصار مسموعًا.. لم يكن الرنين في أذني.

ازدادت بشرتي شحوبًا، فعمدت إلى الحديث أكثر وبصوتٍ مرتفع، إلا أن الصوت أبَى إلا الازدياد.. ماذا بيدي أن أفعل؟ صوتٌ خفيض مكتوم يشبه صوت عقرب ساعة ملفوفة بالقطن، شهقت لكي أحصل على نفس، ولكن لم يعِ الشرطيون هذا.. تحدثت بسرعةٍ أكبر، وبحماسةٍ أكبر.. وعلى كلٍ كان الصوت يرتفع، قمت من مقعدي وجادلت في أمورٍ تافهة بنبرةٍ عالية وحركاتٍ عنيفة، ومازال الصوت يرتفع أكثر فأكثر.. لم لا يرحل الشرطيونٍ؟ جبت الغرفة ذهابًا وإيابًا بخطواتٍ متثاقلة كما لو أن بقاءهم يثير غضبي،ومازال الصوت يرتفع.. يا إلهي! ماذا أفعل؟ زبدت، وغضبت، وشتمت.. حككت المقعد فوق الألواح الخشبية، ومازال الصوت يرتفع، ومازال الشرطيون يدردشون بسعادةٍ ويبتسمون.. هل سمعوا الصوت؟ يا إلهي! سمعوه، وعرفوه، وكشفوني، وعرفوا ما اقترفت يداي.. ها هم يستهزؤون من خوفي ومن رعبي، كيف لي أن أتحمل؟ أتحمل أي شيء إلا هذا الاستهزاء.. أتحمل أي شيء إلا تلك الابتسامات الزائفة.. يجب أن أصرخ، أن أموت! والآن زعقت: "ملاعين! لا تتظاهروا أكثر! إني معترف! انزعوا الألواح.. هنا! هنا دقات قلبه البشع!"



ظِـل

(حكاية رمزية)

(1835)

"أيضًا إذا سِرتَ في وادي ظِل الموت لا أخاف شرًا"

– مزمور داوود

من يقرأ هذا لابد أنه من الأحياء، أمّا من كتب هذا – أنا – لابد أنه رحل.. فقد سِرت في وادي ظل الموت.. بالتأكيد مكان تحدث فيه أمور عجيبة، وتُكتشف فيه أسرار، وتمر فيه القرون مرّ السحاب، قبل أن يدرك الإنسان تلك الذكرى.. وعندما يدركها بعضنا سينكرها، وبعضنا ستختلط عليه، غير أن البعض سيتأمل الكثير في الحروف المحفورة بقلمٍ من حديد.

كان عام خوف ومشاعر أدهى من الخوف نفسه لا مثيل لها على الأرض.. وقعت الكثير من المعجزات والعلامات في كل مكان، فوق البحر وعلى الأرض، فرد الطاعون أجنحته السوداء فغطّت كل شيء، ومع ذلك ظلّ عُبّاد النجوم لا يدرون أن السماء قد اعتلّت.. وبالنسبة لي أنا – أوينوس اليوناني – وآخرين فقد اتضح لنا أن سبعمائة وأربعة وتسعين سنة قد تبدّلت، ذلك مع حلول كوكبة الحمل؛ حيث يقترن كوكب المشترى مع حلقة كوكب زُحل الرهيب الحمراء، وها قد تجلّت روح السماوات الغريبة – إن لم أكن مخطئًا كثيرًا – ليس فقط في مدار الأرض المادي، ولكن في أرواح، وخيالات، وتأملات البشر.

جلسنا نتجرّع بضع قنينات النبيذ الخيوسي، تحيط بنا جدران صالةٍ فخمة في مدينةٍ كئيبة تُدعى "بطليموس"، جلسنا ذات مساءٍ نحن السبعة، لا مدخل يؤدي إلى غرفتنا إلا

باب نحاسي شامخ صمّمه الحرفيّ كورينوس، تتمثل براعته النادرة في إمكانية غلقه من الداخل، منعت الستائر السوداء داخل الغرفة الكئيبة منظر القمر، والنجوم المتوهجة، والشوارع الشاغرة، إلا تجسيد وذكرى الشرّ، أحاطت بنا أشياء لا أذكرها جيدًا — منها المادي ومنها الروحاني — وجوّ ثقيل — شعورٌ بالاختناق — وتوتر، وفوق كل ذلك الشعور الرهيب بوجود شيءٍ ما تلمسه الأعصاب حينما تكون الحواس متيقظة، وحينما ترقد الأفكار في سُباتٍ عميق، هبَّ علينا هواءٌ ميتٌ ثقيل، تعلّق بأطرافنا وبأثاث المكان وبالكؤوس التي شربنا منها، حتى غطّت الكآبة الجو وأطفأت كل شيئ إلا شعلات المصابيح السبعة التي تضيئ مقصفنا.. ظلّت المصابيح مشتعلة في صفوفٍ طويلة عالية، ظلت مشتعلة ولكن شاحبة بلا حراك..

وفي المرآة التي انعكس عليها ضي المصابيح حول مائدة مستديرة من خشب الأبنوس جلسنا حولها نشاهد كيانه الشاحب الحاضر أمامنا ووهجه المرتبك في أعين رفاقه المسبلة.. غير أننا ضحكنا غير مكترثين بطريقةٍ هستيرية لا خروج فيها.. أنشدنا أنشودات الشاعر أناكريون المجنونة، وتجرّعنا النبيذ حتى الثمالة، غير أن النبيذ الأرجواني ذكّرنا بالدم.. لم يستأجر أحدهم غرفتنا بعد صديقنا زوليوس، رقد ميتًا ممدّدًا مكفّنًا.. منظرٌ عبقري وشيطاني في نفس الوقت، وياللحسرة! لم يشاركنا أتراحنا، إلا بجثمانه المكسو بالطاعون، وعينيه التي لم يكمل الموت إطفاء نار الطاعون فيها، بدا مهتمًا بمشاركتنا أتراحنا، فالموتى يحبّون مشاركة المقبلين على الموت أتراحهم، ولكنني — أنا أوينوس — شعرت بأن عينيّ الميت تنظر إليّ، غير أنني ما لبثت أطرد تلك الفكرة، فوجّهت عينيّ إلى الأسفل نحو أعماق المرآة الأبنوسية، أنشدت بصوتٍ عالٍ وحنجرةٍ جهورية أناشيد ابن تيوس..

ولكن توقّف إنشادي تدريجيًا، وضعف صداه الدائر بين ستائر الغرفة السوداء، لم يعد مسموعًا حتى خبا تمامًا.. عجبًا! غادر صوت الإنشاد من بين طيّات الستائر السوداء وحلّ محله ظلّ أسود مُبهم، ظلّ كظل القمر في أول الليل، استحال الظل هيئة إنسان، غير أنه لا إنسان ولا إله، ولا أي شيءٍ معهود..

ارتعد الظل لحظةً بين طيّات الستائر، ثم استقر في الأخير بصورته الكاملة على سقف الباب النحاسي، ولكن الظل غامض غير مفهوم لا شكل له، لا هو ظل إنسان ولا هو ظل إله، ولا حتى إله يوناني، ولا كلداني، ولا مصري.. استقر الظل على الباب النحاسي، أسفل قوس سقف الباب المُعمّد، ولم يتحرك، ولم ينطق ببنت شفه، فقط استقر مكانه وثبت.. كان الباب الذي استقر عليه الظل – إذا أسعفتني ذاكرتي – مقابل جثمان زوليوس الصغير المُكفّن.. ولكننا تجمعنا نحن السبعة عندما رأينا الظل يخرج من بين طيّات الستائر، لم نجرؤ على النظر إليه مباشرةً، فأسبلنا أعيننا وحملقنا نحو أعماق المرآة الأبنوسية، وفي الأخير طلبت – أنا أينوس – بصوتٍ خفيض من الظل أن يخبرنا بمسكنه واسمه، أجاب الظل قائلًا: "أنا الظل.. ومسكني قرب سراديب موت مدينة بطليموس المتاخمة لسهول هيلوسيا الكئيبة التي تحدّ قناة تشارونيان الكريهة" ارتعدنا نحن السبعة في أماكننا، ارتعشنا وارتعبنا، فصوت الظل لم يكن صوتًا واحدًا، بل عدة أصوات تختلف في إيقاعها من مقطعٍ لآخر، أظلم صوته آذاننا بنبرات أصواتٍ مألوفة لآلاف الأصدقاء الذين غادرونا.

***





دوق الأومليت

(1832)

"ثم خطا فجأةً إلى جوٍ أبرد"

– ويليام كوبر

حمل صندوقٌ ذهبي الهائمَ المجنّح الصغير المُتعَب الكسول إلى حي شوسيه دانتين.. جاء به من بيرو البعيدة، من مليكته السابقة لا بيليسيما إلى دوق الأومليت، فنُقل الطائر السعيد على يد ستة من مبعوثي الامبراطورية.

كان الدوق ليلتها يتجهز للشرب وحيدًا.. استند في عزلة مكتبه على متكأ ضحّى للحصول عليه من أنياب الملك بولائه له.. ذلك المتكأ الشهير.

دفن وجهه في الوسادة.. دقّت الساعة، لم يعد قادرًا على كبح جماح مشاعره.. فابتلع جلالته زيتونة، وفي تلك اللحظة، انفتح الباب برفق معلنًا عن صوت موسيقى رقيقة، وعجبًا! الآن يرقد أشهى الطيور أمام أزكى الرجال! ولكن أي استياءٍ لا يوصف يلقي بظلاله الآن على طلّة الدوق؟ أي رعب، وأي خوف، وأي رهبة تلك؟ يا ربّاه! هذا الطائر المسكين الذي جُرّد من ريشه وقُدّم بدون ورق! أي كلامٍ يُقال بعدما قيل؟ انتابت الدوق نوبة عارمة من الاشمئزاز.

– ها! ها! ها!

هكذا قال جلالته بعد موته بثلاثة أيام.

– هي! هي! هي!

وهكذا رد عليه الشيطان بصوتٍ ضعيف، ثم ظهر للدوق بتكبّر.

رد عليه الدوق: "لماذا؟ لا يمكن أن تكون جادًا.. صحيحٌ أنني قد أذنبت، وأقر وأعترف بهذا.. ولكن تذكر يا سيدي الفاضل أنك لا تنتوي تنفيذ وعيدك المتوحش في حقي!

– لا أنتوى ماذا؟ هلم سيدي، اخلع ملابسك!

– أخلع ملابسي؟ أبدًا سيدي، لن أخلع ملابسي.. ثم، من أنت؟ فأنا دوق الأومليت، أمير كبد الإوز، العجوز مؤخرًا فقط، مؤلف "المازورقا"، وعضو الأكاديمية، فلماذا من أجلك أنت أخلع بنطالي، أفضل بنطالٍ صنعه بوردون، وأخلع ثوبي، أجمل ثوبٍ صنعه رومبرت، وأخلع شعري المستعار، وأعاني كذلك في خلع قفازاتي؟

– من أنا؟ صحيح! أنا بعل زبوب، أمير الذباب.. أخذتك الآن من تابوتك الخشبي المطعّم بالعاج، تابوتك الفوّاح بالعطور والأنيق الحديث.. أرسلني بليعال – شيطان القبور – إليك، لن يغيثك اليوم بنطالك المصنوع من الكتّان الفاخر ولا ثوبك الأنيق من مصيرك.

– سيدي، لا أسمح لك بمثل هذه الإهانة.. ولن أفوت أقرب فرصة لأنتقم منك.. سيدي، اسمع مني! وداعًا الآن!

طأطأ الدوق رأسه ليزيح ناظريه بعيدًا عن حضرة الشيطان.. غير أن المنتظر قاطعه وأعاد إليه انتباهه.. حينها فرك الدوق عينيه، وتثاءب.. هزّ كتفيه ونظر، اقتنع بمنظره واقتفى مكانه بنظرة طائرٍ محلّق.

كان مقامه عاليًا، حتى الدوق نفسه علمه كما يجب، غير أن المقام العالي هذا لم يكن لطوله ولا لسعته، بل لارتفاعه.. آه! كم كان مهيبًا! لم يكن لمقامه سقف – لا سقف على الإطلاق – ولكن دوّامة كثيفة من السحب الملتهبة، داخ رأس جلالته بينما ينظر

إلى الأعلى، ومن الأعلى تدلت سلسلة من معدنٍ غير معروف أحمر اللون كالدم، طرفه العلوي مفقود، كمدينة بوسطون، وسط لا شيء، ومن طرفها السفلي تدلى مشعلٌ كبير، رآها الدوق حجر ياقوت، غير أن المشعل صبّ نورًا ضوّاءً كثيفًا جدًا، لم يعبد الفرس ضوءًا مثله، ولم يحلم المسلمون بقدره، حتى وهم في أقصى حالات الخدر بالأفيون، ولو كانوا نائمين على فراشٍ من الخشخاش ومن فوقهم وجه الإله أبوللو.. تمتم الدوق ببعض الأدعية بصوتٍ خفيض على قوته.

كانت أركان المقام عبارة عن محاريب، ثلاثة منها امتلأت بتماثيل عملاقة..كان جمالها يوناني وتفاصيلها مصرية ورداؤها فرنسي، وفي المحراب الرابع كان هناك تمثال مغطى، لم يكن عملاقًا، ولكنه كان ذا كاحلٍ مستدق وقدمٍ مصندلة، وضع الدوق يده على صدره وأغلق عينيه ورفعهما واسترق النظر إلى حضرة الشيطان.

غير أن الرسومات – خوبريس وأستاريتي وعشتروت – كان منها الآلاف، وكلها يشبه بعضًا.. وقف رفائيل ينظر إليها.. أجل.. كان رفائيل هناك، ألم يكن هو من رسم؟ ألم تطارده اللعنة تباعًا؟ الرسومات! الرسومات! يا للفخامة! يا للعشق! من ذا الذي ينظر إلى ذلك الجمال بدون أن تتمتع عيناه برقة أطر الرسومات الذهبية اللامعة كالنجوم والجدران الياقوتية والرخامية السامقة؟

غير أن قلب الدوق كان يذوب في صدره، فلم يكن الرجل، رغم ذلك، دائخًا من فرط الأبهة، ولا مخمورًا من نشوة تلك المبخرات التي لا تُحصى ولا تُعد، صحيح أنه فكّر في العديد من تلك الأشياء، ولكنه كان مرتعبًا.. فمن نافذةٍ وحيدةٍ عارية تطل على مشهدٍ فظيع تبرق ألسنة اللهب المروعة!

يا للدوق المسكين! لم تتحمل مخيلته تلك الألحان المجيدة الحسّية الخالدة التي عمّت المكان كله، حيث مرّت صافية نقيّة عبر كيمياء أطر النافذة صيحات وصراخ اليائسين الملعونين.. وهنا أيضًا، هناك! على المتكأ، تُرى من هناك؟ هل هو العظيم؟ لا.. هل هو

الخالق؟ تُرى من يجلس وكأنه محفورٌ من الرخام؟ ومن ذا الذي يجلس مبتسمًا بوجهه الكالح هذا بكل حسرة؟

لكن وكما يقول المنطق؛ لا رجلٌ فرنسي يجب أن يخاف هكذا.. بالإضافة إلى أن جلالته كان يكره هذا المنظر.. ها قد عاد إلى سابق عهده من جديد، كانت هناك بعض الرقائق على المنضدة من بين عدة نقاط، حسب الدوق المسافة بين نقطتين، ثم عرض على جلالته الخيار، يا للرعب! جلالته غير قادر على الدفاع! ولكنه أكمل لعبًا، يا لها من فكرةٍ سعيدة.. ولكن جلالته كان متين الذاكرة.. طالما كان خبيرًا في لعبة "الشيطان" التي ألفها آبي جولتيه.. يُقال في هذه اللعبة أن "الشيطان لا يجرؤ على الانسحاب أبدًا" ولكن ما الفرص؟ الفرص! الفرص ضئيلة، ولكن فرص الشيطان صارت ضئيلة أكثر من الدوق نفسه، ثم ألم يكن الدوق خبيرًا في هذه اللعبة؟ ألم يتدرب كثيرًا على "بير لو برون"؟ ألم يكن عضوًا في نادي فينتون؟ قال: "لو خسرت، سأخسر مرتين، حينها أستحق اللعنة مرتين" حينها هز جلالته كتفيه، فأردف الدوق: "ولو فزت، سأعود إلى لحم الطير الشهي"

انتبه الدوق وشحذ تفكيره، والآخر كذلك بكل ثقة.. ربما يعيد هذا المشهد لأذهان المشاهد مباراة فرانسيس وتشارلز، فكّر الدوق، ولم يفعل الآخر.. اختلطت الأوراق وقسمها الدوق إلى قسمين.

لُعبة الأوراق.. قُلبت ورقة، هل كانت ورقة الملك؟ لا، بل ورقة الملكة.. لعنها الشيطان! وضع الدوق يده على صدره!

أكملا لعبًا..

حسب الدوق حسبته وأخرج يده، حسب الشيطان حسبته بقوةٍ مبتسمًا بينما يحتسي الخمر.. ثم وضع الدوق ورقة.

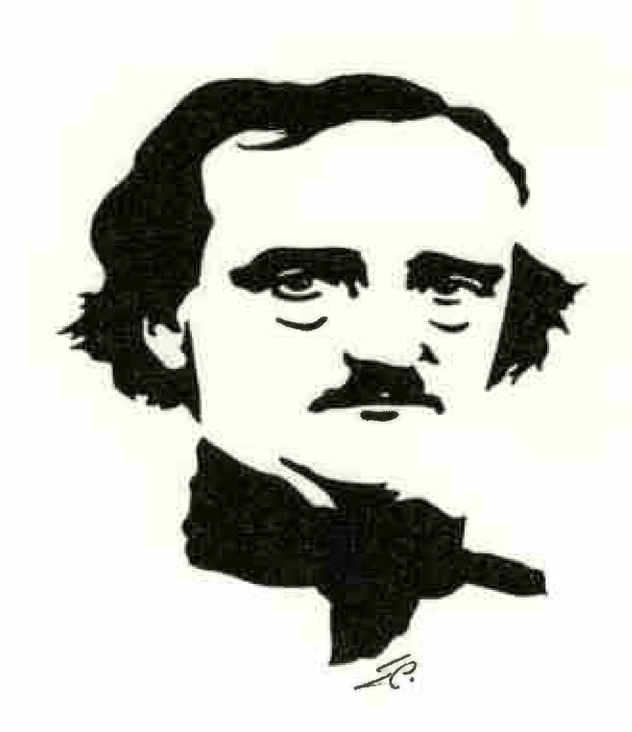
قال الشيطان:

"الأمر متروك لك!".. طأطأ الدوق رأسه، ثم لعب ووضع على المنضدة ورقة.. ورقة الملك!

تكدّر الشيطان!

إن لم يكن الإسكندر إسكندرًا لكان ديوجين.. قال الدوق لغريمه المنسحب: "إن لم أكن أنا دوق الأومليت لكنت الشيطان نفسه."

***



موريلا

(1835)

"نفسها، بنفسها فقط، سرمدية، ووحيدة"

- الندوة لأفلاطون

مشاعري نحو صديقتي موريلا مشاعر انجذابٍ فريد، بل وعميق.. وضعتها الصدفة بين الناس منذ سنين عدة، احترقت روحي منذ لحظة لقائها، احترقت بنيرانٍ لم أحسها من قبل، نيران لم ينفثها إيروس، والمُرّ والمؤلم لروحي اعترافي التدريجي بفشلي في فهم معنى تلك النيران غير العادية أو استيعاب شدتها الغريبة، إلا أننا تقابلنا، وجمع القدر بيننا عند المذبح، ومنذ ذلك الحين لم أبادلها الشوق ولا حتى لمحة عشق.. غير أنها تجنّبت الناس وتفرّغت لي وحدي لتسعدني. إنها السعادة التي يسعى ويحلم بها الناس.

كانت ثقافتها واسعة، ومواهبها لا مثيل لها، وعقلها راجحٌ عظيم، شعرت بهذا، وفي أمورٍ كثير كنت تلميذها.. غير أنني - رغم هذا - عرفت أنه ربما نظرًا لتعلمها في براتيسلافا وضعت أمامي عددًا من تلك الأعمال الروحانية التي عادةً ما تُعد أدنى ما جاء في الأدب الألماني القديم، كانت تلك الأعمال - لسببٍ لا أفهمه - مفضلتها وموضع درسها، وبمضي الوقت صرت مثلها.. ربما من أثر العادة الفعّال على بساطته.

لم يكن للمنطق دخلٌ في هذا، إن لم أكن مخطئًا.. لم تكن قناعاتي قائمة على خرافات بأي حال من الأحوال، ولم يكن ثمة غموض فيما قرأته، ولا حتى في تصرفاتي ولا أفكاري، هذا إن لم أكن مخطئًا.. كنت مقتنعًا بهذا تمامًا، وعليه فقد وهبت نفسي لرعاية

زوجتي، ودخلت بقلبٍ ثابت رابط الجأش في دراساتها.. غير أنني عندما أصل إلى صفحاتٍ محرّمة كنت أشعر بروحٍ محرّمة تشتعل في صدري، فتضع موريلا يدها الباردة على يدي وتنطق بصوتٍ خافت بكلماتٍ فلسفية فريدة احترقت معانيها الغريبة داخل عقلي.. كنت أظل برفقتها الساعة تلو الأخرى، أعيش على موسيقى صوتها، حتى تلوثت ألحان صوتها بالخوف في الأخير، فظلّت روحي سحابة سوداء، صرت شاحبًا، ارتعشت من الداخل من أثر تلك الأصوات الشيطانية، وبهذا استحال الفرح رعبًا، وصار الأجمل أقبح، وتحوّلت الجنة إلى جحيم.

لم يكن ضروريًا تحديد طبيعة تلك القراءات الطويلة، والتي شكّلت – ضمن تلك المجلدات – لوقتٍ طويل قناعات موريلا الوحيدة، وكذلك قناعاتي.. لكان من السهل على دارس علم اللاهوت أن يفهم طبيعة تلك القراءات، وحتى غير الدارس كان سيفهم مغزاها على كل حال.. تركّزت تلك القراءات على مفهوم وحدة الوجود لدى فيشت، ومفهوم البعث لدى فيثاغورث، وفوق كل ذلك مفهوم الهوية لدى شيلنج، كانت تمثل لب الجمال بالنسبة لموريلا خصبة الخيال.. تتألف الهوية – التي ينعتها السيد لوك بـــ"الشخصية" – صفاء العقل الراشد..

وبناءً على إدراكنا لمفهوم الشخص فإن لكل أصلٍ ذكي منطق، ونظرًا للوعي المصاحب للفكر أبدًا، فإن هذا المفهوم هو ما يجعلنا جميعًا ما نطلق عليه اسم "النفس"، وهو ما يميزنا عن المخلوقات المفكّرة الأخرى، بل ويضفي علينا هويتنا الشخصية.. ولكن مفهوم الفرد – مفهوم بقاء الهوية أو فقدها لدى الموت – كان أكثر ما يثير اهتمامي طول الوقت، والأكثر منه طبيعة توابعه المريبة والمثيرة، والأكثر والأكثر طريقة حديث موريلا المرتبكة عنها.

مضى الوقت حتى صار غموض تصرفات زوجتي يتلبّسني وكأنه تعويذة، لم أعد أتحمل ملمس أصابعها الواهنة، ولا نبرة صوتها الموسيقية الخفيضة، ولا بريق عينيها

الكئيبتين.. كانت تعلم بكل هذا، ولكنها لم تلمني.. بدت تعرف ضعفي وحماقتي التي أسمتها – بابتسامة – قدرًا..

بدت أيضًا تعرف سببًا – لا أعرفه أنا – لعزلتي التي انخرطت فيها تدريجيًا، غير أنها لم تُلَمِّح لي، ولكنها كانت تذبل اليوم تلو الآخر.. ظهرت بقعة قرمزية على خدّيها، وبرزت عروقها الزرقاء من جبينها الشاحب، وعلى هذا الحال غرقت في دوامة رثاء، ولكن سرعان ما تحت عينيها الضامرتين، فمرضت روحي وداخت كالدائخ من أثر النظر إلى هاويةٍ مرعبة لا يُسبر غورها.

هل يحق لي أن أقول أنني صرت أنتظر لحظة موت موريلا؟ أجل.. ولكن ظلّت روحها الهشّة تسكن جسمها الهزيل عدة أيام، فأسابيع، فشهور مملة، حتى امتلكت أعصابي المنهارة زمام عقلي، وكلما تأخر الميعاد المنتظر زادت ثورتي، وبقلب شيطان كنت ألعن الأيام والساعات واللحظات المُرّة التي بدت تطول وتطول كلما قاربت حياتها على الانتهاء، كظلٍ ساعة مغيب.

وفي ليلةٍ خريفية سكنت فيها الريح السماء نادتني موريلا إلى فراشها.. غطّى ضبابٌ داكن الأرض كلها، وافترش وهجٌ دافئ المياه، وبين أوراق أشجار أكتوبر الكثيفة هبط قوس قزح من قبة السماء.

اقتربت منها فقالت: "إنه يوم الأيام، يوم ككل الأيام.. إما أحيا وإما أموت، يومٌ جميل لأبناء الأرض والحياة، وأكثر جمالًا لبنات الجنة والموت!"

قبلت جبينها فأردفت: "أنا أحتضر.. ولكنني سأبقى"

– موريلا!

– فات الأوان على حبك لي.. ومن تكرهه في حياته ستعشقه في مماته.

– موريلا!

- أقولها مجددًا، أنا أحتضر.. ولكن بداخلي عهد حبك لي أنا موريلا، ويا له من صغير! فعندما تغادر روحي جسدي سيعيش الطفل الذي أحمله؛ طفلك وطفلي أنا موريلا.. غير أن أيامك ستكون أيام غم؛ غم سرمدي، سرمدي كشجر السرو العتيق.. انتهى رصيدك من الفرح، ولا يحصل المرء على هذا الرصيد مرتين؛ ليس كما تزهر ورود البستوم مرتين كل عام.. لن يحدث هذا مجددًا، ستكون كنبتتي الآس والكرمة، وستحمل كفنك على صدرك كما يفعل المسلمون في مكة.

"موريلا!" صرخت.. "موريلا! من أين لكِ هذا؟" إلا أنها دفنت وجهها في الوسادة وانتابت أطرافها رعشة طفيفة.. ماتت، ولم أسمع صوتها مجددًا.

ولكن كما توقعت، فطفلها الذي وضعته في احتضارها، والذي لم ينعم بأنفاسه الأولى إلا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، طفلها هذا عاش.. كبرت الابنة بغرابة في هيئتها وذكائها، نسخة أصيلة من صورة أمها التي غادرتنا.. أكننت لها حبًا جمًّا أكثر مما قد أكنّ يومًا لأي أحد.

ولكن ما لبث هذا الحب الجمّ أن اسودّ وغطّته سحابة كآبة ورعب وحزن.. قلت أن الابنة قد كبرت بغرابة في هيئتها وذكائها.. أعني بغرابة أن زاد حجم جسمها بسرعة، ولكن الهول كل الهول في تلك الأفكار التي تجمّعت في عقلي وأنا أرقب عقلها ينمو.. هل يمكن أن يكون الأمر خلاف ما يبدو عليه؟ كنت أكتشف يوميًا في الابنة الصغيرة إمكانيات امرأة كبيرة.. رأيتها تنطق بخبراتٍ حياتية على شفاةٍ طفولية.. رأيت مشاعر وأحاسيس ناضجة بثت الرعب في روحي.. هل كان واجبًا عليّ أن أتخلص من تلك الأفكار التي أرتعدت لها روحي من أثر غموضها ورعبها وإثارتها؟ أم أن تلك الأفكار هي نتاج القصص الغريبة والنظريات المثيرة التي كانت تطالعها موريلا المقبورة؟ لقد انتزعت من هذه الدنيا روحًا كان مُقدّرًا لي حبها، وفي عزلتي كنت أظل متابعًا إياها في قلقٍ مؤلم.

مرت السنين وأنا أطالع يوميًا وجهها الصبوح اللطيف البليغ، وأتأمل قوامها الناضج، وكل يوم أكتشف تشابهًا بين الابنة وأمها.. الكآبة والموت، وعلى مدار الساعة كانت ظلال التشابه بينهما تزداد ظلمة، بل صار التشابه أكثر وضوحًا، وأكثر إرباكًا، وأكثر قبحًا.. صحيح أن ابتسامتها كابتسامة أمها – وهو أمرٌ محمود – إلا أنني ارتعدت بينما تتشابه الهويتان.. صحيح أن عينيّها كعينيّ أمها – وهو أمرٌ محمود – ولكن صارت العينان تنظران في أعماق روحي كما كانت تجيد موريلا..

وفي محيط جبينها، وفي جدائل شعرها الحريري، وفي أصابعها الواهنة المختبئة بين الجدائل، وفي نبرة صوتها الموسيقية الحزينة، وفوق كل ذلك، في عباراتها وتعبيراتها المرتسمة على شفتي المحبوبة الحيّة، وجدت مادةً خصبة تشبع أفكاري ورعبي.. وجبة دودةٍ لن تموت أبدًا.

مرت عشر سنين من حياتها، ومازالت طفلتي بلا اسم، فكنت أناديها "طفلتي" و"حبيبتي" تعبيرًا عن مشاعر أبيها، ومع مرور الأيام سريعًا لم أجد مبررًا لتسميتها.. مات اسم موريلا بموت صاحبته. لم أحكِ للابنة عن أمها قط، كان ذلك مستحيلًا.. وإبّان حياتها القصيرة لم يكن للابنة أي اتصالٍ بالعالم الخارجي، إلا بالحد الذي تسمح به خصوصيتها.. وفي نهاية المطاف جالت فكرةُ تعميدها في بالي المضطرب بسبب الرعب الذي ينتظره مصيري.. وأثناء إجراءات التعميد تردّدت في اختيار اسمٍ لها. جرت على شفتيّ أسماء كثيرة تذكرني بالأيام الحكيمة الجميلة القديمة منها والحديثة، أسماء انتشرت في بلادي وبلاد غيري، أسماء رقيقة وسعيدة وطيبة.. ولكن ما الذي جاء بذكرى مقبورتي الآن؟ أي شيطانٍ هذا الذي جعلني أصدر صوتًا جعل الدماء تنحسر في عروقي ولا تصل إلى قلبي؟ أي شيطانٍ هذا الذي تحدث من أعماق روحي، من بين جزره الكئيبة، وفي ظلمة الليل جعلني أنطق باسم موريلا في أذن القديس؟ أي شيطانٍ هذا الذي زلزل تقاسيم ابنتي ورسم عليها أمارات الموت؟ وما أن انزلق اسم موريلا من شفتيّ وجدت ابنتي ترفع عينيها اللامعتين من الأرض إلى السماء وتسقط على الألواح السوداء التي تغطي قبو أجدادنا.. قالت: أنا هنا!

سمعت أذناي ذلك الصوت البارز البارد الهادئ، فانتقل الصوت من تلقاء نفسه كرصاصةٍ مذابة إلى عقلي.. مرت سنين وسنين، ولكن تظل تلك الذكرى لا تُنسى.. لم أنس ما قالته عن الورود ونبتة الكرمة، ولكن أكثر ما طاردني ليل نهار كان نبتة الشوكران وشجر السرو.. فقدت إدراكي للزمان والمكان، حتى ذبلت نجوم قدري في السماء، فصارت الأرض أظلم، حتى مرّت أجسامها بجواري وكأنها ظلال مرفرفة.. وبينها رأيت موريلا.. نفثت ريح السماء، ولكن لا صوت أسمع غير صوتٍ واحد.. همهمت الأمواج في البحر باسمٍ واحد.. موريلا.. ولكنها ماتت وحملت جثمانها بيديّ هاتين إلى قبرها.. قهقهت قهقهة طويلة مُرّة عندما لم أجد أثرًا لموريلا الأولى في القبر حيث أضع موريلا الثانية!.

***

بيرينيس

(1835)



"نصحني رفيقي بأن أضمّد جراحي بزيارة قبر حبيبتي."

- ابن الزيّات (218 ميلاديًا)

للبؤس أذرعٌ وأيادي، ولتعاسة الدنيا وجوه كثيرة.. خلف الأفق الشاسع قوس قزح ألوانه مختلفة باختلاف أشكاله، بل وتميزها أيضًا على امتزاجها العاطفي.. خلف الأفق الشاسع قوس قزح.. كيف حصلت على هذه الكراهية من هكذا جمال؟ كيف كسبت هذا الحزن من قلب السلام؟ ولكن في الأخلاقيات، فإن الشر وليد الخير، لذا في الواقع يولد الحزن من رحم الفرح، فأتراح الماضي إما هي عذاب الحاضر أو ذلك العذاب المتأصل في نشوة توقعه.

لا أذكر الاسم الذي منحتني إياه أسرتي، غير أن اسمي التعميدي هو "إيجايوس". لم تر الأرض أبراجًا أقدم من قاعاتي الكئيبة السوداوية المتوارثة العتيقة.. سُميَ امتدادنا الأسري "عِرق الحالمين"، ذلك لأن في تفاصيله الملفتة للنظر، وفي شخصية بيت العائلة، وفي اللوحات الجدارية بصالوننا الرئيسي، وفي مفروشات المهاجع، وفي نقوش زخارف مستودع الأسلحة، ولكن الأبرز كان في معرض اللوحات الأثرية، وفي طراز غرفة المكتبة، وأخيرًا، في الطبيعة الغريبة لمحتويات المكتبة؛ في كل هذا دليل أكثر من كافٍ على هذا الاعتقاد.

ترتبط ذكريات سنواتي المبكرة بهذه الغرفة – غرفة المكتبة – وبمجلداتها، والتي لن أذكر عنها شيئًا بعد ذلك.. هنا ماتت أمي.. هنا وُلدتُ، ولكن لا داعي لأقول أنني لم

أعِش هنا مسبقًا، فالروح لا وجود مسبقٍ لها، هل تنكر هذا؟ دعنا لا نخوض في هذا الأمر.. فأنا عن نفسي مقتنع، ولا أرغب في إقناع أحد، رغم هذا فإني أذكر أشكالًا خيالية لأعينٍ روحانية ولئيمة، لأصواتٍ موسيقية لكن حزينة، ذكرى لن أنساها؛ ذكرى كظلٍ غامض كثيف مائج غير واضح المعالم.. وأيضًا ستظل كظل في استحالة التخلص منه مادمت حيًا.

وُلدت في هذه الغرفة، استيقظت من ليلٍ طويل بدا تافهًا، غير أنه لم يكن.. استيقظت في نفس الأنحاء الخيالية، في قصرٍ من الخيال، في ظل سيادة الفكر الرهباني الشديد.. نظرت حولي أكثر من مرة بعينٍ مندهشة متحمسة، قضيت صباي بين الكتب، وأضعت شبابي في الخيال، ولكن سرعان ما مرت السنين حتى صرت رجلًا، ومازلت أسكن بيت آبائي، مذهلٌ هذا الجمود الذي حل على ربيع شبابي.. مذهلٌ هذا الانقلاب الكامل الذي حدث لشخصية تفكيري العام.. كنت أرى حقائق العالم كرؤى، وكرؤى فقط.. بينما لم تعد أفكار أحلامي مجرد تجسيد لحياتي اليومية، ولكن تجسيد لكل تصرف وفعل بالكامل.

كانت بيرينيس ابنة عمي، كبرنا سويًا في بيت آبائي، غير أننا كبرنا مختلفين، فقد كنت عليلًا غارقًا في الكآبة.. وكانت هي رشيقة، جميلة، تفيض بالطاقة، كانت مثل نزهة على جانب التل، وكنت مثل حياة في قلب الدير، كنت أعيش بكل قلبي، عشقت الجسد والروح بأكبر خيالٍ فياضٍ مؤلم، بينما جابت هي الحياة ولم تبالِ بأي ظلال في طريقها أو بالساعات السوداء التي حلّقت بصمت. بيرينيس.. ناديتها: بيرينيس.. ومن خرائب ذاكرتي السوداء ارتسمت آلاف الذكريات الصاخبة بمجرد سماع الصوت.. آه! كم ترتسم صورتها حية أمامي الآن! صورتها في أيامها الأولى.. أيام خفة ظلها وابتهاجها! أوه! جمالٌ خلّاب مذهل! أوه! جمالٌ خلّابٌ مذهل! أوه! ملاكٌ بين شجيرات أرنهايم! أوه! حورية بين الينابيع! ثم.. ثم حل كل غامضٍ مرعب، حلت قصة لا تُحكى،

مرض.. مرض عضال! وكأن ريح السموم لفحت جسدها، فحتى عندما كنت أنظر إليها كنت أرى تبديلًا يجتاحها، يتخلل عقلها، وعاداها، وكينونتها، وبصورةٍ أفضح وأفظع يبعثر هويتها! واحسرتاه! جاء الخراب وولّى.. وكانت هي الضحية، فلم تعد بيرينيس التي أعرفها.

أذكر من ضمن الأمراض الكثيرة التي ولّدها هذا المرض المميت الخطير الذي ترك أثرًا فظيعًا من نوعه نفسيًا وجسديًا على ابنة عمي، أذكر أن المرض الأعنف والأكثر حزنًا كان طورًا من أطوار الصرع.. صرع لا ينتهي بصورة منتظمة، بل يأتي على غفواتٍ تشبه كثيرًا حالات الاحتضار، وبسبب تلك الغفوات بدا شفاؤها من حالة الصرع تلك، في أغلب الأحيان، معجزة كبرى.. في نفس الوقت كان مرضي – الذي وعدت بألا أتكلم عنه مجددًا – يشتد بسرعة، بل وصار يأخذ صورة هوسية أحادية فريدة من نوعها، فكنت أشعر بنشاطٍ كبير لفترةٍ ما، ولكن في الأخير تنهار عافيتي تمامًا بصورةٍ لا يعقلها عاقل، هذا الهوس الأحادي – لو صحّ استخدام هذا المصطلح – كان على هيئة هياج شديد في وظائف العقل في حالة اليقظة كما يُطلق عليها في العلوم الميتافيزيقية، وكان أكثر من مرجّح بالطبع – كما أعي وأخشى – ألّا توجد طريقة ممكنة أشرح بها للقارئ العادي تلك الفكرة المناسبة ذات الطبيعة العصبية المثيرة للاهتمام، والتي من خلالها – في حالتي – تنشغل وتغيب القدرة على التأمل تمامًا (عقليًا وليس عمليًا بالضرورة)، أعنى القدرة على تأمل أكثر عناصر الطبيعة انتشارًا..

أعني التأمل لساعاتٍ طويلة غير منقطعة بعقلٍ منصب تمامًا على بعض الأمور التافهة على الهامش، أو على تصميم كتاب، أعني أن أنشغل لأكبر قسطٍ من يومٍ صيفي، تحت ظلٍ طريف يتسلل عبر الستائر، أو عبر الباب، وأن أنسى نفسي طوال الليل أشاهد شعلة مصباحٍ ثابتة، أو جمرة نار، لأحلم لأيامٍ طوال في حضرة رحيق زهرة، وأن أعيد نفس الكلمة الشائعة برتابة، حتى يتوقف صوتي من فرط تكرارها عن إبداء السبب

وراء تكرارها، وأن أفقد إحساسي بالحركة أو إحساسي بجسمي، كل ذلك بفضل سكونه لمدة طويلة وحفاظه على وضعيته.. تلك كانت بعض من أكثر تقلباتي المزاجية الأكثر شيوعًا والأقل خبثًا بسبب حالة قدراتي العقلية، والتي لم تكن كلها تعمل في نفس الوقت بالتأكيد، ولكن الأكيد أنها كانت تجمح لأي شيء كتحليلٍ أو تفسير.

ولكن دعني لا أتسبب في سوء فهم، فالانتباه غير المبرر الحاد المرضي الذي تثيره أشياء تافهة بطبيعتها يجب ألا يرتبك بسبب نزعة التأمل الشائعة لدى كل البشر، وبخاصة من ينغمس منهم بخيالٍ خصب.. لم يكن الامر كما ظننت أولًا، حالة نزوعٍ شديدة أو مبالغ فيها حتى؛ ولكنها حالة مميزة مختلفة في حالةٍ ما، يكون الحالم أو المتحمس مهتمًا بشيءٍ ما ليس على قدر من التفاهة، ثم يفقد صورة هذا الشيء تدريجيًا من فرط الأفكار المتواردة المقترحة منه، حتى يجد في نهاية حلم اليقظة هذا أن الأسباب التي دعت لانغماسه قد تلاشت تمامًا ونُسيت،وفي حالتي أنا، فإن الشيء الذي انصب عليه اهتمامي كان تافهًا جدًا، رغم أنني أفترض هذا، كان هذا جليًا في صورته غير الواضحة وأهميته غير الواقعية.. تاه عقلي قليلًا، ثم ما لبث أن عاد وركّز على الشيء الذي كان ينصب اهتمامه عليه.. لم تَكُ تلك التأملات سعيدة أبدًا، وفي نهاية الاستغراق كان السبب الأساسي، البعيد عن العين يُكسب نفسه أهمية مبالغ فيها جدًا، وهي صورة المرض الأساسية.. أختصر كل هذا في أنني قد مارست قوى عقلية بخصوصية كبيرة.. قوى انتابتني في أحلام يقظتي وتأملاتي.

ساهمت كتبي في تلك الفترة – إن لم تكن سببت فوضى بالفعل – في السمات الشخصية لهذه الفوضى، بنسبة كبيرة نظرًا لطبيعتها التخيلية غير المنطقية.. أتذكر جيدًا، بين أمورٍ أخرى، أطروحة الإيطالي النبيل، كوليوس سيكوندوس كوريو، بعنوان (ملكوت الرب سبحانه)، وكتاب القديس أوستين العظيم بعنوان (مدينة الرب)، وكتاب تيرتوليان بعنوان (جسد المسيح)، والذي جاءت فيه جملة متناقضة طالما شغلت

وقتي لأسابيع من الاستقصاء المرهق غير المثمر، نصها: "مات ابن الرب، حدثٌ أحمق صدّقه الناس، ثم بُعث من قبره، وهذا حدثٌ أكيد رغم استحالته"

ومن ثَمَّ.. يتضح أن عقلي المختل توازنه بأمورٍ تافهة يشبه صخرة المحيط تلك التي تحدث عنها هيباستون البطلمي، تلك الجزيرة التي عاندت هجمات العنف البشري بثبات، وغضب الأمواج والرياح الشرس، ولم ترتعد إلا بملمس زهرةٍ اسمها أسفوديل، وبرغم هذا؛ بالنسبة للمفكر غير المتدبر فإنه وبدون شك هناك تغيُّرٍ ما فرضه مرض بيرينيس الكئيب، ظهر في حالتها النفسية، وهو أمرٌ سيكلفني الكثير مع الأدوات لممارسة ذلك العلاج المركز وغير التقليدي ذي الطبيعة التي أجد بعض الصعوبة في تفسيرها، غير أن هذا لم يكن موضع القلق أبدًا. ففي الأوقات التي بدا فيها مرضي جليًا كنت أشعر بالألم جراء النكبة التي حلّت على بيرينيس، وخصوصًا بعد الانهيار الكامل لحياتها الناعمة الرقيقة، فكّرت كثيرًا وبحزن في الطريقة العجيبة التي تغيرت بها حالتها بغرابة وفجأة، غير أن أفكاري لم تُسهِم أبدًا في فهم خصوصية مرضي، ولم تكُ لتسهم أبدًا، تحت أية ظروف مشابهة، في فهم عامة الناس، وبقدر اضطرابي، فقد استغرقت في تغيرات ليست بالمهمة قدر ما كانت مفاجئة.. تغيرات ألّمت بهيئة بيرينيس الجسمانية، وأيضًا في تمزق هويتها الشخصية الشاذ والغريب جدًا.

لم أعشقها قط أيّام جمالها الخلاّب، فحينها كنت أنا صاحب العلة والمرض الغريبين، ولذا لم تكن مشاعري من قلبي، وأحاسيسي كلها من عقلي، وفي يومٍ ما من الصباح الباكر وحتى غطّت الظلال تعريشات الأشجار وقت الظهيرة، ووسط صمت مكتبتي بالليل، رفرفت أمام عينيّ، رأيتها.. لم تكن كبيرينيس الحقيقية الحيّة، بل بيرينيس الحلم، وكأنها ليست من أهل الأرض، بل كجزءٍ من طيفٍ أرضي، ليس وكأن الأمر يدعو للإعجاب، ولكني أقول هذا من باب التحليل، ولم تكن طيفًا من الحب، بل ككيانٍ مبهم على الرغم من هيئته المفككة.. وفي ذلك الحين؛ حينها ارتعدت من هيئتها،

واصفرّ وجهي كلما اقتربت، بل وحزنت بحسرة لحالتها المتدهورة الخربة، وتذكرت كم أحبتني طويلًا، وفي لحظةٍ شيطانية طلبت منها الزواج.

وفي الأخير كانت لحظة زفافنا قد اقتربت، وفي ظهيرة يومٍ شتوي، أحد تلك الأيام الدافئة الهادئة الضبابية – على غير العادة – التي تحتضن طيور الهالكيون الأزرق الجميلة، جلست (جلست وحيدًا على ما اعتقدت حينها) في قاعة المكتبة الداخلية، ومالبثت أن رفعت عينيّ حتى رأيت بيرينيس واقفة أمامي.

تُرى هل كان السبب خيالي المُثار؟ أم تأثير الجو الضبابي؟ أم ضيّ الشفق داخل الغرفة على استحياء؟ أم الستائر الرمادية التي تظل هيئتها؟ أيهم كان السبب في هذه الهيئة المتذبذبة غير الواضحة؟ ليتني أعرف! لم تنطق، ولم أكن لأنطق أيضًا.. شعرت بقشعريرة باردة جدًا تسري بكامل جسمي، وانتابني شعورٌ بتوترٍ لا يُحتمل، واقتحمني فضولٌ يلتهمني، فغُصت في مقعدي وبقيت بضعًا من الوقت بلا نفسٍ ولا حركة.. انصبت عيناي على هيئتها.. واحسرتاه! كان هزالها مفرطًا، ولم تحتفظ بأي من ملامحها القديمة، ثم انتقلت عيناي إلى وجهها في الأخير.

كانت جبهتها مرتفعة وشاحبة جدًا وساكنة بشكل غريب، وشعرها الذي كان أسودًا يومًا ما سقط جزئيًا على جبهتها ليظل صدغيها الغائرين بجدائل لا حصر لها مصفرة اللون متنافرة الهيئة بصورةٍ مذهلة، مع كآبةٍ فرضت نفسها على هيئتها.. كانت عيناها ميتتين غائمتين، وكأنهما بلا بؤبؤ.. انتقلت بنظري لاإراديًا من نظرات عينيها المتجمدة إلى هيئة شفتيها النحفتين المنكمشتين.. افترقتا عن بعضهما، وبابتسامةٍ مريبة المعنى فرقت بيرينيس المتبدلة أسنانها ببطءٍ أمامي، كم توسلت إلى الله ألّا أرى مشهدًا كهذا، وإلا سأموت لو حصل فعلًا.

أزعجني انغلاق الباب، ثم عدت بناظريّ لأجد ابنة عمي قد غادرت الغرفة، غير أنها – وللأسف – لم تغادر عقلي المضطرب، ولن يغب عن بالي أبدًا منظر طيف أسنانها

المروّع.. لا تلطخ أسنانها بقعة، ولا يوسخ طلاءها اسودادًا، ولا يميز حوافها فراغ، ولكن طول ابتسامتها هو ما حفر تلك الصورة في عقلي.. والآن صرت أرى أسنانها أكثر وضوحًا مما كانت عليه أمامي، الأسنان! الأسنان كانت هنا وهناك وفي كل مكان، واضحة جلية أمامي، طويلةً مصطفّة ناصعة البياض، مع شفتين باهتتين تتلويان أمامهم وكأن الأسنان في لحظات نموها الأولى، ثم ازدادت وطأة المس الأحادي بداخلي، فعانيت بدون فائدة من أثره الغريب غير المقاوم، ولم أفكر في شيءٍ ضمن أمورٍ كثيرة في العالم الخارجي إلا الأسنان، ولها كنت أشتاق برغبةٍ مجنونة. صارت كل الأمور والاهتمامات الأخرى منصهرة في إناءٍ واحد.. كانت وحدها الأسنان حاضرة في عيني الواعية، وأصبحت بتميزها الفريد أساس حياتي الذهنية. كنت أراها في كل ضوء، وأحس بها في كل تصرف.. محّصت خصائصها، وعرفت غرائبها، وتأملت شكلها، وفكّرت في تغير طبيعتها. ارتعدت عندما منحتها في مخيلتي قوة حساسية وواعية، وحتى بدون الشفاة كانت للأسنان قدرة تعبير معنوية. قيل عن الآنسة سال أن "خطواتها مشاعر".. أما بخصوص بيرينيس، فإنني آؤمن بشدة بأن كل أسنانها أفكار.. نعم.. أفكار! وهنا كانت الفكرة التي دمرتني! تلك الأفكار التي جعلتني أرغب في تلك الأسنان بشدة، شعرت أن مجرد حصولي على أسنانها سيعيد السلام والمنطق إلى عقلي.

حلّ الليل وعمّ الظلام متلكئًا ثم مضى، وهلّ الصباح التالي وتجمّعت سحب الليلة الثانية، بينما ظللت جالسًا بلا حراك في تلك الغرفة المنعزلة..

غرقت في تأملاتي، ومازال طيف الأسنان يكبر بمرور الوقت بصورةٍ خبيثة شديدة، صار يطفو بين أضواء وظلال الغرفة المتغيرة، وفي الأخير قاطعت حلمي صرخة رعب وعذاب، توقف الصوت لوهلة، فتبعته أصوات مضطربة متداخلة مع أنّات حزنٍ أو ألمٍ خفيضة كثيرة، قمت من مقعدي وفتحت أحد أبواب المكتبة لأجد في الغرفة الخارجية خادمة واقفة تقول بعينٍ دامعة أن بيرينيس فارقت الحياة! انتابتها نوبة صرع في الصباح

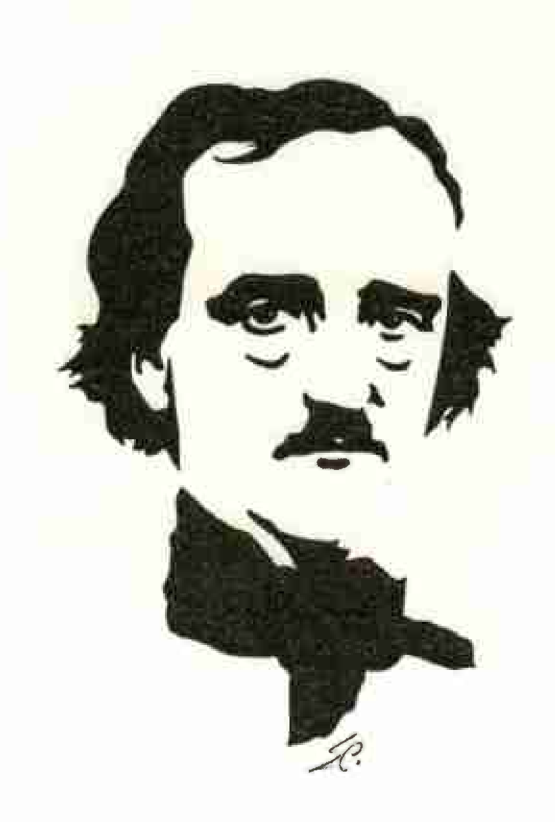
الباكر، والآن وقرب انتهاء الليل؛ كان القبر جاهزًا لاستقبال ساكنته، واكتملت كل تجهيزات الدفن.. وجدت نفسي جالسًا في المكتبة وحيدًا مجددًا.. بدا الأمر وكأنني استيقظت لتوي من حلمٍ مضطربٍ مثير، علمت أنني في منتصف الليل، كما علمت أن بيرينيس دُفنت بعد غروب الشمس، ولكنني لا أملك فهمًا معقولًا – ولا حتى واضحًا – لتلك الفترة الكئيبة التي غاب فيها عقلي، غير أن ذكراها كانت مفعمة بالرعب، رعب مخيف أكثر من كونه غامض، وخوف مرعب أكثر من كونه غامض، كانت صفحة مخيفة في سجل وجودي، سُطرت بذكرياتٍ خافتة خبيثة مبهمة. عانيت محاولًا فك طلاسمها، ولكن هيهات! وكأنها ذكريات قديمة كروح صوتٍ خافت، صوت صراخ امرأة شديد ومزعج بدأ وكأنه يرن داخل أذني.. فعلت فعلةً ما، ولكن ما هي؟ سألت نفسي بصوتٍ عال، فأجابني صدى صوت الغرفة الخافت "ما هي؟"

على المنضدة بجواري كان هناك مصباح وبالقرب منه صندوق صغير لا هيئة مميزة له، رأيته كثيرًا مسبقًا، فقد كان ملكًا لطبيب العائلة، ولكن ما الذي أتى به إلى هنا على منضدتي؟ ولماذا تنتابني قشعريره حياله؟ هناك من سيُحاسب على تلك الأمور.. وقع ناظري في الأخير على صفحاتٍ مفتوحةٍ من كتاب، على جملةٍ تحتها خط. كانت جملة مميزة على بساطتها للشاعر ابن الزيات قال فيها: "نصحني رفيقي بأن أضمّد جراحي بزيارة قبر حبيبتي".. لماذا حينها عندما قرأت تلك الكلمات انتصب شعر رأسي على آخره وتجمّد الدم في عروقي؟

حينها ظهر ضوء على باب المكتبة، ضوء باهتٌ كساكن القبر الأخير، ثم دخل خادم على أطراف أصابعه، ارتسم الرعب على محيّاه، ثم تحدث إليّ بصوتٍ مرتعدٍ أجشٍ خفيضٍ جدًا.. ماذا قال؟ سمعت بعض جملٍ منكسرة، تحدث عن صرخةٍ مرعبة أزعجت سكون الليل، عن تجمع أهل البيت، عن بحثٍ عن مصدر الصوت.. ثم صارت نبرة صوته واضحة بشكل مثير حين همس إليّ عن قبرٍ منبوش، عن جثمانٍ مكفنٍ مشوه.. جثمان مازال يتنفس، يخفق، حي!

أشار إلى كسوةٍ موحلة مخثّرة بالدم، لم أنطق.. أخذني برفقٍ من يدي التي كانت ممزقة من أثر الأظافر.. وجّهني إلى شيءٍ ما أمام الجدار.. نظرت إليه بضع دقائق، كان مجرفة.. تراجعت ناحية المنضدة صارخًا، وأمسكت الصندوق أعلاها، ولكنني لا أقدر على فتحه، حتى سقط من يدي من أثر ارتعاشي.. سقط الصندوق بشدة وانكسر، ومنه صدر صوت صاخب، صوت أدوات جراحة أسنان مختلطة باثني وثلاثين قطعة بيضاء عاجية الشكل تناثرت على الأرضية بالكامل.

***



إليونورا

(1842)



"الروح آمنة ما احتفظت بصورها"

- رامون لول

سليل نسلٍ يحكمه الهوى ويدفعه الشوق.. هذا أنا. نعتني الناس بالمخبول، ولكننا مازلنا في طور فهم ما إذا كان الجنون أسمى درجات الذكاء، وما إذا كان الذكاء الحاد نعمة، وما إذا كان كل هذا الخيال الخصب لا ينبع من مرضٍ عقلي، وما إذا كان الذكاء ناجمًا عن عقلٍ سام لا ينشغل بالتفكير العام. يدرك الحالمون بالنهار الكثير من الأشياء لا يدركها الحالمون بالليل. في رؤاهم الرمادية يُنعمون بلمحاتٍ من الخلود، وفي صحوهم يسعدون بأنهم كانوا على وشك معرفة سرٍ عظيم. يتعلمون شيئًا من الحكمة - ولو بسيطًا - والحكمة تفرّق بين الخير والشر، يبحرون هائمين في محيطٍ لُجيّ لا يعقله العاقلون، مثلهم كمثل مغامرات البحّار النوبي يغوصون في بحرٍ من الظلمات ليكتشفوا ما بقعره. لو ثبت كل هذا؛ فأنا مخبول فعلًا.. أؤكد لك أن هناك حالتان مختلفتان تميّزان عقلي؛ الأولى هي المنطقية الجليّة التي لا غبار عليها، تنتمي هذه الحالة إلى عالم الذكريات الأولى في حياتي، وهي حالة رمادية شكوكية تقترب من الحاضر أكثر، كما أنها تعمد إلى تجميع أجزاء المرحلة الثانية العظيمة من حياتي، وعليه؛ إذا وجدتني أتحدث عن حالتي الأولى فصدّقني، وما إذا انتقلت إلى الثانية فصدّق المعقول منها فقط.. فإما انتابك الشك وإما حاولت فك الشفرة.

كانت المرأة التي عشقتها في شبابي، والتي أسرد لك ذكراها الآن، الابنة الوحيدة لشقيقة أمي الوحيدة التي غادرت عالمنا منذ زمن.. إليونورا هو اسم ابنة خالتي التي طالما سكنّا سويًا تحت شمسٍ استوائية في وادٍ خصيب.. لم يزرنا زائرٌ في تلك البقعة المُحَاصرة بتلالٍ عملاقة تحوطها من كل جانب وتحرم آشعة الشمس من ملامسة الظاهر منها.. لا طريقٍ ممهدٍ ينقل الزائرين إلى بيتنا الدافئ، فأوراق آلاف الأشجار تحتاج إلى القطع كما ملايين الورود الفوّاحة.

بدا الأمر وكأننا نعيش وحدنا لا نعرف شيئًا عن العالم الخارجي.. وحدي مع ابنة خالتي وأمها.

من البقاع المظلمة خلف الجبال التي تحف منطقتنا الدافئة يسير نهرٌ ضيقٌ عميق أصفى من عينيّ معشوقتي إليونورا، يسير متعرجًا في ممرٍ ظليل بين تلالٍ صارت أظلم مما كانت، أسميناه "نهر السكوت" لسريانه الهامس، لا خرير ماءٍ يُسمع من مصبّه، يسير بتؤدة جعلت حصاه المتلألئ الذي طالما أحببنا منظره صامتًا يرقد في هدوءٍ وسكون ببريقٍ خالد.

حافة النهر وجداوله الساطعة المتأنية في طرقٍ ملتوية تصب في قناته، وكل تلك المساحة من الحافة إلى عمق التيّار وصولًا إلى مرقد الحصى في قاع النهر، تلك البقاع تغطي وجه الوادي كله تقريبًا من النهر إلى الجبال الآتيَ منها، كل تلك البقاع مغطّاة بعشبٍ أخضرٍ ناعم سميك قصير مستوٍ تفوح منه رائحة الفانيلّا، يتناثر بألوانٍ معدودات؛ فتجد الحوذان الأصفر، والأقحوان الأبيض، والبنفسج الأرجواني، والزنبق الأحمر، ليزداد جمالًا يخاطب قلوبنا بنبرةٍ مطمئنة، ويعبّر عن حب وعظمة الخالق.

تتعانق الأشجار في البساتين هنا وهناك وكأنها في حلمٍ جميل، أشجارٌ خلّابة لا تستقيم قامتها لكن تقف شامخة تحت نور الشمس في قلب الوادي.

سيقانها تلمع بخليطٍ من البني والفضي، ملمسها أنعم من خدّي معشوقتي إليونورا، أوراقها عملاقة خضراء تصطف من عليتها في تراتُبٍ مرتجف، تداعبها النسائم العليلة وكأنها ثعابين سورية تطأطئ الرأس تحيةً لحضرة الشمس.

كنت حينها ابن العشرين، أجوب الوادي حاضنًا يد إليونورا ابنة الخامسة عشر قبل أن يدب العشق بقلبينا، جلسنا متحاضنين تعلونا الأشجار ذات الأوراق الثعابين.. نظرنا إلى صورتينا المرتسمتين على سطح "نهر السكوت" فضلّت كلماتنا طريقها طوال اليوم، وحتى صبيحة اليوم التالي ظلّت الكلمات مرتجفة قليلة.

استحضرنا روح إيروس إله الحب من الموج، وصرنا الآن نشعر بأرواح أسلافنا المتقدة تسكننا.. ذلك الشوق الذي طالما دفع أسلافي لقرونٍ طوال جاءنا يرسم خيالاتِ فهمناها، تنسّمنا سويًا رحيق الشوق أمام الوادي الخصيب، تغيّر كل شيء حولنا، كبرت زهورٌ غريبة رائعة على هيئة نجوم حول أشجارٍ لم نعهدها مزهرة من قبل.

حتى الأعشاب الخضراء التي افترشت الأرض ترعرعت، انسحب الأقحوان الأبيض من الصورة وأخذ مكانه الزنبق الأحمر.. وكلما عدونا بمكانٍ لثمته الحياة بقبلة، جاءت طيور الفلامنجو طويلة السيقان وكل الطيور الملونة اللامعة تنثر أرواحها القرمزية في كل أرضٍ وطئناها، ظهرت أسماكٌ ذهبية وأخرى فضية في النهر، حتى الهمهمات المسموعة بالكاد صارت لحنًا مهدهدًا أسمى من صوت قيثارة عولس إله الرياح وأرق من صوت معشوقتي إليونورا.. وللتو هبّت رياحٌ قوية طالما شهدناها في مناطق هِسبر، منها القرمزي ومنها الذهبي، حتى استقرت بسلامٍ فوقنا، غدت تهبط يومًا تلو الآخر، تهبط أكثر فأكثر، حتى لامست حوافها قمم الجبال، صار الظلام بها نورًا، ثم أحاطت بنا كقصرٍ بهيجٍ عظيم.

طالما كان جمال إليونورا ملائكيّ، ولكن معشوقتي رقيقة بريئة كحياتها القصيرة التي عاشتها بين الزهور، لا حقد ولا مكر يعرف طريقًا لقلبها، حتى أنها امتحنت قلبها حين سرنا سويًا في الوادي الخصيب وتحدثنا عن التغيرات الأخيرة التي وقعت.

تحدثنا ليومٍ كامل، بعيونٍ تملؤها الدموع، عن التغيرات الحزينة الأخيرة التي لحقت بالإنسانية، ومنذ ذلك الحين وجدتها تسكن عالمًا من الحزن في كل حواراتنا، نفس الصور تكرر نفسها المرة تلو الأخرى وكأنها أبيات من شعر شيراز.

كما رأت إصبع الموت يشير إلى صدرها، فكانت كيرسوعٍ يجد ملاذًا في الموت، ولكنها أعربت عن خوفها من ويلات القبر حين تكون وحيدة هناك. حكت لي ذات ليلةٍ وقت الغسق على ضفاف "نهر السكوت" والحزن يملؤها عن خشيتها أن أعشق غيرها من العالم الخارجي بعد موتها، حينها ألقيت نفسي عند قدميها وأقسمت بها وبالسماء ألا أتزوج إنسية تعكّر صفو ذكراها الغالية أو ذكرى العشق الذي أنعمت به عليّ، ولقد أشهدت الخالق المتعال على وعدي لها، ولتحل عليّ لعنته ولعنتها إذا خنت العهد، ولتقع عليّ عقوبة الرعب والهول الشديد الذي لا أستطيع وصفه. لمعت عينا إليونورا أكثر فأكثر مع كلماتي، تنهّدت وكأن حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلها، ثم ارتعدت وبكت كثيرًا، ولكن قبلت العهد (يا لها من طفلة!) وهانت عليها ويلات القبر. قالت لي بعد عدة أيام، وهي في سكرات الموت مطمئنة، أنها ونظرًا لإراحتي روحها سأظل محفوظًا برعاية روحها عندما ترحل، ولو سُمح لها بالظهور أمامي في الليل – رغم أن هذا الأمر فوق مقدور أرواح السماوات – ستلمّح لي بوجودها بالهمس عبر رياح الليل أو ستنثر عطرها عبر مباخر الملائكة، وبينما همس شفتاها بتلك الكلمات فاضت روحها إلى السماء منتهية معها المرحلة الأولى من حياتي.

شقّ الزمان طريقًا بين تلك المرحلة وما تلاها.. وفي المرحلة الثانية من حياتي شعرت بظلٍ يغشى عقلي، حتى أني شككت في صحته، مرت السنين ثقيلة ومازلت أسكن الوادي الخصيب، ولكن تغير كل شيء..

انكمشت الزهور في هيئة النجوم إلى منابت الأشجار، وذبلت الأعشاب الخضراء، وشيئًا فشيئًا تلاشى الزنبق الأحمر وأخذ مكانه بنفسج بيضاوي الشكل نديّ.. غادرت الحياة طرقاتنا، ولم تعد طيور الفلامنجو تنشر أجنحتها القرمزية، بل غادرت الوادي حزينة إلى التلال، ومعها كل الطيور اللامعة الأخرى التي رافقتها، حتى الأسماك الذهبية والفضية سبحت عبر الممرات الضيقة أسفل نهاية الوادي ولم تعد، وذلك اللحن البديع الذي كان يصدر من قيثارة عولس والأرق من صوت معشوقتي إليونورا تلاشى شيئًا فشيئًا وصارت الهمهمات هي السائدة، حتى عاد التيار من جديد إلى وحدته القديمة، وأخيرًا عادت الرياح القوية إلى سابق عهدها مودّعة قمم الجبال تاركةً إياه فريسة للظلام، عادت إلى مناطق هِسبر آخذةً معها جمالها الذهبي من الوادي الخصيب.

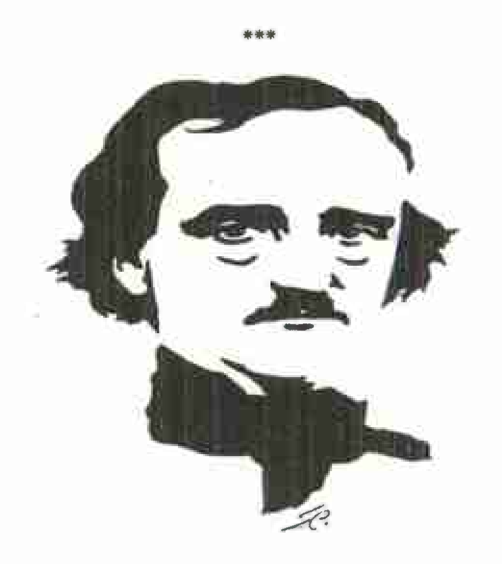
إلا أن إليونورا لم تنكث بوعدها، فقد سمعت صوت مباخر الملائكة وشممت عطرها يفوح ويغطّي الوادي.. وفي ساعاتي الوحيدة عندما كان قلبي يخفق بشدة كانت الرياح التي لفحت وجهي تأتيني محملة بهمسات ناعمة وهمهمات غير مفهومة ملأت هواء الليل، حينها استيقظت من نعاسي – وكأنني كنت ميتًا قبلها – لأجد شفاهًا روحانية تلثم شفاهي.

ولكن ذلك الفراغ بداخلي رفض أن يُملأ، فقد اشتاق قلبي لعشقٍ كان سابقًا يملأ هذا الفراغ عن آخره.. صار الوادي يثقل كاهلي بذكرى إليونورا، فتركته ذاهبًا إلى غرور العالم وبطولاته الزائفة.. وجدت نفسي في مدينةٍ غريبة فيها كل شيئ يدفعني إلى نسيان الأحلام الجميلة التي راودتني كثيرًا في الوادي الخصيب. أبهة وعظمة البلاط الفخم، وقعقعات الرجال المتواصلة، ورقة النساء المتألقة، كل هذا سمّم عقلي، إلا أن

روحي ظلّت محافظة على عهدها، ومازالت إليونورا ترسل لي بأمارات وجودها في ساعات الليل الداكنة، وفجأة تلاشى كل هذا واسودَّ العالم في عينيّ، فظللت مذعورًا بأفكارٍ ملتهبة جعلتني أميل إلى امرأة في بلاط الملك الذي خدمته، امرأة من فرط جمالها سلّم لها قلبي مفتاحه وركعت أمامها بدون أدنى مجهود في غمرة عشقٍ لا حائل دونها.. ولكن ماذا يساوي شعوري تجاه فتاةٍ صغيرةٍ في الوادي أمام نشوة العشق المُسكر المشتعل المذيب الذي سال من قلبي ومن دموعي راكعًا تحت أقدام معشوقتي إرمنجارد الملائكية؟ كم كانت ساحرة كالملائكة! لن يحمل قلبي أحدًا سواها، كم كانت مؤلّهة إرمنجارد! وكلما نظرت في أعماق عينيها المذيبتين لا أفكّر إلا فيهما وفي صاحبتهما.

تزوجت غير مبالٍ للعنة التي ألقيتها على نفسي، ولكن في ظلمة الليل زارتني الروح التي غادرتني يومًا، قالت بصوتٍ ناعمٍ مألوف: "نم في سلام! فروح العشق الذي دب في قلبك لإرمنجارد تعفيك من العهد الذي قطعته على نفسك لأسبابٍ تعلمها السماء وحدها".

***



ثلاثة آحاد في أسبوع

(1841)

"أيها العنيد المكابر المتعنّت الحرون المتصلّب الشموس الهمجي الهَرِم" هكذا قلت – في خيالي – ساعة ظهيرة لعمي الأكبر، راالمجادجيون، متخيلًا قبضتي مُوجّهةً إلى وجهه.

ولكن حدث هذا فقط في خيالي.. الحق يُقال أن هنا تضاربًا بسيطًا بين ما أقوله وما لا أملك الشجاعة لأقوله وبين ما فعلته وما لم أفعله بعد.

هممت بفتح باب غرفة الرسم بينما كان ذلك الخنزير يجلس واضعًا قدميه على رف الموقد وفي يده قنينة، يحاول جاهدًا إنهاء أغنيته:

املأ قنينتك بالكامل!

اشرب قنينتك بالكامل!

"عمي العزيز!" قلت وأنا أغلق باب الغرفة برفق.. اقتربت منه وعلى وجهي ألطف ابتسامة.

– طالما كنت طيب القلب عطوف، طالما كنت تبذل الخير الكثير الكثير، لي طلبٌ واحد صغير أعرضه عليك مجددًا كي تتذكره جيدًا.

– هممم.. ولدٌ صالح! أكمل.

– أكاد أجزم يا عمي العزيز (أيها النذل الهَرِم) أنك لن تعارض أبدًا أبدًا زواجي من كيت.. أعتقد أنها نكتة منك.. أعرف هذا! هاهاها!.. تكون خفيف الظل أحيانًا.

– هاهاها! اللعنة عليك! أجل!

– كنت أعلم أنك تمازحني.. والآن يا عماه كل ما أريده أنا وكيت الآن أن تنصحنا بخصوص الميعاد.. ميعاد قريب أكثر، ميعاد يناسبك لإتمام الزواج.. ماذا ترى؟

– اقترب أيها النذل! ماذا تقصد؟ انتظر واصبر.

– هاهاهاها! هوهوهوهو! هي هي هي هي! يا لك من حكيم! ولكن كل ما نرجوه منك يا عماه أن تحدد لنا ميعادًا.

– آه! أحدّدا!

– أجل يا عماه! هذا كل ما في الأمر.. هذا بعد إذنك طبعًا.

– ألن يكون من الأفضل يا بوبي أن أقول خلال عامٍ أو ما شابه؟ أيجب أن أحدد ميعادًا؟

– هذا بعد إذنك طبعًا يا عماه.. حدد لنا ميعادًا.

– حسنًا يا بوبي، يا لك من شابٍ صالح! ولأني سأحدد لك ميعادًا، سألزمك بشيء.

– ماذا تقصد يا عماه؟

– صهِ أيها السيد! سألزمك بشيء، ستحصل على موافقتي وستحصل على عروسك.. لا يجب أن ننسى العروس.. دعني أرى.. تُرى متى سيكون الزفاف؟ اليوم الأحد، أليس كذلك؟ سيتم الزفاف بالتحديد، استعد الآن.. سيتم الزفاف بالتحديد عندما تأتي ثلاثة آحادٍ في أسبوعٍ واحد.. هل تسمعني أيها السيد؟ فيمّ تُحدّق؟ أقول أنك لن تحصل على كيت إلا عندما تأتي ثلاثة آحادٍ في أسبوعٍ واحد، وحينها فقط أيها الحقير ستحصل على مرادك.. دونه الموت، أنت تعرفني كلمتي واحدة، والآن اغرب عن وجهي.. عاد إلى أغنيته واندفعت خارج الغرفة يائسًا.

طالما كان عمي الأكبر راجادجيون، رجلًا إنجليزيًا كبيرًا محترمًا، غير أنه كانت له نقاط ضعف على عكس ما تصف الأغنية التي تحمل نفس المعنى.. كان قصيرًا سمينًا مغرورًا عنيفًا ذا قوامٍ شبه دائري وأنفٍ أحمر ورأسٍ سميك، وهكذا فإن يحمل محفظةً كبيرة ويعتز كثيرًا يعلو شأنه.. كان يملك أكبر طموحٍ في الدنيا، خلق عن عمدٍ شخصيته البخيلة، مكونًا ثروته، كان يتمتع بتعارضٍ كبير بين تصرفاته، هكذا بدا لمن لا يعرفه جيدًا، وككثير من الناجحين كان يبدو مستفزًا، غير أن استفزازه هذا كان يظنه البعض – على سبيل الخطأ – خبثًا.. طالما كان جوابه "لا" على كل طلب اقتراض، ولكن بمرور الزمن، وفي الأخير جدًا لم يرفض إلا عددًا ضئيلًا جدًا من تلك الطلبات.. كان مدافعًا عنيدًا عن محفظته، وعلى قدر ما كان عنيدًا؛ ابتَزَّهُ الآخرون في الحصول على مبالغ مالية.. كان أكثر الناس تحررًا في عطائه، وأيضًا في مَنِّه.

وفيما يخص علاقته بالفنون الجميلة، وخصوصًا الآداب، كان كارهًا لدودًا، غير أنه كان مُعجبًا بكازمير بيرير الذي أخذ عنه سؤاله الوقح "هل من شاعرٍ جيد؟" وصار ملازمًا له ينطقه بطريقةٍ مضحكة، ولذا كان يهتاج من مقدار معرفتي الضئيل بالشعر، وعندما سألته عن نسخةٍ جديدة من شعر هوراس أكّد لي أن ترجمة جملة " **Poeta nascitur non fit**" هي "الشاعر الحق يولد شاعرًا، لا يُصنع".. وهو ردٌ أخذته بامتعاض، غير أن كرهه لعلوم الإنسانيات ازداد كثيرًا مؤخرًا بناءً على رأيه المتحيز نحو ما يعتبره علومًا طبيعية.. بادره أحدهم بالكلام في الشارع ظنًا منه أنه الدكتور دوبل ل. دي، المحاضر في الفيزياء الفلكية، جعلته هذه الحادثة ينجرف عن مساره، وفي نهاية المطاف صار عمّي أكثر تقبلًا للأفكار التي تتماشى فقط مع أفكاره هو الشخصية.. كان عندما يضحك يهز ذراعيه وقدميه، كانت أفكاره عنيدة وواضحة، كان يرى أن الناس يجب أن يطيعوا الأوامر فقط.

عشت مع الرجل الإنجليزي الكبير المحترم طيلة حياتي.. أوصاه والدايّ في سكرات موتهما بالعناية بي كثيرًا.. أعتقد أن هذا الوغد العوز أحبني كابنه – تمامًا تقريبًا كما أحب ابنته كيت – ولكنه عاملني كالكلاب في نهاية المطاف، منذ أول عامٍ لي حتى الخامس كان ينهال عليّ باللطمات، ومنذ عامي الخامس حتى الخامس عشر كان يتوعّدني على مدار الساعة بإلحاقي بالإصلاحية، ومنذ عامي الخامس عشر حتى العشرين لم يمر يوم لا يهددني فيه بقطع المصروف.. كنت كلبًا حزينًا – هذا حقيقي – ولكن تلك كانت طبيعة متأصلة فيّ، إحقاقًا للحق، طالما وجدت في كيت صديقة صدوقة.. فتاةٌ حسنة كانت تخبرني بأنني يمكنني الحصول عليها إذا طاردت أبيها بالإصرار حتى يرضى.. يالها من طيبة! كانت بالكاد في الخامسة عشر حينها، وبدون تلك الموافقة لن تحصل على مصروفها الضئيل إلا بعد خمسة سنينٍ طويلة مملة.. إذًا ما العمل؟ كانت في الخامسة عشر وأنا في الحادية والعشرين، والأمر سيان.. انتظار خمس سنين يعادل انتظار خمسة آلاف..

لم تنفع محاولاتنا مع الرجل الهَرِم.. تلك كانت وجبته الرئيسية (كما كان يقول السيدان أودي وكريم) التي تشبه رغباته المنحرفة، لو كان أيوب نفسه موجودًا بزماننا لسخط على ما يفعله ذلك الفأر العجوز بجرذين ضعيفين مثلنا. لم يرغب في شيءٍ بشدة من قلبه أكثر من زواجنا.. كان قد حسم قراره منذ زمن طويل، الحق يُقال أنه قد يدفع عشرة آلاف جنيهًا من جيبه الخاص – رغم أنه قال أن القرار قرار كيت – ليحقق لنا رغباتنا الطبيعية، إلا أننا تهورنا كفاية لنفرض الأمر عليه، لم يكن بيده معارضة هذا الأمر تحت أية ظروف.

قلت أن للرجل نقاط ضعف، ولا أعني بذلك عناده الذي كان أحد نقاط قوته؛ فالرجل بالتأكيد لم يكن ضعيفًا.. ولكنني عندما أتحدث عن نقاط ضعفٍ أقصد بذلك خرافة غريبة قديمة أثّرت عليه، طالما كان عمي ذا أحلامٍ كبيرة وآمالٍ غير واقعية، كان

حريصًا جدًا على الشكليات الصغيرة، والشرفيات التافهة، ومظهره الخاص أيضًا.. كان رجلًا صاحب كلمة، لا شك في ذلك، كانت تلك إحدى هواياته. لم يكن يأخذ عهدًا على نفسه ولا يفي به، فكلمته لا رجعة فيها، والآن يبدو أن تلك العادة قد طغت عليه، وهو أمر أرادت كيت أن تستفيد منه ذات يومٍ بعد لقائنا في غرفة الطعام على نحوٍ غير متوقع، وبنفس أسلوب الشعراء والخطباء المنهمكين في الكتابات النقدية سأستجمع كلمات معدودات لأحكي باقي القصة.

لعبت الأقدار لعبتها حيث كان لموعودتي أقارب يعملون في البحر، منهم رجلان كريمان وصلا لتوهما إلى شواطئ إنجلترا بعد غيابٍ دام عام، كل منهما في رحلةٍ مختلفة عن الآخر.. اجتمعت أنا وابنة عمي مع الرجلين الكريمين، وكنت قبلها قد ذهبت إلى عمي ظهيرة يوم الأحد الموافق العاشر من أكتوبر؛ أي ثلاثة أسابيع بعد محادثتي الأخيرة معه والتي قتلت كل آمالنا بمنتهى القسوة، جرت المحادثة حول موضوعاتٍ عامة لساعة ونصف، وفي الأخير تحول الحديث.

القبطان برات:

– حسنًا، كنت غائبًا لمدة عامٍ واحد، عام واحد حتى اليوم، دعني أنظر.. أجل، إنه العاشر من أكتوبر.. تتذكر يا سيد رامجادجيون أني قد ودعتك مثل هذا اليوم العام الفائت، بالمناسبة يصدف أن القبطان سميثرتون كان قد غادر منذ عام مثل هذا اليوم أيضًا.

سميثرتون:

– أجل، عامٌ إلا بضع ساعات.. تذكر يا سيد رامجادجيون أني قد قدمت مثل هذا اليوم مع القبطان براتول لأودعك.

عمي:

– أجل، أجل، أجل.. أذكر هذا جيدًا.. أمر غريب فعلًا! كلاكما سافر منذ عام، صدفة غريبة جدًا طبعًا، هذا ما كان الدكتور دوبل ل. دي ليقول عنه أنه تواردٌ غريب للأحداث.. يقول أيضًا..

كيت (مقاطعةً الحديث):

– إنه أمر جد غريب يا أبتاه، ولكن القبطان برات والقبطان سميثرتون لم يذهبا سويًا في نفس الطريق.. لذا فالأمر مختلف، كما تعلم.

عمي:

– لم أكن أعلم أيتها الغبية.. من أين لي؟ هذا ما يجعل الوضع أكثر غرابة.. يقول الدكتور دوبل ل. دي..

كيت:

– السبب يا أبي هو أن القبطان برات ذهب حول كايب هورن، أما القبطان سميثرتون دار حور كاب أوف ذا جود هوب.

عمي:

– بالضبط! أحدهم ذهب شرقًا والآخر غربًا أيتها الساذجة، وكلاهما لفّ العالم.. وللعلم فإن الدكتور دوبل ل. دي..

أنا (على عجل):

– قبطان برات، يجب أن تأتي لتقضي المساء معنا غدًا، أنت وسميثرتون، لتحكيا لنا مغامراتكما.. كما سنلعب بالأوراق و..

برات:

– توقف يا عزيزي، فغدًا الأحد.. ربما ليلة لاحقة..

كيت:

- لا، تبًّا! اليوم هو الأحد.

عمي:

- أكيد.. أكيد!

برات:

- أرجوكما.. ولكنني متأكد أن غدًا هو الأحد لأن..

سميثرتون (باندهاش):

- عمّا تتحدثون؟ ألم يكن الأمس هو الأحد.. يجب أن أتأكد.

الجميع في صوتٍ واحد:

- الأمس طبعًا.. أنت مجنون!

عمي:

- اليوم الأحد كما أقول لكم، وهل لي ألّا أعرف؟

برات:

- أوه، لا! غدًا الأحد.

سميثرتون:

- كلكم مجانين.. كلكم! إنني متأكد تمامًا أن أمس الأحد تأكّدي من وجودي هنا.

كيت (قافزةً من مكانها):

- اتضح الأمر.. اتضح الأمر كله يا أبتِ.. والآن هذه حجةٌ عليك بخصوص الأمر الذي تعرفه. دعوني وحدي وسأشرح الوضع في دقيقة، إنه لأمرٌ سهل بالتأكيد.. يقول

القبطان سميثرتون أن أمس الأحد، وقد كان.. لذا فهو محق، ابن عمي بوبي وأنا وأبي نقول أن اليوم الأحد، وقد كان.. لذا فنحن محقون، يقول القبطان برات أن غدًا الأحد، وقد كان.. لذا فهو محق، الحق يُقال أننا جميعًا محقون.. لدينا ثلاثة آحادٍ في أسبوعٍ واحد.

سميثرتون (بعد صمت):

- فعلًا..غلبنا برات وكيت تمامًا، كم نحن حمقى يا سيد راجادجيون! والآن اتضح الأمر؛ يبلغ محيط الأرض أربعة وعشرين ألف ميلًا، والأرض تدور حول محورها، تدور وتدور، ويلف هذا المحيط من الغرب إلى الشرق في أربعةٍ وعشرين ساعة بالتمام والكمال..هل تفهمني يا سيد راجادجيون؟

عمي:

- طبعًا.. يقول الدكتور دوبـــ..

سميثرتون (بصوتٍ خفيض):

- حسنًا سيدي، هذا بمعدل ألف ميلٍ في الساعة، والآن دعنا نفترض أنني قد أبحرت ألف ميلٍ من هذا المكان ناحية الشرق. أتوقع طبعًا أن تشرق الشمس هنا في لندن بعد ساعة، وقد تشرق قبل ساعةٍ كذلك. وفي نفس الاتجاه وبعد ألف ميلٍ آخر أتوقع أن تشرق الشمس بعد ساعتين، وبعد ألف ميلٍ آخر تشرق الشمس بعد ثلاث ساعات، وهكذا دواليك حتى ألف حول العالم ثم أعود إلى هذه البقعة التي انطلقت منها، وعليه فإنني أتوقع أن تشرق الشمس في لندن بعد أربع وعشرين ساعة لا أقل.. وهذا يعني أنني متقدمٌ عليكم بيومٍ كامل.. هل فهمتني؟

عمي:

- ولكن الدكتور دوبل ل. دي..

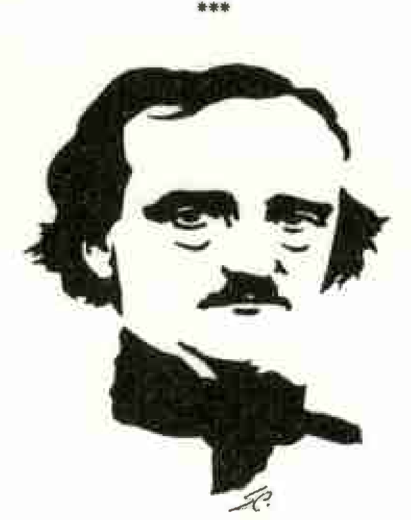
سميثرتون (بصوتٍ مرتفع جدًا):

- وعلى العكس فإن القبطان برات عندما أبحر ألف ميلٍ من هذا المكان ناحية الغرب كان ذلك بعد ساعةٍ من شروق الشمس، وهكذا دواليك حتى لفّ العالم حتى عاد إلى هذه البقعة التي انطلق منها، وعليه فإنه متأخرٌ عليكم بيومٍ كامل، وعليه فإنني أظن أن أمس الأحد، وتظنون أن اليوم الأحد، ويظن برات أن غدًا الأحد.. الأدهى من ذلك يا سيد راجمادجيون أننا جميعًا على حق، فلا منطقٍ فلسفي آخر يفسّر سبب اعتقاد كلٍ منها.

عمي:

- عيناي! حسنًا، كيت وبوبي.. الآن هذه حجةٌ عليّ كما تقولين، ولكنني رجل أوفي بالعهد.. تذكروا هذا! ستتزوجها يا ولدي (ستحصل عليها) في الوقت الذي ترضاه، قُضي الأمر بعظمة جوبيتر! ثلاثة آحادٍ على التوالي! سأذهب لأعرف رأي الدكتور دوبل ل. دي في هذا الأمر.

***



حكاية أورشليم

(1832)



"فلنسرع نحو الأسوار.." قال هابيل لبوزي بن ليفي وشمعون الفريسي، إنه العاشر من يوليو/تموز.."الأسوار المحاذية لبوابة بنيامين بمدينة الملك داود والمطلّة على معسكر غير المختونين، أمامنا ساعة واحدة على انتهاء رابع مناوبات الحراسة، قبل أن تشرق الشمس، سيكون الوثنيون في انتظارنا والحملان معهم استعدادًا للتضحية إيفاءً بوعد بومبي".

يجتمع شمعون وهابيل وبن ليفي على كونهم الخزنة المؤتمنين على الأضاحي في مدينة أورشليم المقدسة.

"نعم، فلنسرع وإلّا يظهرنّ علينا الوثنيون فينكرون ما بيدنا من كرامات، فعُبّاد الإله بعل متقلبة أفئدتهم" قال شمعون.

"أفئدتهم متقلبة وخيانتهم دامغة وحق أسفار موسى الخمسة" قال بن ليفي وأردف: "ولكنهم كذلك تجاه قوم أدوناي فقط. منذ متى يبحث العمونيون عن مصالحهم؟ لم أرَ منهم ريحَ كرمٍ حين أعطونا الحملان نحملها لمذبح الرب في مقابل ثلاثين شيكل فضي لكل حمل."

قال هابيل "ولكنك نسيت يا بن ليفي أن بومبي الروماني الذي يحاصر آثمًا مدينة الرب الأعلى لا يوقن أننا نقدم الحملان التي اشتريناها للمذبح لأجل الجسم لا الروح".

"والآن بحق لحيتي!" صاح الفريسي، وهو أحد أفراد طائفة تُدعى "المندفعون" (حفنة من القدّيسين يندفعون ويجرحون أقدامهم على رصيفٍ كان منذ زمن شوكة حادة، ثم

يعاتبون العبّاد الأقل التزامًا) "بحق لحيتي المحرم عليّ حلاقتها! هل عشنا إلى اليوم الذي يتهمنا فيه محدثو النعمة الكفرة الوثنيون بسرقة اللحم، أقدس العناصر وأرفعها مكانة؟"

"دعنا لا نشكك في نوايا الفلسطيني" قاطعه هابيل وأردف "لأننا اليوم ولأول مرة نستفيد من جشعه أو من كرمه، لكن دعنا الآن نسرع نحو الأسوار، فالقرابين تنتظر المذبح الذي لا تطفئ ناره أمطار الجنان ولا تغلب أعمدة دخانه عاصفة".

أسرع ثلاثتهم نحو مقصدهم من المدينة والذي يحمل اسم بانيها – الملك داود – أكثر الأماكن قدسيةً وتحصينًا في أورشليم لموقعه فوق تلة صهيون العالية الشامخة.. هناك خندق واسع عميق محوط مجذوعٍ من صخرةٍ صمّاء يحميه جدار قوي ينتصب عند حافته، الجدار مزخرف على مسافاتٍ متساوية بأبراجٍ مربعة من الرخام الأبيض؛ أقصرهم طوله ستين ذراعًا وأطولهم مائة وعشرين ذراعًا، ولكن بالقرب من بوابة بنيامين يرتفع الجدار بلا أعمدة لدى حافة الخندق، وعلى النقيض بين مستوى الخندق وقبو الجدار يرتفع منحدرٍ صخري عمودي ذو مائة وخمسين ذراعًا، وبذلك مشكلًا بذلك جزءاً من جبل موريا المتعرج، ولذا عندما وصل شمعون ورفاقه إلى قمة البرج المُسمى (أدوني بيزيك) – أعلى الأبراج المحيطة بأورشليم والمكان المعتاد لمقابلة الجيش المحاصر – نظروا إلى الأسفل صوب معسكر الأعداء من ربوةٍ عالية تفوق هرم خوفو بأقدامٍ كثيرة وتفوق معبد بيلوس بأقدامٍ أكثر.

"لا ريب أن غير المختونين لا حصر لهم، كأنهم جراد هائج، صار وادي الملك وادي أدومين" تنهّد الفريسي وهو ينظر بحذرٍ من فوق الهاوية.

"ولكن لا تقولوا أني فلسطيني، لا وألف لا، من البرية إلى الأسوار" أضاف بن ليفي.

"ضع صندوق الشيكلات الفضية هذا!" صاح ضابطٌ روماني بصوتٍ أجش غليظ يبدو صادرًا من نواحي أفلاطون. "ضع صندوق الشيكلات اللعينة الذي كسر أنف الرومان النبلاء.. أهكذا تثبت ولاءك لعظيمنا بومبيوس؟ بومبيوس الذي تدنّى واستمع

للجاجتك الكافرة، أترى حينما سار الإله أبوللو – الإله الحق – بعربته ساعةٍ كاملة؟ ورغم ذلك لم أرك تصل إلى الأسوار بحلول شروق الشمس.. اللعنة! هل تظن أننا فاتحو هذا العالم ليس لدينا ما يشغلنا سوى انتظارك عند كل شرذمة كلاب أو أن نختلط بها؟ ابعد هذا الصندق! واعلم وزنك وقيمتك بحق!"

"يا إلوهيم!" صاح الفريسي مع دوي صوت القائد الروماني الذي ارتعد له الجرف وبعد صداه إلى ما بعد المعبد.. "يا إلوهيم! من الإله أبوللو؟ عمّ يتحدث هذا الكافر؟ أنت قارئٌ في قوانين الوثنيين يا بن ليفي ونزلت بمن يعبد الأوثان، أيتحدث هذا الوثني عن نيرجال؟ أم أشيما؟ أم نيباز؟ أم تارتاك؟ أم أدرماليخ؟ أم أناماليخ؟ أم سكوث بنيث؟ أم داجون؟ أم بليال؟ أم بعل بيريث؟ أم بعل بيور؟ أم بعل زيبوب؟"

"ولا أي من هؤلاء، ولكن انظر كيف انزلق الحبل بسرعة من بين أصابعك، يجب أن يبقى الحبل معلقًا بالجرف حتى يترل بهم العقاب الأليم هابطًا من كرامات المعبد".

وبمساعدة آلةٍ متينة القوام نزل الصندوق الثقيل بحرص من القمة الدائبة، التف الرومان حوله في حيرةٍ من أمرهم، ولكن لعلو الارتفاع وكثافة الضباب لم تُر تفاصيل عملياتهم بالأسفل.

مر نصف ساعة.

"سنتأخر كثيرًا" تنهّد الفريسي مشيرًا إلى طول المدة، نظر إلى الهاوية وأردف "سنتأخر كثيرًا وسيعاقبنا الكاثوليك"

"لا مزيد" ردّ عليه هابيل.. "لا مزيد من اللحم لنا، لن تفوح لحانا بالبخور مجددًا، لن يلف أجسامنا الكتّان اللطيف القادم من المعبد".

"اللعنة!" قال بن ليفي.. "هل يريدون الاحتيال علينا؟ هل يعدّون الشيكلات داخل الخيمة؟"

صاح الفريسي "ها هم أعطونا إشارةً أخيرًا.. أخيرًا أعطونا إشارة، اسحب يا هابيل وأنت يا بن ليفي.. اسحبا! لابد أنهم ما زالوا يمسكون بالصندوق، أو أن الرب قد ألان قلوبهم وجعلهم يضعون لنا ذبحًا عظيمًا!" سحب الخزنة بينما تأرجحت الحمولة يمينًا ويسارًا في طريقها إلى الأعلى عبر الضباب الذي ازدادت كثافته كلما ارتفعت الحمولة.

"مرحى" ظهر شيءٌ ما بنهاية الحبل بعد مرور ساعة.. "مرحى! مرحى!" صاح بن ليفي، ولكن يا للعار! إنه كبشٌ من أيكة عين جدي.. كبشٌ متجعد كوادي يهوشافاط!

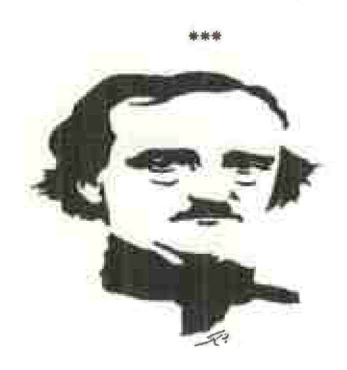
"إنه أول نتاج القطيع" قال هابيل وأردف "أعرفه من ثغاء شفاه وانثناء أطرافه.. عيناه أجمل من حلمتيه، ولحمه في طيب عسل الخليل"

"إنه كبشٌ سمين من مرج باشان" قال الفريسي وأردف: "يا لكرم السماء! دعونا نرفع أصواتنا في ترانيمنا، دعونا نشكر الرب بالمزمار والسنطور، بالقيثارة والأوتار، وبالبيان والمترددة"

ولكن ما أن صارت الحمولة على بعد قدمٍ واحدٍ من الخزنة وجدوها خنزيرًا لا يُسمِن ولا يغني من جوع.

"سحقًا.." انقلبت أعينهم وصرخ ثلاثتهم وتركوا الحبل.. وقع الخنزير بينهم وهم يصرخون "سحقًا.. إنه اللحم الحرام!"

***



كائن السفنكِس

(1846)



وصلتني دعوةٌ من قريب لقضاء أسبوعين معه في بيته الريفي على ضفاف نهر هدسون، حينها كان وباء الكوليرا يضرب نيويورك ببشاعة.. وهناك كانت كل أطياف المتع الصيفية تحيط بنا من السير خلال الغابات، والرسم، والإبحار، والصيد، والموسيقى، وقراءة الكتب، لذا لم يكن غريبًا أن نقضي وقتًا ممتعًا، لكن كان يصلنا خبرٌ مخيف صبيحة كل يوم من المدينة المزدحمة، لم يمر يوم إلا بوصول خبر وفاة أحد المعارف، ومع تزايد الوفيات اعتدنا على وصول تلك الأخبار يوميًا.. كنّا نرتعد بمجرد اقتراب رسول يحمل رسالة..

تلك الرياح الجنوبية نفسها صارت تفوح برائحة الموت، سيطرت هذه الفكرة المسمومة على روحي، فلا أتكلم ولا أفكّر ولا أحلم بشيء سواها، إلا أن مضيفي لم يكن في حالٍ أفضل، ورغم اكتئابه الشديد عمل جاهدًا على إخراجي من هذه الحالة، لم تتأثر عقليته الفلسفية الغنية بالأوهام، ورغم الرعب الذي يسود الأجواء بدا الرجل حيًّا.. ولكن لم يدرِ بما هو آت.

باءت كل محاولاته إخراجي من حالة الاكتئاب التي تلبستني بالفشل، والفضل يرجع إلى بعض كتبه التي وجدتها في مكتبته، أنبتت تلك الكتب بذور الأوهام القابعة في صدري، عكفت على قراءتها من وراء ظهره، ولذا لم يعد الرجل يجارِ ما أنبتته تلك الأوهام من خيالات.

من ضمن الموضوعات المحببة إلى قلبي الإيمان بالفأل، وهو إيمانٌ عكفت على الدفاع والزود عنه في تلك الفترة من حياتي.. صديقي يطعن في أساس الإيمان بالفأل، بينما أؤمن بعفوية الأمور التي تحمل الحقيقة التي لا ريب فيها بين طيّاتها، حتى صرت مؤمنًا بأن بعض البشر استأثروا بهذا الحدس عن غيرهم.

فبعد وصولي إلى بيت صديقي الريفي وقعت حادثة لم يقدر عقلي على تفسيرها.. حادثة فريدة من نوعها جعلت الآخرين يقدّرون أخيرًا إيماني بالفأل، حادثة أربكتني وحيرتني، حتى مرت أيام طوال بعدها قبل أن أربط الأحداث ببعضها لصديقي.

باقتراب أفول شمس نهارٍ دافئ؛ جلست أطالع كتابًا قرب نافذة مفتوحة تطل على ضفاف النهر مد البصر، وتلة بعيدة وجهها عارٍ تمامًا من أي أشجار، تاهت أفكاري بين المنظر القابع أمام عيناي والمدينة الكئيبة الخربة بجوارنا، وحين رفعت عيني عن صفحة الكتاب وقعت أنظاري على شيءٍ ما.. وحشٌ حيٌ بشع المنظر انطلق بسرعة من قمة التلة إلى سفحها مختفيًا بين أشجار الغابة هناك.. لم أصدق نفسي لأول وهلة، ربما كانت هلوسة، بذلت جهدًا واسعًا كي أقنع نفسي بأني لم أجن ولم أحلم.. ولكن عندما وصفت هذا الوحش (الذي رأيته رأي العين وتفحّصت شكله فترة ظهوره) إلى قرائي، أخشى أنهم لم يقتنعوا بما وصف قدر ما اقتنعت أنا.

في تقديري فإن حجم المخلوق الذي رأيته يعادل قطر الأشجار الكبيرة المعدودة على أصابع الأيدي والتي هربت من حرارة قمة التلة، حجمه أكبر من أي سفينة رأيتها.. أقول سفينة لأن شكل الوحش الذي رأيته يشبه هيكل إحدى سفننا الأربعة وسبعين، فمه بارزٌ جدًا بطول ستين أو سبعين قدمًا، وبسمك فيل، لهذا الوحش أنفٌ كبير يشبه خرطوم الفيل، بالأسفل منه شعرٌ كثيف أسود أشعث، أكثر من أي شعرٍ قد يأتي به دزينة جاموس، ومن هذا الشعر يخرج نابان لامعان، ليسا كنابي الدببة البرية، ولكن أكبر بكثير.. يقف النابان بالتوازي مع الخرطوم، وعلى كلا الجانبين هناك شيئ

يبلغ طوله ثلاثين أو أربعين قدمًا، كريستالي الشكل وكأنه منشور زجاجي تنعكس عليه آشعة الشمس..

الخرطوم كالوتد وقمته مواجهة للأرض، ومن جانبي الخرطوم يخرج أربعة أجنحة — إثنان في كل جانب – طول الجناح الواحد مائة ياردة تقريبًا، وكل اثنين فوق بعض، الأجنحة الأربعة مغطاة جميعها بدرجاتٍ معدنية، قطر كل درجة حوالي عشرة أو اثني عشر قدمًا.. كما لاحظت أن طبقات الأجنحة العليا والسفلى كلها مرتبطة ببعضها البعض بسلسلة متينة، إلا أن أغرب شيئ في هذا المخلوق كان رأس الموت الذي غطى صدره بالكامل تقريبًا بلونٍ أبيض لامع فوق جسمه الأسود، وكأن من وضع هذا الرأس في هذا المكان فنانٌ في الأساس، وبينما كنت أتفحص شكل هذا المخلوق الرهيب، وخصوصًا صدره، ملأني شعور مهيب بالخوف والرعب مما هو آت.. أتذكر منظر الوحش وهو يرفع خرطومه كاشفًا عن أنيابه الهائلة، ثم أطلق صيحةً مخيفة ارتعدت لها فرائصي، ثم توارى الوحش فجأة نحو سفح التلة، فسقطت مغشيًا عليَّ فورًا.

أول شيء قررت فعله فور استيقاظي هو أن أخبر صديقي بما رأيته وسمعته رغم ما أشعره به من نفورٍ أكاد لا أستطيع تفسيره.. نفور منعني من إخبار صديقي بما حصل.

وبنهاية المطاف بعد ثلاثة أو أربعة أيام كنت أجلس وإيّاه في الغرفة التي رأيت منها ما رأيت، على نفس المقعد أمام نفس النافذة، بينما اضّجع هو على الكنبة بالقرب مني، تقارُب الزمان والمكان أجبرني على سرد ما حصل، أنصت حتى النهاية، ضحك كثيرًا في البداية ومع استرسال الحكاية تغيّرت نظرته وأخذت شكلًا من الجدية، وكأنه يثق في كلامي، وفي تلك اللحظة رأيت الوحش من جديد، بصورةٍ أوضح هذه المرة، بينما ترتعد أناملي.. أشرت لصديقي.. نظر جيدًا، ورغم تأكيده أنه لم يرَ شيئًا من هذا القبيل وصفت له الوحش بالتفصيل وهو يعتلي قمة التلة.

صِرت أكثر ارتيابًا الآن، هل ظهور هذا الوحش نذير موتي؟ أم أسوأ من ذلك؟ هل يا تُرى نذير جنوني؟ ألقيت بنفسي على المقعد مغطيًا وجهي بالكامل بيدي، وفور ما فتحت عيني كان الوحش قد اختفى.

حافظ صديقي على هدوئه، حتى أنه سألني بفضول عن شكل هذا المخلوق، وعندما وصفته له تنهَّد وكأن حِملًا قد أزيح عن كاهله، ثم أخذ يتحدث بكل هدوء عن الفلسفة التأملية التي شغلت أحاديثنا طويلًا، أذكر إصراره الشديد بصورة خاصة (ضمن أمورٍ أخرى) على فكرة أن مصدر الخطأ الأساسي في النفس البشرية يكمن في القدرة على الفهم من الأساس، مما يؤدي إلى تحقير أو تفخيم أهمية الشيء، قال لي: "لكي تقيّم الأشياء بصورة صحيحة يجب ألّا تتورط في أي تأثيرٍ يقع عليك من خلال استيعابك الشامل لمفهوم حرية الرأي والمسافة التي تبعدك عن هذا الاستيعاب، ولكن في كل الأحوال هل تذكر كاتبًا واحدًا محسوبًا على الحكومة يشعر بأهمية مناقشة هذا الأمر؟"

توقف هنا لحظة وتوجه صوب حافظة كتب وجلب أحد الكتب الموجزة في التاريخ الطبيعي.. طلب مني استبدال مقاعدنا ليحصل على رؤيةٍ أفضل لكتابه، جلس على مقعدي أمام النافذة وفتح الكتاب، ثم استرسل في حديثه كما كان..

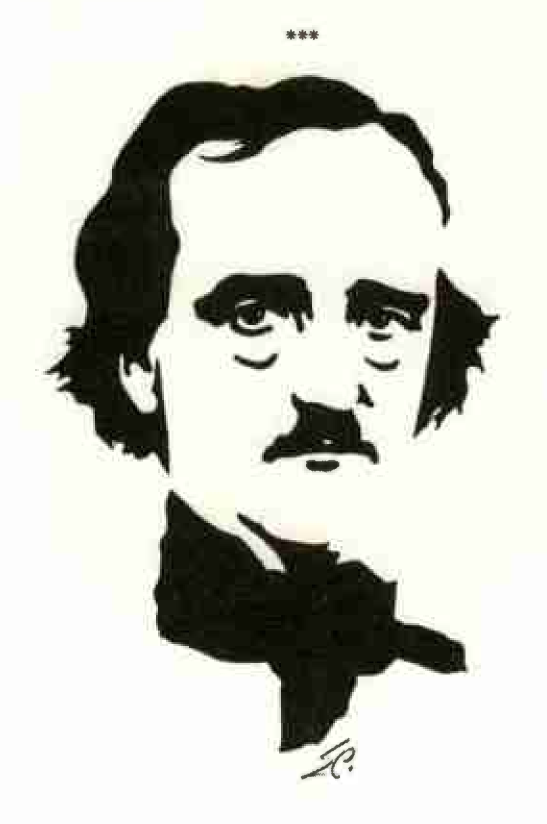
– أما بخصوص وصفك التفصيلي للوحش الذي رأيته، لم يكن بمقدوري أن أخبرك بماهيته، دعني أولًا أقرأ لك سردًا لطالبٍ مدرسي عن كائن "السفنكِس" من فصيلة الأسديات المنسدلة عن أسرة حرشفيات الأجنحة (الحشرات).. يقول السرد:

"لديه أربعة أجنحة غشائية مغطّاة بدرجاتٍ دقيقة معدنية الشكل، وفمه يختبأ خلف خرطومٍ ملفوف يخرج منه نابان هائلان، وعلى كلا الجانبين فكّان متدلّيان.. يرتفع الجناحان السفليان نحو الجناحين العلويين بفعل الهواء، والبطن مشدودٌ كبير.. لطالما كان

كائن السفنكِس مرتبطًا بالرعب، ربما نظرًا للصرخة الهائلة التي يطلقها، وربما بسبب وجه الموت الذي يضعه على صدره"

أغلق صديقي الكتاب ومال للأمام بنفس الوضع الذي كنت عليه وأنا أصف الوحش، ثم قال: "ها هو ذا يتسلق وجه التلة، هيئته مميزة جدًا، إلا أنه ليس كبيرًا ولا ضخمًا كما وصفت، الحق يُقال أنه يمد جسمه عندما يتسلق هذا الخيط الذي خاطه عنكبوت على وشاح النافذة، ليس إلا ستة عشر أو سبعة عشر بوصة على الأكثر.. كما أنه على بعد ستة عشر بوصة فقط منك"

***





حديث إيروس وكارميون

(1839)

"لأسلّطنّ عليكم النار"

– أندروماخي ليوربيديس

إيروس: لم تناديني بإيروس؟

كارميون: هذا اسمك من الآن فصاعدًا.. عليك أن تنسى اسمك الأرضي كذلك، وتناديني بكارميون.

إيروس: هذا ليس حلمًا بالقطع.

كارميون: فات أوان الأحلام، وحلت محلّها هذه الألغاز، يسعدني أن أراك محبًا للحياة وعقلاني. زالت الغمامة من عينيك. كن شجاعًا ولا تخشى شيئًا.. انتهت فترات غيبوبتك، وغدًا سآخذ بيدك إلى مسرّات وعجائب كيانك الجديد.

إيروس: بالفعل لا أشعر بغيبوبة، على الإطلاق.. انقشع عني الإعياء الشديد والظلمة الرهيبة، لم أعد أسمع ذلك الصوت الجنون المندفع الفظيع، وكأنه "صوت مياه كثيرة".. غير أن حواسي متحيّرة يا كارميون بحماسها لفهم الوضع الجديد.

كارميون: أيامٌ ويروح كل هذا، ولكني أفهمك تمامًا، وأحس بك.. فقد مرت عليّ عشرة أعوامٍ أرضية خضعت فيها لما تخضع له الآن، غير أن ذكراه مازالت عالقة بي.. ولكن ها قد انقضت كل آلامك التي ستتجرعها في عدن.

إيروس: عدن؟

كارميون: في عدن.

إيروس: أوه، ربّاه.. ياحسرتي، كارميون! فإنني مثقلٌ بعظمة كل المجهول الذي صرت أدركه الآن بشأن المستقبل المُنتظر في الحاضر المهيب المحتوم.

كارميون: لا تتصارع الآن مع أفكارٍ كهذه..سنتحدث غدًا عنها، فعقلك متذبذب، وسيجد ملاذًا من إثارته بممارسة ذكرياتٍ بسيطة.. لا تنظر حولك، ولا أمامك، بل انظر خلفك.. أحترق شوقًا لسماع تفاصيل ذلك الحدث الهائل الذي ألقى بك بيننا.. أخبرني عنه، دعنا نتحدث عن أمورٍ مألوفة، بلغة العالم المألوفة القديمة، العالم الذي هلك بصورةٍ مرعبة.

إيروس: بصورةٍ مرعبة! مرعبة! هذا ليس حلمًا بالقطع.

كارميون: فات أوان الأحلام، هل نُعيت كثيرًا يا إيروسي؟

إيروس: نُعيتِ يا كارميون؟ كثيرًا! حتى آخر ساعةٍ لنا كلنا، طمست حياتنا سحابةٌ كئيبة كثيفة، وسكن الحزن بيتك.

كارميون: تلك الساعة الأخيرة، حدثني عنها.. تذكّر أنني لا أذكر شيئًا بخلاف حقيقة الكارثة نفسها، فعندما خرجت من عالم البشر، مررت إلى عالم الظلام عبر برزخ القبر، وإذا أسعفتني ذاكرتي، فإن الكارثة التي ألّمت بك لم تكن متوقعة أبدًا، ولكنني بالطبع لا أعرف إلا القليل عن فلسفة النهار الفكرية.

إيروس: كانت كارثة غير متوقعة كما أسلفتِ، غير أن كوارث مماثلة كانت موضوع نقاش مع علماء الفلك، ولا أُخفيكِ سرًا يا صديقتي أنه حتى عند رحيلك كان الناس قد أجمعوا على الإيمان بأن النصوص التي جاءت في أكثر الكتب قداسة والتي تتحدث عن دمار كل شيءٍ بالنار كإشارةٍ لكوكب الأرض فقط، ولكن بقدر هذا

الحجم من الدمار، فإن تلك التوقعات بُنيت على خطأ أثناء تلك الفترة التي كانت علوم الفلك تقول فيها أن المذنبات عبارة عن كتلٍ غير نارية، كما توصل علماء الفلك إلى متوسطٍ دقيق لكثافة تلك الأجسام..

لوحظ أنها تمر بجوار أقمار المشترى بدون أن يحدث أي تغيير ملموس في كتلتها أو في مدارات تلك الكواكب الثانوية، طالما كنا نعتبر أن تلك الأجسام السيّارة عبارة عن كتلٍ بخارية رقيقة جدًا، كما أنها غير قادرة على إلحاق أي إصابة بعالمنا الكبير، حتى لو اتصلت بعالمنا فعلًا.. غير أن هذا الاتصال لم يكن مخيفًا أبدًا، لأن عناصر تلك المذنبات كانت معلومة بدقة.. لدرجة أننا بحثنا في قدرات تلك الأجسام التدميرية المخيفة، ووجدنا أن فكرة كهذه ليست مقبولة على الإطلاق، غير أن التخيلات والأوهام الشديدة، في الأيام الأخيرة، انتشرت بشدة بين الناس، ورغم أن القليلين فقط هم من أدركوا حقيقتها فور إعلان علماء الفلك ظهور مذنبٍ جديد، إلا أن هذا الإعلان قُوبل بكثير من الإثارة وعدم التصديق.

فُحصت عناصر المذنب على الفور، اعترف جميع الملاحظين في حينها بأن مروره بالحضيض الشمسي سيجعله قريبًا جدًا من الأرض.. كان هناك عالِمَيّ فضاء أو ثلاثة، ليسوا من المتميزين جدًا، أكدوا على أن الاتصال حتمي، لا تسعفني الكلمات للتعبير عن أثر هذه المعلومة على الناس، مرت أيامٌ قلائل لم يصدقوا أمرًا يصعب على عقولهم المنشغلة بأمورٍ دنيوية استيعابه.. ولكن الواقع المبني على حقائق فعلية ملموسة يفرض نفسه على أشد العقول تجمدًا، وأخيرًا.. اقتنع الناس بمسألة المذنب، وقعدوا منتظرين، لم يبد اقترابه سريعًا في البداية، حتى مظهره لم يكن غريبًا جدًا.. لونه أحمر باهت وله ذنبٌ واضحٌ قصير.. لسبعة أو ثمانية أيام لم نلحظ أي ازديادٍ مادي في قطره الواضح، ولكن لحظنا تغيُّرًا في لونه، وفي تلك الأثناء كانت أحوال الناس العادية محط تجاهل، فكل الاهتمامات منصبة على نقاشٍ متنام فلسفي عن طبيعة هذا الجرم، حتى أكثر الأغبياء

حماقةً وجهوا إمكانياقم المتواضعة نحوه، غير أن المثقفين لم يسلموا عقولهم – ولا أرواحهم – لأهدافٍ مثل قمدئة روع الناس، ولا حتى اختلاق نظريةٍ محببة لدى الناس.. ذهبوا إلى الآراء السليمة، نادوا من أجل علمٍ صحيح، فالحقيقة تستمد كيانها من صفاء قوهّا وأُبّهتِها المتزايدة، وعلى أصحاب الألباب حينها أن يطأطئوا لها الرؤوس ويعشقوها.

لم تدم توقعات تعرض عالمنا – أو سكّانه – للإصابة الفعلية من أثر اتصال المذنب بالأرض طويلًا، فعلى مدار الساعة كانت تفقد دقتها بين الحكماء، فقد أصبحوا الآن وبكل حرية يحكمون عقل وخيال العامة.. اتضح أن كثافة نواة المذنب كانت أقل بكثير من كثافة أندر الغازات لدينا، وأن مرور زائرٍ مسالم كهذا بين أقمار المشترى كان نقطة أصر الناس عليها، وهو ما ساعد كثيرًا في تمدئة روع الناس..

التف علماء الدين المشبعون بالخوف حول نبوءاقم التوراتية، فنقلوها للناس مباشرةً وببساطة لم يعدها أحد من قبل، قالوا أن هلاك هذا العالم النهائي حتمًا سيكون بالنار، وهو أمرٌ انتشر بهدف الإقناع في كل مكان، وأن المذنبات ليست أجسامًا نارية (كما كان يُصور للناس حينها)، وهي حقيقة أراحت الكل بشكل كبير من فكرة الهلاك بهذه الكارثة المتوقعة.. الجدير بالأخذ بالاعتبار أن فكرة الظلم المستشري والخطايا المجحفة تؤدي إلى انتشار الأوبئة والحروب، وهي فكرة كانت تنتشر دومًا مع كل مذنب يظهر، لم تجد لها مكانًا هذه المرة، وكأن الحقيقة – لسببٍ عسير مفاجئ – أسقطت الخرافات عن عروشها، استمدت أضعف العقول قوهّا من فرط الاهتمام.

تناول الناس المخاطر غير المؤذية التي قد تنتج عن هذا الاتصال بالفحص.. تحدث المثقفون عن بعض الاضطرابات الجيولوجية، والتغيرات المناخية المحتملة، وبالتالي عن الغطاء النباتي، والتأثيرات المغناطيسية والكهربائية المحتملة.. ذهب الكثيرون إلى أنه لن يحدث أي أثر مرئي أو ملموس بأي صورة، وبينما كانت تلك النقاشات دائرة كان

المذنب يقترب أكثر ويصبح قطره أكبر وضيّه أبرق.. شحبت وجوه الناس بوصوله.. توقفت كل الأنشطة الإنسانية.. وعندما وصل المذنب أخيرًا، اتضح للناس أن حجمه يتعدى كل التوقعات السابقة كثيرًا.. تخلى الناس الآن عن آمالهم في خطأ تقديرات علماء الفلك، والآن يعيشون الشر حقيقةً.. ذهبت كل أوهام الخوف، دقت قلوب أكثر شجعان جنسنا بعنف داخل صدورهم..

مرت أيامٌ معدودات فقط في حين صارت مشاعر الناس تلك لا تُحتمل، لم يعد هناك مجال لأي أفكارٍ تأويلية بشأن هذا الجسم، وكل التوقعات السابقة ذهبت أدراج الرياح، أغرقنا المذنب وسط مشاعرٍ جديدة قبيحة.. لم نعد نراه ظاهرة فلكية في السماء، بل روح شريرة تطبق على أنفاسنا، ظل يكسو عقولنا.. اتخذ المذنب بسرعةٍ مهولة صورة شعلة نارية هائلة تمتد من الأفق إلى الأفق.

ولكن جاء يوم تنفس فيه الناس بحريةٍ كبيرة.. اتضح أننا بالفعل تحت تأثير المذنب، ولكننا أحياء! حتى أننا شعرنا بمرونة وحيوية غير عاديتين في أجسامنا وعقولنا.. بدت رقة هذا الكائن الذي نخشاه المتزايدة واضحة: فمن خلاله صارت كل الأجرام السماوية واضحة لنا. وفي تلك الأثناء، تغير غطاؤنا النباتي تمامًا، وصرنا أكثر إيمانًا، بموجب هذا الظرف المتوقع، بآراء الحكماء. ظهرت فجأة زخارف نباتية لم نرها أبدًا من قبل على كل ما هو نباتي.

ولكن جاء يوم آخر لم يكن الشر فيه مطبقًا علينا بالكامل.. اتضح الآن أن نواته ستصلنا أولًا.. طرأ تغيُّر كبير على كل البشر، وأول شعورٍ بالألم كان إرهاصة كبيرة لكثير من الحزن والرعب، كان أول شعورٍ بالألم عبارة عن انقباض في الصدر والرئتين، وجفاف لا يُطاق في البشرة.. لا أحد ينكر أن الجو تأثر تمامًا، فصارت مواجهة هذا الجو والتغيرات المحتملة التي قد تطرؤ بموجبه موضوع الساعة.. سببت محصّلة هذا النقاش رعبًا كبيرًا أصاب قلوب الناس.

المتفق عليه منذ زمن طويل أن الهواء المحيط بنا يتكون من خليط من غازي الأوكسجين والنتيروجين؛ حيث يتواجد الأوكسجين بنسبة 21% والنيتروجين بنسبة 79% في الجو، كان الأوكسجين، وهو العامل الأول في الاشتعال ومولّد الحرارة، ضروريًا لحياة الكائنات، وهو أكثر عاملٍ قوة وحيوية في الطبيعة، أما النيتروجين فعلى النقيض تمامًا، فليس بقادر على توليد حياة الكائنات ولا النار، تأكد أن هناك زيادة غير طبيعية ستحدث في معدلات الأوكسجين في أقل زيادة في حياة الكائنات كما عهدنا مؤخرًا..

ولّد انتشار هذه الفكرة الكثير من الرعب، تُرى ماذا ستكون نتيجة اختفاء النيتروجين تمامًا؟ بالتأكيد اشتعال لا يُقاوم، مفترس، هائج، فوري، يقضي على ما في طريقه في الحال وبأبشع صور الهلاج التي رسمتها نبوءات الكتب السماوية.

لم تذكريني بما تبقى من البشرية الهالكة يا كارميون؟ تلك الرقة التي تأملنا فيها خيرًا في المذنب صارت الآن مصدرًا لمرارة اليأس، ففي كيانه الغازي غير المحسوس رأينا تحقق المصير، وفي تلك الأثناء مر يومٌ لاحق آخذًا معه آخر لفحة أمل.. لهثنا وسط تغير سريع في الهواء.. انحسر الدم بشدة في عروقنا الضيقة.. تلبّس الناس أجمعين هذيانٌ مجنون، وأذرعنا ارتفعت عن آخرها نحو السماء الشريرة التي ارتدعت وصرخت بشدة، ولكن نواة المذنب صارت فوقنا الآن.. أرتعد منها حتى وأنا هنا في عدن، دعيني أوجز بما أن الخراب قد عمّ، حينها ظهر ضوء برّاق وحيد يلمس كل الأشياء ويخترقها، دعينا نطأطئ الرأس يا كارميون في حضرة الرب العظيم! ثم صدر صراخ وصوتٌ عظيم.. جاء الصوت منه هو! حينها تفجّرت كتلة السماء الهائلة التي نسكن فيها وتحولت إلى كتلة لهب رهيبة لا يتخيلها العقل، واشتعلت نارٌ لا مثيل لها، حتى الملائكة في الجنان العالية ذات المعرفة الصافية لا تعرف لها وصفًا.. انتهى كل شيء!

***

شهرة السفهاء

(1835)



كنت ولازلت رجلًا عظيمًا، غير أنني لم أكتب عملًا كــ(جونيوس) ولا أنا الرجل المقنّع.. اسمي – على ما أعتقد – روبرت جونز، جئت إلى هذه الدنيا في مكانٍ ما من أرض الأحلام.

أول ما بدر مني منذ نعومة أظافري كان مقدرتي على الاستنثار بكلتا يديّ. رأت أمي ما أفعله فنعتتني بالعبقري، أما أبي فبكى من فرط فرحته وأهداني بحثًا في علم الأنوف. أتقنت هذا العلم حتى قبل أن أبلغ الحلم.

أما وقد تحسست طريقي في العلم، فهمت حينها أنه إن كان الرجل ذا أنفٍ بارز فإنه سيكون شهيرًا يومًا ما.. غير أن ما وصلت إليه من علم لم يكن قائمًا على نظرياتٍ فحسب، فكل يومٍ اعتدت جذب أنفي إلى الأمام، ثم أبتلع ستة أقراصٍ من الدواء.

وفي يومٍ من الأيام عندما بلغت الحُلُم؛ أجلسني أبي وسألني:

– يا بني، تُرى ما الغرض من حياتك؟

– دراسة علم الأنوف يا أبي.

– وما علم الأنوف يا روبرت؟

– إنه علم دراسة الأنوف يا سيدي.

– أتراك توضح لي معنى الأنف؟

جاء ردي بهدوءٍ بالغ:

- الأنف يا أبي له تعريفات مختلفة وضعها آلاف الكتّاب المختلفين.

حينها نظرت إلى ساعتي لأرى الوقت، ثم أردفت:

- النهار على وشك الانتصاف، لابد أن نتناقل بين تلك التعريفات في وقتٍ ما قرب منتصف الليل.. ولكن دعني أقول أن بارثولينوس عرّف الأنف بالنتوء الذي يخرج من..

قاطعني أبي قائلًا:

- حسنًا يا روبرت، لقد أبهرتني بكم المعلومات التي يذخر بها عقلك، فخور بك.

هنا أغلق عينيه ووضع يده على صدره ونادابي "تعالى"..

أمسك بذراعي وقال:

"قد انتهت فترة تعليمك الآن، ويجب أن تدافع عن ما تعلمته.. فقط اتبع أنفك"

دفعني من أعلى السلم وأخرجني من البيت قائلًا:

- اخرج من بيتي وليكن الله معك.

شعرت بوحيٍ إلهي بداخلي، واقتنعت بأن ما حدث مقدرٌ لي، سأسير حسب نصيحة أبي، سأتبع أنفي.. استنثرت مرة أو أكثر، ومن بعدها كتبت منشورًا في علم الأنوف.

هاجت أرض الأحلام وماجت جراء ما كتبت، فهذه جريدة علمية تصدر كل ثلاثة شهور تقول: "عالمٌ فذا!"، وهذه جريدة ويستمنستر تقول: "طبيبٌ محنّك!"، وهذه جريدة الفورين العلمية تقول: "زميلٌ بارع!"، وهذه جريدة إدنبره تقول: "كاتبٌ مُفوّه!"، وهذه جريدة دبلن تقول: "مفكرٌ لامع!" وهذه جريدة بنتلي تقول: "رجلٌ عظيم!"، وهذه جريدة فرازر تقول: "روحٌ سامية!"، وهذه جريدة بلاكوود تقول: "واحدٌ منا!"، وهذه السيدة المحترمة تتساءل: "تُرى من هو؟"، وهذه الآنسة المحترمة تتساءل: "تُرى ما هو؟"، وهذه الآنسة الصغيرة المحترمة تتساءل: "تُرى أين هو؟".

غير أنني لم أبدِ اهتمامًا لهؤلاء البتة.. دلفت إلى محل أحد الرسّامين لأجد حضرة الدوقة جالسة يصوّرها الرسّام، وأيضًا السيد النبيل يمسك كلبها أجعد الشعر، وكذلك جناب الإيرل يتغزّل في مفاتنها، وأخيرًا جلالته مائلًا نحو ظهر مقعدها.

اقتربت من الرسّام ورفعت أنفي، فهامت حضرتها: "ياللجمال!"، وتلعثم سيادته: "يا رباه!"، وتأوه جنابه: "أوه، قوية!"، ودمدم جلالته: "فظيع!".

سأل الرسّام: "كم تأخذ في مقابله؟"

صاحت حضرتها: "في مقابل أنفه؟"

فقلت بينما أجلس: "ألفًا"

سأل الرسّام متعجبًا: "ألفًا؟"

فرددت: "ألفًا"

أعقب الرسّام: "جميل!"

فأردفت: "ألفًا"

سألني بينما يحرك أنفي ناحية الضوء: "هل تشمله بضمانٍ ما؟"

استنثرت وقلت: "أجل"

سألني مجددًا بينما يتحسسه برفق: "هل أنفك أصلي؟"

حرّكت أنفي قليلًا وتنهّدت: "آآآه"

سألني مجددًا بينما يتفحصه بميكروسكوب: "ألم تعطِ أحدهم نسخة منه؟"

رفعت أنفي وقلت: "أبدًا"

قال: "عجيب!" وافتضح إعجابه بأنفي رغم مناورته السابقة.

قلت له: "ألفًا"

- ألفًا؟

- بالضبط.

- ألفًا؟

- بالضبط.

- يستحق، يا له من أنف!

حرّر لي شيكًا فورًا ورسم تصميمًا لأنفي.. دخلت بعض المحال الأخرى في شارع جيرمين وأرسلت لحضرتها الإصدار التاسع والتسعين من كتاب "علم الأنوف" مع رسم لأنفي، بعدها دعاني أمير ويلز الصغير الخليع إلى عشاء يحضره المشاهير والباحثون.

كان من بين الحضور مفكرٌ أفلاطوني أخذ يقتبس من مقولات بورفيري، أيامبليكوس،وبلوتينوس،وبروكلوس، وهيروكليس، وماكسيموس تيريوس، وسيريانوس، ورأيت مناديًا بكمال الإنسان يقتبس من مقولات تورجوت، وبرايس، وبريستلي، وكوندرسيت، ودي ستيل، وأيضًا الطالب الطموح ذي العلة، ورأيت متحذلقًا يؤمن بالتضاد على طول الخط يقول: "كل الحمقى فلاسفة، وكل الفلاسفة حمقى"، ورأيت مؤمنًا بالجمال والأخلاق يتحدث عن النار والوحدة والذرات، ويؤمن بالأرواح الثنائية والسابقة لأوانها، ويؤمن بالتقارب والتباعد، ويؤمن بالحدس ووحدة العناصر، ورأيت رجل دين يتحدث عن يوسيبيوس وأريانوس، ويتحدث أيضًا عن الهرطقات ومجلس النبلاء وحركة أوكسفورد الكنسية ووحدانية الرب، ورأيت الطبيب فريكاسي القادم من روشر دي كانكال يتحدث عن شتى الأطعمة مثل اللسان الأحمر، ثم القرنبيط المطهو بصوص البرتقال، واللحم البقري المطهو على طريقة القديس مينيهولت، وصوص القديس فلورنتين، وهلام البرتقال المزرقش.

كما رأيت السيد بيبولس أوبمبر الخبير بكل أنواع النبيذ، فأخذ ينتقل بين نبيذ اللاتور والماركبرونير والموسو والشامبرتين، ومنهم انتقل إلى الريتشبورج والقديس جورج، ثم إلى الهوبريون والليونفيل والميدوك، ومن بعدها إلى الباراك والبرينياك، ثم الجراف والسوترن واللافيت والقديس بيراي.. وعندما وصل إلى نبيذ الكلوز دي فوجو هزّ رأسه وأغلق عينيه وشرح الفرق بين الشيري والأمونتيلادو.

كما رأيت السنيور تينتونتنتينو القادم من فلورنسا، أخذ يتحدث عن أعمال كيمابو وأربينو وكارباشيو وأرجوستينو، ثم انتقل إلى إبداع كارافاجيو، ولطافة ألبانو، وألوان تيتيان، وكآبة روبنز، وخفة ظل جان ستين.

كما رأيت رئيس جامعة أرض الأحلام الذي رأى أن القمر اسمه "بينديس" في تراقيا، و"بوباستين" في مصر، و"ديان" في روما، و"أرتيميس" في اليونان.

كما رأيت أحد كبراء تركيا أتى من إسطنبول ويصر على أن الملائكة عبارة عن خيول وديوك وثيران، وأن أحدهم في السماء السادسة يمتلك سبعمائة ألف رأس، وأن الأرض تحرسها بقرة سماوية اللون ذات قرونٍ خضراء لا تُعد ولا تُحصى.

كما رأيت اللغوي ديلفينوس الذي شرح لنا تراجيديات أسخيلوس الثلاثة وثمانين، وخُطَب إسايوس الأربعة وخمسين، وأحاديث ليسياس الثلاثمائة وواحد وتسعين، وأبحاث ثيوفراستس المائة وثمانين، وكتاب أبولونيوس المخروطي الثامن، وترانيم بيندار وقصائده الحماسية، وتراجيديات هومر الصغير الخمسة وأربعين.

كما رأيت فيرديناند فيتز فوسيلوس فيلسبار، أخبرنا عن الاحتراق الكيميائي، والتكوينات الكيميائية الثلاثية، والأشكال الهوائية والسائلة والصلبة، وأحجار الكوارتز والطين، وأحجار الشست والشورل، وأحجار الجبس والصخور المصطبية، وأحجار التلك والأحجار الكلسية، وأحجار البلند والهورنبلند، وأحجار الميكا والبودنج،

وأحجار السيانيت والليبيدوليت،وأحجار الهيماتيت والتريموليت، وأحجار الأنتيمون والعقيق، وأحجار المنجنيز والأحجار الكريمة.

هنالك تحدثت عن نفسي، عن نفسي فقط، عن نفسي وحدها، وعن علم الأنوف، وعن منشوري، وعن نفسي مجددًا.. رفعت أنفي وتحدثت عن نفسي.

قال الأمير: "رجلٌ حاذقٌ مذهل!"

ثم قال المدعوون: "رائع!" وفي الصباح التالي زارتني حضرتها.. قالت: "هلا جئتني في فندق ألماك يا جميل الطلّة؟"

قلت: "هذا من دواعي شرفي"

فسألت: "وستجلب أنفك معك وكل شيء؟"

فرددت: "مادمت حيًا"

- هاك بطاقتي يا حياتي، هل أراك هناك؟

- من كل قلبي عزيزتي الدوقة.

- لا! إذن هل من كل أنفك؟

- بكل ما فيها يا حبيبتي.

لم ألبث طويلًا حتى وجدت نفسي في فندق ألماك، كانت الغرف مكتظة عن آخرها.

قال أحدهم على السلم: "إنه آت!"

قال أحدٌ ثان: "إنه آت!"

قال أحدٌ ثالث: "إنه آت!"

قالت الدوقة: "إنه هنا! إنه هنا الحبيب الغالي".. أخذتني في أحضانها بكلتا يديها ولثمت أنفي بقبلاتٍ كثيرة.. سمعت بعدها ضجة.

"شيطان!" صاح الكونت كابريكورنوتو.

"احفظنا يا الله!" همهم الدون ستيلتو.

"عليك اللعنة".. صرخ أمير جرينوال.

"شيطانٌ ماردا!" زمجر السيد العبيط.

قلت له: "سيدي، إنك لقردا!"

صمت برهة ورد: "سيدي، عليك اللعنة!"

لم أرد أكثر من هذا، تبادلنا البطاقات. وفي الصباح التالي توجهت إلى مزرعة خضراء، جدعت أنف السيد العبيط، ثم ناديت أصدقائي.

قال الأول: "بغيض!"

قال الثاني: "أحمق!"

قال الثالث: "أبله!"

قال الرابع: "غبي!"

قال الخامس: "مخنث!"

قال السادس: "حقير!"

قال السابع: "أغرب عن وجهي"

ملأني شعورٌ بالخزي، ولذا ناديت أبي.

– تُرى ما الغرض من حياتي يا أبي؟

– يا بني، مازال الغرض دراسة علم الأنوف، ولكن بجدعك أنف السيد العبيط فقدت مكانتك.. صحيح أنك تتميز عليه بأنفٍ جميل، ولكن السيد العبيط لم يعد يملك أنفًا من الأساس، فصرت أنت الظالم وهو المظلوم البطل.. أؤكد لك أنه في أرض الأحلام يُميِّز الرجل على من دونه بحجم أنفه، ولكن لا منافسة مع رجلٍ جُدِع أنفه.

***

شيطان برج الجرس

(1839)

"كم الساعة الآن؟"

– قولٌ قديم

يعلم الجميع عمومًا أن أفضل مكانٍ في العالم هو – أو كان للأسف – بلدة اسمها "كمساعة".. غير أنه نظرًا لبعدها بعض الشيئ عن الطرق الرئيسة، مما يجعلها في موقعٍ خارج النطاق، فإنه ربما قليل جدًا من قرّائي زاروها بالفعل، ولأجل من لم يفعل قط؛ فإنه بناءً على هذا سيكون مناسبًا فقط أن أذكر بعضًا منها.. والأهم هنا، وبغية تجييش التعاطف العام بالنيابة عن السكّان، فإنني أسرد هنا تاريخ الأحداث الكارثية التي وقعت مؤخرًا في تلك البلدة، لا أحد يعرفني سيشك في أنني سأبذل قصارى جهدي – الذاتي – وبكل نزاهة مخلصة في سرد الحقائق بمنتهى الحرص، وبكل الدلائل الصادقة التي يتميز بها من يسعى إلى أن يكون مؤرخًا.

بمقدوري أن أقول، بمساعدة الأنواط والمخطوطات والنقوش الموحدة، وبشكلٍ لا يقبل الجدل، إن بلدة "كمساعة" وُجدت، من أصلها، على نفس الحال التي تحتفظ بها إلى الآن.. وعن تاريخ هذا الأصل، فإنه يحزنني أنني أتكلم فقط بناءً على أمورٍ غير ثابتة أُجبر علماء الرياضيات أحيانًا على وضعها في معادلاتٍ جبرية محددة.. ومن ثَمَّ أقول أن تاريخ البلدة، وبناءً على قِدمها الكبير، ليس صحيحًا أن يُقاس بأقل من المقاييس المعقولة بأي شكل.

أما عن أصل كلمة "كمساعة"، فإنني يحزنني أن أعترف شخصيًا بأنني كنت محتطًا حياله، فبين عديد الآراء في هذه النقطة الدقيقة – بعضها حاد وبعضها مطّلع وبعضها العكس تمامًا – فإنني لا أميل إلى رأيٍ قد يبدو مرضيًا، ربما فكرة "جروسويج" – المتزامنة تقريبًا مع "كروتابلنتي" – هي المفضلة، بحرص، بالنسبة إلي تقول هذه الفكرة أن الأصل عائدٌ إلى مقولة: "كمساعة مأخوذة من كلمة تشبه في معناها الومضات الكهربائية- بسرعة الضوء"، والحق يُقال أن هذه المقولة تؤيدها بعض مسحات السوائل المكهربة الواضحة في قمة برج مبنى مجلس المدينة، غير أنني لا أرغب في أن أكون ملزمًا بموضوعٍ على هذا القدر من الأهمية، ويجب أن ألفت عناية القرّاء الراغبين في المزيد من المعلومات إلى "نقاشات داندرهيد البسيطة في الأمور العتيقة" وأيضًا "كتاب الأصول" ص27–5010، الإصدار القوطي بحروفه الحمراء والسوداء، الكلمة الأخيرة، بدون حروفٍ رمزية، وأيضًا حواشي توقيع "ستافاندباف" وتعليقات "جرونتوندجوزيل".

وبعيدًا عن الغموض الذي يكتنف تاريخ تأسيس البلدة وأصل أسمها، فلا شك هناك، كما قلت من قبل، فإن البلدة طالما وُجدت كما ستجدوها في هذا الزمان.. إن أكبر رجال البلدة سنًا لا يذكر أدنى فرق في هيئة أي جزءٍ منها، وبالطبع فإن مجرد اقتراح هذه الاحتمالية هو إهانة في حد ذاته. تقع القرية في وادٍ دائري بالكامل، قطره ربع ميل تقريبًا، ومُحاطة بتلالٍ وديعة لم يحاول الناس الوصول إلى قمتها أبدًا بعد، هذا لأنهم يؤمنون أن لا شيء هناك على الجانب الآخر على الإطلاق.

على مشارف الوادي (المستوية أرضه إلى حدٍ كبير والمُمهدة بالكامل بقراميد مسطحة) يمتد صفٌ متواصل من ستين بيتًا صغيرًا.. ولأن خلفيات تلك البيوت تطل على التلال، فإن مقدماتها تطل بالطبع على منتصف الوادي الذي لا يبعد أكثر من ستين ياردة من الباب الأمامي لكل مسكن.

أمام كل بيت حديقة صغيرة ذات ممرٍ دائري وساعة شمسية، وأربع وعشرون ثمرة كرنب.. المباني نفسها متشابهة بدقة كبيرة، بحيث لا يمكن لأحد تمييز مبنى عن آخر، ونظرًا لقدمها الكبير؛ فإن طرازها المعماري غريب بعض الشيء، ولكن ليس هذا سبب كونها أقل روعة بصورة لافتة للنظر.. فالبيوت مبنية من قوالب صغيرة مصقولة حمراء ذات نهاياتٍ سوداء، بحيث تبدو الجدران وكأنها لوحة شطرنج عظيمة.. في الأمام ترى الجملونات، وكذلك الكورنيشات كلها كبيرة بحجم البيت فوق المرازيب والطرق الرئيسة.. النوافذ ضيقة وعميقة ذات ألواحٍ زجاجيةٍ دقيقة جدًا وأوشحة كثيرة، فوق السطوح تجد عددًا هائلًا من القراميد ذات الآذان الطويلة المعقوصة، أما الأخشاب فتتميز بمسحةٍ داكنة، بكاملها، وكثير من النقوش ذات الأنماط المشتتة، وهيئة طاعنة في القِدم.. لم يقدر نقّاشو البلدة على نقش أكثر من شكلين؛ الساعة وثمرة الكرنب.. غير أنهم كانوا بارعين فيهما، فكانوا يرصّعونهما بأصالةٍ لا مثيل لها، مستخدمين الأزاميل بقدر الإمكان.

البيوت متشابهة من داخلها تمامًا كما هو الحال من خارجها، وقطع الأثاث كلها متماثلة، الأرضيات مكونة من قراميد مربعة، والمقاعد والطاولات من خشبٍ أسود الشكل وذات أرجلٍ نحيلة معوجّة وأقدامها تشبه أقدام الجراء.. أرفف المواقد واسعة ومرتفعة، وليست منقوشة فقط بأشكال الساعات الشمسية وثمار الكرنب في عليتها، ولكن تعلوها من المنتصف ساعة شمسية حقيقية ذات دقات مدهشة، وكذلك مزهرية بها ثمرتي كرنب كل واحدة على أقصى الطرف بحيث يمر خطٌ من بينهما وبين كل ثمرة وساعةٍ شمسية، أيضًا يقف تمثال رجلٌ صيني عظيم الكِرش والصرّة التي تحمل قرص الساعة.

الموقد كبيرٌ وعميق، له مساند شديدة معوجة الشكل. النار دومًا متقدة، ومن فوقها إناءٌ عظيم مليء بالكرنب المخلل ولحم الخنزير طالما انشغلت سيدة المنزل الطيبة بالعناية به، وهي امرأة عجوز قصيرة سمينة ذات عينين زرقاوتين ووجه أحمر، ترتدي قبعة

ضخمة، تشبه رغيف السكّر، مزدانة بأشرطةٍ أرجوانية وصفراء.. فستانها برتقالي من الكتّان والصوف، مستور تمامًا من الخلف وقصير جدًا عند الوسط، وطبعًا قصير جدًا في أماكن أخرى، لا يكاد يصل إلى ما تحت ركبتيها. رجلاها ممتلئتان، وكذلك كاحلاها، غير أنها تغطيهما بجوارب خضراء أنيقة، حذاؤها جلدي زهري اللون تعلوه أربطة صفراء مضبوطة على شكل ثمرة كرنب، وعلى يدها اليسرى تلتف ساعة هولندية صغيرة ثقيلة، واليد اليمنى تمسك بمغرفة للكرنب المخلل ولحم الخنزير.. يقف بجانبها قط مبرقع سمين ذو لعبة ذهبية مربوطة بذيله، ربطها "الأطفال" بذيل القط على سبيل التجربة.

الأطفال أنفسهم الثلاثة في الحديقة يراقبون الخنزير، طول كل منهم قدمان، يرتدون قبعاتٍ ذات أطرافٍ ثلاثية معوجّة، وصدريات أرجوانية تصل إلى أفخاذهم، وبناطيل من جلود الغزال، وجوارب حمراء، وأحذية ثقيلة ذات أبازيم فضية كبيرة، ومعاطف علوية طويلة بأزرارٍ ضخمة من عِرق اللؤلؤ.. يضع كلّ منهم غليونًا في فمه وساعة كبيرة قصيرة في يده اليمنى، يأخذ كلّ منهم نفسًا وينظر، ثم ينظر ويأخذ نفسًا، أما الخنزير السمين الكسول،فمنشغل الآن بالأوراق الضالة الساقطة من ثمار الكرنب، ثم يرفس برجله إلى الخلف نحو اللعبة التي وضعها ربطها الأطفال أيضًا في ذيله ليبدو وسيمًا كالقط.

وعند الباب الأمامي بالضبط؛ وعلى مقعدٍ ذي ظهرٍ كبير وذراعين مغطيين بالجلد وأرجلٍ معوجّة وأقدامٍ كأقدام الكلاب كالمنضدة، يجلس رجل عجوز، صاحب البيت بنفسه.. وهو رجلٌ محترمٌ عجوزٌ قصيرٌ سمينٌ جدًا ذو عينين دائرتين كبيرتين وذقن مزدوج عظيم.. يشبه رداؤه ما يرتديه الأطفال، ولا حاجة هناك لأقول أكثر من هذا، الفارق الوحيد هو أن غليونه أكبر بعض الشيء ودخانه أكثر، يملك الرجل ساعة مثلهم، ولكنه يضعها في جيبه.. الحق يُقال أنه مهتم بشيءٍ آخر أهم من الساعة، وهو ما سأوضحه.. يجلس الرجل واضعًا رجله اليمنى فوق ركبته اليسرى، ترتسم على

وجهه ملامح صارمة، ويجعل عينًا واحدة ترتكز دائمًا على شيءٍ ما بارز في منتصف المكان.

يظهر هذا الشيء في برج مبنى مجلس المدينة.. أعضاء مجلس المدينة كلهم رجال أذكياء ذوي أجسامٍ ضئيلة مستديرة، زيتيةٍ جدًا، كما أن أعينهم دائرية وذقونهم مزدوجة ضخمة، ومعاطفهم أطول بكثير، وأبازيم أحذيتهم أكبر بكثير من أبازيم أحذية بقية سكّان البلدة.. ومنذ إقامتي الوجيزة في البلدة، عقد الرجال عدة اجتماعاتٍ خاصة، وأصدروا ثلاثة قراراتٍ مهمة:

القرار الأول: "ليس من الصحيح تغيير المسار القديم الجيد للأمور"

القرار الثاني: "لا شيء جيد هناك خارج حدود البلدة."

القرار الثالث: "نحن ملتزمون بساعاتنا وثمار الكرنب لدينا"

يعلو قاعة اجتماع المجلس برج المبنى، وبداخل البرج يقبع الجرس الذي يعود عمره إلى سنين غير معدودة، وكذلك فخر وأعجوبة البلدة؛ ساعة بلدة " كمساعة" العظيمة.. ذلك هو الشيء الذي تستقر عليه أنظار المحترم العجوز الجالس على مقعده ذي الذراعين الجلديين.

للساعة العظيمة سبعة وجوه؛ كل وجه في جانب من جوانب البرج السبعة، ولذا يمكن رؤيتها من كل اتجاه، وجوهه كبيرة وبيضاء، وأيديه ثقيلة وسوداء.. كما يوجد حارس لبرج الجرس، مهمته الوحيدة حراسته، ولكنها وظيفة معطّلة، حيث لم تتعرض ساعة البلدة لأي أمرٍ يتطلب العناية حتى الآن، وحتى وقتٍ قريب كان مجرد التفكير في أمرٍ كهذا ضرب من ضروب الهرطقة، فمنذ أقدم الأزمنة التي يسردها الأرشيف طالما كان الجرس الكبير يدق الساعات بانتظام، وكذلك بالطبع كان الوضع تمامًا بالنسبة لبقية الساعات في البلدة، لم يكن ثمة مكان يقول الوقت الحقيقي.. عندما كان لسان الجرس يقول "الساعة الثانية عشر" كان كل تابعيه المطيعين يفتحون أفواههم فورًا

ويرددون خلفه وكأنهم صدى لنفس الصوت.. باختصار؛ صحيحٌ أن المواطنين الصالحين كانوا مغرمين بالكرنب المخلل، ولكنهم كانوا فخورين بساعاتهم.

كل من كان يشغل وظيفةٍ معطلة كان يُعامل باحترامٍ أكبر أو أقل، أما حارس برج الجرس كان أكثر موظفٍ عاطل، وكان أكثر المحترمين في العالم، وهو صاحب أكبر مقامٍ رفيع في البلدة، وحتى الخنازير نفسها كانت تنظر له بمهابة.. كان ذيل معطفه طويلًا جدًا، وكذلك غليونه وأبازيم حذائه وعينيه وكرشه، كانوا أكبر من أي رجلٍ آخر في البلدة، وأما عن ذقنه، فلم تكن مزدوجة.. بل ثلاثية.

والآن وبعدما رسمت الصورة السعيدة لبلدة "كمساعة"، سينقلب الحال إلى النقيض للأسف.

طالما كان سكّان البلدة الحكماء يقولون: "لا خير يأتي من فوق التلال" ويبدو فعلًا أن الكلمات كانت تحمل بين طيّاتها روح نبوءة.. قبل خمس دقائق من انتصاف نهار أول أمس، ظهر كيانٌ غريبٌ جدًا على قمة التلال الشرقية! شغل هذا الظهور بال الجميع بالطبع، ووجّه كل رجلٍ محترمٍ عجوزٍ قصير يجلس على مقعدٍ ذي يدين من الجلد أحد عينيه في نظرة فزع إلى تلك الظاهرة، بينما تبقى العين الأخرى ناظرة إلى الساعة في البرج.

وبعد مرور دقيقتين، اتضح أن الكيان المضحك المقصود هو شابٌ مصغرٌ جدًا يبدو أجنبيًا.. هبط من التلال بسرعةٍ كبيرة حتى أصبح للكل واضحًا للعيان، كان أصغر وأقصر كائن يُرى في البلدة، كان لونه أسودًا غطيسًا، وله أنفٌ معقوفٌ طويل، عيناه كانتا كحبتي بازلاء، وفمه واسع، وأسنانه مصطفة تمامًا، بدا خائفًا من إظهار أسنانه، ارتسمت ابتسامته من الأذن إلى الأذن، وبخلاف شواربه وسوالفه لم يظهر شيءٌ آخر من وجهه.. كان رأسه عاريًا، وشعره مجعّدًا بعناية.. كان يرتدي معطفًا ضيقًا ذا ذيلٍ قصير (تدلى من أحد جيوبه منديلٌ أبيضٌ طويل)، وبنطالًا كشميريًا، وجوارب سوداء،

وأخفاف مدببة، وأشرطة سوداء ضخمة من الساتان معقودة.. حمل تحت ذراعه قبعة مقببة ضخمة، وعلى الناحية الأخرى كمان أكبر منه خمس مرات تقريبًا. كان في يده اليسرى صندوقٌ ذهبيٌ مكتسٍ بالسواد، وثب به هبوطًا من التلال، وقطع به كل خطواته الرائعة، شمّه بأكبر قدرٍ من إرضاء الذات.. رحماك! كان منظرًا لكل سكان البلدة.

ولأحدثكم بصراحة، فعلى الرغم من ابتسامته، كان لصاحبنا وجهٌ دميمٌ شرير، وعندما دلف مباشرةً إلى البلدة، أثارت أخفافه المدببة شكوك الكثيرين، كما أن الكثيرين من أهل البلدة أمعنوا النظر إلى منديله المتدلي بوضوح من جيب معطفه ذي الذيل القصير، ولكن أكثر ما أثار سخط الحضور كان غروره الحقير، فبينما كان يلهو هنا ويلعب هناك لم يكترث بوقع خطواته.

وبرغم ذلك، بالكاد أبقى سكّان البلدة أعينهم مفتوحة قبل نصف دقيقة من الظهيرة عندما وثب النذل، كما قلت، إلى وسطهم. أخذ يقفز هنا ويتأرجح هناك، ومن ثم، بعد أن رقص وحده، فرد ذراعيه كالحمامة نحو برج مجلس المدينة، حيث بقى حارس البرج مدهوشًا يدخن في حالةٍ من الشلل والفزع، غير أن الشاب القصير أمسك أنفه ولواه وجذبه، ثم وضع القبعة على رأسه حتى أمالها على عينيه وفمه، ثم رفع كمانه الكبير وضربه به بقوة وصرامة جدًا لدرجة أنه من فرط سمنة الحارس وشغور الكمان؛ قد تُقسم بأنك سمعت لحنًا يقوده طبّالان يضربان على وشم الشيطان في برج جرس البلدة.

لا أعرف مدى الحنق الذي خلقته تلك الضربة غير المتوقعة في نفوس أهل البلدة، ولكن الحقيقة المهمة أنه لم يتبق على الظهيرة إلى نصف ثانية.. الجرس على وشك الانطلاق، ومن الضروري جدًا أن ينظر الجميع إلى ساعاتهم جيدًا، وعلى الرغم من ذلك، اتضح أن صاحبنا كان يفعل شيئًا ما في البرج لا علاقة له بالساعة، ولكن عندما

ضرب الجرس لم ينتبه أحدهم إلى تصرفات الشاب، فالكل منشغل بحساب عدد دقّات الجرس.

الجرس: واحد!

"فاحد".. هكذا سُمع صوت كل رجلٍ عجوز قصير يجلس على مقعدٍ ذي يدين من الجلد في البلدة.

"فاحد".. هكذا قالت الساعة في يديه أيضًا. "فاحد"..

هكذا قالت الساعة على حائط بيته أيضًا.

"فاحد".. وهكذا قال الساعات في أيدي الأطفال، وكذلك اللعب المعلقة في ذيلي القطة والخنزير.

الجرس: اثنان!

"إثفان".. هكذا كرّر كل المكررين.

الجرس: ثلاثة! أربعة! خمسة! ستة! سبعة! ثمانية! تسعة! عشرة!

"فلاثة! أربحة! خمشة! شتة! شبحة! فمانية! تشحة! حشرة!".. هكذا أجاب الآخرون.

الجرس: أحد عشر!

"أحد حشر!".. هكذا كرّرت الساعات الصغيرة.

الجرس: اثنا عشر!

"اثنا حشر!".. هكذا كرّروا بمنتهى الرضا، وبصوتٍ خفيض.

"إنها الثانية حشر إذًا!".. قال كل الرجال المحترمين القصيرين، بينما يضعون ساعاتهم.. غير أن الجرس لم ينتهِ من أمرهم بعد.

الجرس: ثلاثة عشر!

"الشيطان!"..لهث الرجال المحترمون القصيرون، وبهتت وجوههم، وسقط الغليون من أفواههم، وأنزلوا أرجلهم اليمنى من فوق ركبهم اليسرى.

"الشيطان!".. زمجروا.. "فلافة حشر! فلافة حشر! يا رباه! إنها الفالفة حشر!"

تُرى لِمَ أصف هذا المنظر البشع؟ هذا لأن كل سكّان البلدة انخرطوا في حالةٍ من الصخب المؤسف.

"ما الذي حدث لبطوننا؟".. زمجر كل الأولاد.. "نحن جوحى الآن!"

"ما الذي حدث لثمار الكرنب؟".. صرخت كل ساعات الحائط.. "الأمر أشبه بمزحة!"

"ما الذي حدث لغليوننا؟"..

صاح كل الرجل المحترمين القصيرين..

"اللعنة! انتهوا جميعًا هذه الساعة!"

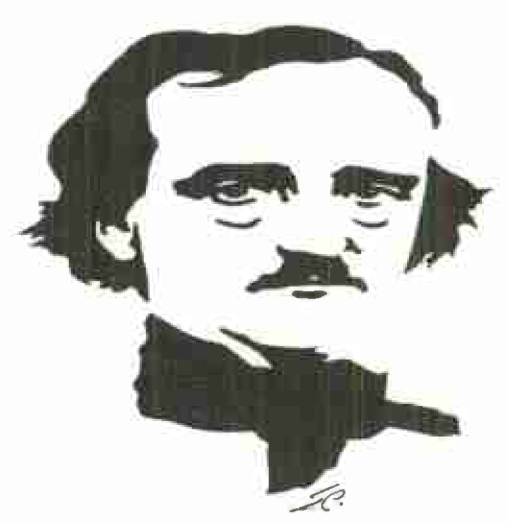
ثم ملأوا غليونهم من جديد بغضبٍ شديد، وغاصوا ثانيةً في مقاعدهم.. دخّنوا الغليون سريعًا وبحنق شديد حتى امتلأت أجواء البلدة بالكامل في الحال بدخانٍ منيع.

وفي تلك الأثناء احمرّت ثمار الكرنب كلها بشدة وكأن الشيطان نفسه استحوذ على كل شيئ على هيئة ساعة، أخذت الساعات المحفورة على قطع الأثاث بالرقص وكأن شيطانًا ما قد تلبّسها، أما الساعات على رفوف المواقد فبالكاد تمالكت نفسها من الغضب، وظلت تدق الثالثة عشر، ودقّات البندول المرعبة المخيفة لم تتوقف، ولكن

الأدهى من ذلك أن القطط والخنازير لم تعد قادرة على تحمل تلك اللعب المربوطة بأذيالها وأخذت تركض فرارًا في كل مكان، تخربش وتنكز، وتصرخ وتعوي، وتنعب وتزعق، وتقفز على وجوه الناس، وتهرب أسفل معاطف الناس، وتصنع سويًا أكبر ضجةٍ مزعجة ولغطٍ قد يستوعبه المرء يومًا.. ولكي تصبح الأمور أدهى وأمرّ، كان الشيطان النذل الحقير الصغير في البرج يستعد للأسوأ، فبين الفينة والأخرى بإمكان أحدهم استراق لمحة من ذلك الوغد عبر الدخان، كان يجلس في البرج فوق الحارس الذي استلقى تمامًا على ظهره.. أمسك الوغد حبل الجرس بأسنانه وأخذ يهزه برأسه، ارتفع صوت الجلجلة حتى ملأ صداه الآذان.. وضع كمانه الذي كان يلعب به بكلتا يديه وعزف عزفًا مهيبًا لـ"جودي أوفلاناجان وبادي أورافرتي".

صار الوضع بائسًا، تركت المكان مشمئزًا، والآن ألتمس مساعدة محبي الوقت السليم والكرنب المخلل اللذيذ.. دعونا نمضي قدمًا في البلدة ونستعيد الوضع القديم في "كمساعة" بطرد صاحبنا الحقير هذا من البرج.

***



اللـقـاء

(1843)



"انتظريني هناك! لن أفوِّت لقائك في ذلك الوادي السحيق"

– رثاء هنرى كينج، أسقف تشستر، في زوجته

أيها الرجل المشئوم والمكتنف بالأسرار! أيها الحائر في خيالاتك، والأسير للهيب شبابك! أراك في خيالي مرةً أخرى! من جديد يظهر كيانك أمامي! أوه! ولكن ليس كما أنت، في الوادي البارد والظلال، بل كما يجب أن تكون، تخلق حياةً من التأمل البديع وسط مدينةٍ ظلامية – فينيسيا حبيبتك، فردوس البحر، ذات النوافذ الواسعة الطالة على قصور بالاديان بمعانٍ دقيقة مريرة بأسرار مياهها الصامتة، نعم.. أكرر قولي، كما يجب أن تكون، بالتأكيد هناك عوالم أخرى بخلاف تأملات السوفسطائي، فمن ذا الذي يعترض على سلوكك؟ ومن ذا الذي يلومك على ساعات رؤياك، أو ينكر تلك المشاغل بكونها مضيعة للحياة التي هي محض طاقاتك الأبدية؟

لقد كان في فينيسيا، تحت قنطرة تُدعى "جسر التنهيدات"، حينما قابلت ذلك الشخص الذي أتحدث عنه للمرة الثالثة أو الرابعة. أتذكر ملابسات ذلك اللقاء، ولكن بذاكرةٍ مشوشة، غير أنني أتذكر ــ أوه! كيف لي أن أنسى؟ منتصف الليل الداكن، وجسر التنهيدات، وجمال المرأة، وروح العشق التي تمشّت بطول القناة الضيقة.

كانت ليلة ظلماء جدًا.. أشارت ساعة بياتزا الهائلة إلى الرابعة من الليل الإيطالي، يكتنف الصمت والوحشة ميدان كامبيل، تنحسر أضواء القصر الدوقي سريعًا.. كنت

حينها عائدًا إلى بيتي من البياتزا آخذًا طريق القناة العظيمة، ولكن عندما وصل زورقي إلى الجهة المقابلة من مدخل قناة سان ماركو انبثق من أعماق القناة صوت امرأة شق الليل فجأةً معلنًا عن صرخةٍ عنيفةٍ جنونيةٍ ممتدة، وقفت على قدمٍ منتفضًا خائفًا من الصوت، كما انزلق مجداف قائد الزورق الوحيد وضاع في الظلام الداكن ولا سبيل هناك لاستعادته، وعليه تركنا للتيار الذي يدفعنا في تلك البقعة من القناة الكبرى إلى الصغرى، ومثل نسرٍ ضخم أسود الريش، انحرفنا بتؤدة نحو جسر التنهيدات، حينها أومض ألف مشعلٍ من نافذة القصر الدوقي بطول سلالمه، فصارت تلك الظلمة الموحشة نهارًا شاحبًا غريبًا.

سقط طفل انفلت من ذراعي أمه من نافذةٍ علوية في ذلك المبنى السامد إلى القناة العميقة المظلمة، ابتلعت المياه الهادئة ضحيتها بهدوء، ورغم أن زورقي كان الشيئ الوحيد الذي تبصره العيون، كان هناك عدد من السبّاحين الشجعان قفزوا إلى القناة يبحثون بغير هدى على السطح، يبحثون عن الكنز،ولكن للأسف! في الهاوية..فوق اللوح الحجري الرخامي الأسود العريض عند مدخل القصر، وعلى بعد خطواتٍ معدوداتٍ من المياه، وقف شخص لن ينساه من رآه حينها قط.. كان هذا الشخص هو الماركيزة أفروديت، أثيرة فينيسيا كلها، صاحبة السعادة، تفوق الجمال جمالًا، ورغم هذا فإنها زوجة مينتوني العجوز المخادع الشابة، إنها أم ذلك الطفل الجميل الأول والوحيد الذي كان يفكر - بمرارة - وهو يرقد الآن عميقًا تحت المياه المظلمة، في معانقتها الحلوة، ويبذل حياته القصيرة مصارعًا لمناداة اسمها.

وقفت وحيدة، لمعت قدماها الصغيرتان العاريتان على المرآة الرخامية الداكنة أسفل منها، كان شعرها الذي لم تكن قد حلّته بعد بالكامل من تصفيفة المساء التي حضرت بها حفلًا راقصًا، يلتف حول رأسها الرائع في ربطاتٍ كطيّات زهرة الياقوت النضرة بين كثيرٍ من الماسات، كانت ترتدي لباسًا فضفاضًا ثلجي اللون شفافًا، ويبدو أنه الغطاء

الوحيد تقريبًا فوق جسدها الرقيق، إلا أن هواء منتصف الصيف وكذا منتصف الليل حارًا خامدًا ساكنًا، فلم يبدِ الجسد التمثالي حركةً تحرّك حتى طيّات ذلك الغلاف الضبابي الذي كان يغلفها كما يغلّف الرخام الثقيل نيوبي، ومع ذلك – وهو أمرٌ غريب – فإن عينيها الواسعتين اللامعتين لم تتجها إلى الأسفل نحو القبر الذي يضم أملها الأزهى، بل كانتا منصبتين كليةً بانتباهٍ على اتجاهٍ مخالفٍ تمامًا، أرى أن سجن الجمهورية القديمة هو أفخم مباني فينيسيا، ولكن كيف يتأتى لتلك المرأة أن ينصب نظرها بثباتٍ كبيرٍ عليه وابنها يختنق أسفل منها؟ وفي الجهة المقابلة تمامًا لنافذة غرفتها تلاعبت مشكاة معتمة مظلمة، تُرى ماذا يوجد في ظلاله، في هندسته المعمارية، في كورنيشه العظيم المكسو بالعرائش، ألم تتأمل الماركيزة دي مينتوني ذلك المنظر آلاف المرات من قبل؟ محض هراء! من ذا الذي لا يذكر أنه في أوقاتٍ مماثلة تزيد العين، كالمرآة المكسورة، صور أحزانها، وترى في أماكن كثيبة لا تُعد الكارثة المقبلة عليها؟

أعلى الماركيزة بعدة سلالم، وداخل إطار قنطرة البوابة المائية، وقف مينتوني نفسه مرتديًا ملابسه الكاملة، يشبه الإله الإغريقي "ساطير". كان أحيانًا ما يشغل نفسه بملاعبة أوتار الجيتار، بدا ضجرًا إلى حد الموت، غير أنه على فتراتٍ كان يعطي توجيهات لاستعادة ابنه، أنا شخصيًا كنت مصدومًا مشدوهًا، لم أقدر على تحريك جسدي الواقف منذ أن سمعت الصرخة في البداية، ولا شك في أنني بدوت في أعين الجميع الثائر كطيفٍ مشئوم، بينما ظللت طائفًا في زورقي الحزين بينهم تكسو ملامحي الشحوبة وأطرافي البرودة.

باءت كل الجهود بالفشل.. خفف أكثر الباحثين عن الطفل طاقةً – وهم كثر – من محاولاتهم واستسلموا ليأسهم المشئوم. لم يعد هناك إلا أملٌ ضعيفٌ للطفل (وأضعف بكثير من جانب الأم)، ولكن من لحظتها ومن تلك المشكاة المظلمة التي قلت مسبقًا أنها تشكل جزءًا من سجن الجمهورية القديمة وتقف أمام نافذة الماركيزة، ظهر شخصٌ

يرتدي معطفًا فجأة في دائرة الضوء، توقف الشخص لحظةً على حافة البيت السامدة، ثم غطس رأسًا في القناة، وفي ثانيةٍ واحدة كان واقفًا على اللوح الرخامي العريض إلى جانب الماركيزة والطفل الحي في أحضانه يتنفس..

انفكّ معطف الشخص الغارق بالمياه، فكشف بطيّاته ساقطًا حول قدميه للمشاهدين المشدوهين عن جسدٍ رشيقٍ للشاب الذي طالما ذاع صيته في معظم أنحاء أوروبا حينها.

لم ينبس الشاب المنقذ ببنت شفة.. ولكن الماركيزة التي من المفترض أن تتلقّف طفلها وتضمه إلى صدرها، ثم تتشبث بجسده الضئيل وتغرقه بقبلاتها، تلك الماركيزة سبقت ذراعيها ذراعان آخران، أخذاه بعيدًا إلى القصر دون أن يلاحظ أحدهم ما حدث.. ارتعدت شفتا الأم الجميلتان، وتجمّعت الدموع في مقلتيها، تلك المقلتان اللقتان التي ينطبق عليهما وصف بليني لنبتة الشوك حيث قال "ناعمتان ورطبتان".. أجل! تجمّعت الدموع في تلك المقلتين، وانظر إلى المرأة.. ترتجف مرتعدة، وفي التمثال دبّت الحياة! دبت الحياة في ملامحه الرخامية الشاحبة، في صدره الرخامي المنتفخ، في قدميه الرخاميتين النقيتين. اجتاحت الروح كل هذا بفيضانٍ من الحمرة الجامحة، وانتابت المرأة الخجولة رعشة طفيفة ارتجف على إثرها جسدها الرقيق كنسمات نابولي اللطيفة التي تحتضن الزنابق الفضية الفوّاحة في الأعشاب.

تُرى لماذا تحمر تلك المرأة خجلًا؟ لا أجد إجابة على هذا السؤال غير إهمالها أن تضع قدميها في حذائها عندما غادرت غرفتها بلهفة الأم الفزعة، وأيضًا نسيانها التام أن تضع على كتفها الفينيسي ثوبًا كما تنص التقاليد.. هل هناك من سببٍ آخر يجعلها تحمر خجلًا بهذا القدر – لتلك النظرة المتلهفة من عينيها الآسرتين الواسعتين – لاضطراب قلبها الخافق – لدقات يديها المتشنجتين المرتجفتين، تلك اليد التي سقطت فجأةً على يد الغريب بعدما استدار مينتوني نحو القصر؟ تُرى ما سبب نبرتها الخافتة على نحوٍ غريب في كلماتها المبهمة التي نطقتها على عجلٍ وهي تودعه؟ قالت:

"انتصرت!" أجل.. هكذا قالت، أو لعله هدير المياه خدع أذني، قالت: "انتصرت.. فلنلتقي بعد ساعةٍ من شروق الشمس!"

خفتت الجلبة وتلاشت الأضواء عن القصر، وذلك الغريب الذي تعرفت عليه وقف وحيدًا فوق اللوح الرخامي العريض. وقف يرتعش مهتاجًا لسببٍ غير معروف، بينما ظلت عيناه تنظران حوله بحثًا عن زورق، كان أقل شيئ أقدمه له حينها هو أن أعرض عليه زورقي، وبالفعل قبل دعوتي اللطيفة.. وبعد أن جلبنا مجدافًا عند البوابة المائية تقدمنا سويًا باتجاه مسكنه، حينها استعاد رباطة جأشه وبدأ يتحدث عن تعارفنا البسيط السابق بمودةٍ كبيرةٍ واضحة.

هناك شخوصٌ معينون يسعدني أن أصفهم بدقة، ذلك الشخص الغريب، هكذا أسمّيه طالما أنه مازال غريبًا للعالم كله، واحد من هؤلاء، كان متوسط الطول، غير أنه في لحظات الانفعال الشديد كان يزداد طولًا ويناقض صورته الأكيدة لدي.. أما عن قوامه فرشيق يميل إلى النحافة تقريبًا، وهو ما يبرر حيويته الرشيقة التي أبداها على جسر التنهيدات.. غير أن هذا يتناقض مع قوته الهائلة التي قيل أنه يستخدمها ببراعة بلا كلل في مناسباتٍ طارئة يكون الخطر فيها أكبر.. كان صاحب فمٍ وذقنٍ إلهيين، وعينين جريئتين قويتين واسعتين صافيتين، تكتسي ظلالهما بما بين البندقي الصافي والأسود الداكن السميك اللامع، كان ذا شعرٍ كثيفٍ مموجٍ أسود تبرز خلاله جبهة عريضة جدًا، لم أر قط ملامح أكثر من ملامحه اتساقًا على هذا النحو المثالي إلا ملامح الإمبراطور كومودوس الرخامية، ومع ذلك كانت ملامح الرجل من ذلك النوع الذي رآه معظم الناس في فترةٍ ما من حياتهم ثم لم يروها أبدًا بعدها.. لا شيئ خاص يميزها، ولا يهيمن عليها تعبير ثابت يرسخ في ذاكرة المرء، فهي ملامحٌ يراها المرء مرةً ثم تُنسى فوريًا، ولكن يتبع ذلك رغبة غامضة ملحة في تذكرها، ولا يعني هذا أن لا انفعالٍ سريع استطاع أن يرسم نفسه على وجهه، ولكن وجه الرجل كان كالمرآة لا تحتفظ بأي أثر للانفعال بعد انقشاعه.

وعندما تركته في ليلة مغامرتنا ألحّ عليّ أن أزوره مبكرًا جدًا في الصباح التالي لأمرٍ ما اعتقد أنه طارئ، وما أن أشرقت الشمس وجدت نفسي متوجهًا إلى قصره – أحد تلك المباني الهائلة ذات الأبهة الكالحة على روعتها – الطال بشموخٍ على مياه القناة العظيمة بالقرب من ريالتو، أرشدني الخادم عبر سلالم عريضة لولبية إلى شقةٍ وضّاءة بصورةٍ لا مثيل لها من فرط أناقتها التي أعمتني ودوختني.

علمت أنه ثري، فقد انتشرت شائعات عن أملاكه.. غير أنني ظننتها محض مبالغاتٍ سخيفة، ولكن بعدما تطلّعت فيما حولي لم يعد بمقدوري إقناع نفسي بأن أي ثريٍ آخر في أوروبا يقدر على تلك الأبهة الملكية المحترقة والملتهبة من حولي.

ورغم شروق الشمس كما أسلفت، إلا أن الغرفة ظلت مضيئة إضاءة باهرة، فهمت من هذه الحالة، وكذا أمارات الإرهاق المرتسمة على ملامح صديقي، أنه لم ينم خلال الليلة السابقة، كان تصميم الغرفة في أسلوب بنائها وزخرفتها مبهرًا للعين مثيرًا للذهول والدهشة على حدٍ سواء، فالديكور لم يراع ما يُقال عليها فنيًا "التناغم" أو الذوق المحلي.. تتشتت العين من شيءٍ لآخر ولا تثبت على شيءٍ واحد؛ لا على غرابة اللوحات اليونانية ولا على تماثيل أفضل النحاتين الإيطاليين المعاصرين ولا على النقوش المصرية الضخمة الفطرية، تنتشر ستائر غنية في كل جزء من الغرفة، ترتعش مع ذبذبات الموسيقى الخفيضة الكئيبة التي لا يمكن معرفة مصدرها، تتخدر الحواس بعطورٍ ممتزجة متضاربة تفوح من مباخر متدلية بسلاسل ملتوية وكثير من ألسنة النيران الزمردية والبنفسجية الخفّاقة الباهرة، تدفقت آشعة الشمس فوق كل شيء عبر النوافذ، فحدّدت اللوح الزجاجي الوحيد بالغرفة بمسحةٍ قرمزية، لمعت أشعة الشمس الطبيعية، لآلاف الانعكاسات، بين الستائر، وتموجت بين طيّاتها كشلالاتٍ من الفضة الذائبة، ثم اختلطت في النهاية مع الضوء الصناعي في انسجام، وتداخلت في كتلةٍ مختلطة فوق سجادٍ ثمين يلمع بلون الذهب الأحمر.

- ها ها ها ها ها ها..

ضحك المالك وهو يشير ناحية مقعدٍ بينما دلفت إلى الغرفة، ألقى بنفسه فوق كنبةٍ وقال: "أفهم!".. أدرك الرجل أنني لا أستطيع أن أستجمع رباطة جأشي من فرط ترحيبه الفريد جدًا.. أردف قائلًا:

- أرى أنك مندهش من شقتي، ومن تماثيلي، ومن لوحاتي، ومن أصالة ذوقي في أسلوب البناء والأثاث.. ثملٌ تمامًا من عظمتي! ولكن سامحني سيدي العزيز (تحولت نغمة صوته إلى المودة بعينها) على ضحكي غير المناسب، فلقد رأيت الاندهاش يعتلي وجهك تمامًا، كما أن بعض الأمور مضحكة جدًا وإن لم يضحك عليها المرء سيموت، وأن تموت ضاحكًا هو أعظم موت جليل، إن السير توماس مور - وياله من رجلٍ رائعٍ بحق - قد مات ضاحكًا، تتذكر؟ كما أن كتاب (السخافات) لرافيسيوس تيكستور يتضمن قائمة طويلة من الأسماء التي ماتت ضاحكة، ومن ناحيةٍ أخرى، هل تعرف (تحدث بشرود) أنه في أسبرطة (التي صار اسمها الآن بالايكوري) غرب القلعة وسط الخراب بالكاد يمكن أن تلاحظ العين نوعًا من الأحذية تعلوه كلمة AAEM، وهي بلا شك جزء كلمة "ضحك"، والآن تمتلك أسبرطة ألف معبد ومدفن لألف إله..

كم هو غريب جدًا أن الشيء الوحيد الذي نجى هو مذبح الضحك، ولكن في الوقت الحالي (تغيرت نغمة صوته وأسلوبه بغرابة) لا يحق لي أن أتسلى على حسابك، لعلك اندهشت جدًا! ليس بمقدور أوروبا أن تنتج شيئًا أنيقًا كغرفتي الملكية الصغيرة..

أما شققي الأخرى فلا تشبه هذه أبدًا، بل مجرد نماذج متطرفة خالية من الذوق، أرى أن هذه أفضل من الأنماط السائدة هذه الأيام، أقصد بالنسبة للذين يستطيعون تحملها بالتضحية بإرثهم كله. فلقد حميتها من هذا التدنيس، باستثناء شخص واحد، هو أنت، وبخلافي أنا وخادمي الخاص، فأنت الشخص الوحيد الذي سمحت له بالحضور داخل أسرار تلك الغرفة الإمبراطورية بما أنها لا ذوق فيها كما ترى.

انحنيت إلى الأمام معبرًا عن تقديري له، كما ساعدني ذلك الإحساس المسيطر من الروعة والعطر والموسيقى مع غرابة أطوار أسلوب الرجل وحديثه غير المتوقعة، فامتنعت عن التعبير عن تقديري ذلك بالكلام، كما أنني رأيت ما قاله مجرد مجاملة.

أردف وهو ينهض متكئًا على ذراعي ويمشي برفق في الشقة قائلًا: "هذه لوحات من اليونانيين إلى الرسّام كيمابو، ومن كيمابو إلى الرسامين المعاصرين، ولقد اخترت العديد منها كما ترى دون مراعاة آراء خبراء الرسم، ومع ذلك، فإنها كلها تتناغم وتصبح نسيجًا مزينًا لغرفة كهذه، وهذه أيضًا روائع غير معروفة، وهذه تصميمات لم تنته لرجالٍ كانوا من قبل مشهورين في أزمانهم.. تركها الأكاديميون للصمت ولي، ثم أضاف بينما يستدير بحدة: "تُرى ما رأيك في لوحة السيدة بيبتا؟"

– إنها لوحة رسمها جيدو بنفسه..كيف وصلت إليك؟ إنها في عالم الرسم كما فينوس في عالم النحت!

هكذا قلت بمنتهى الحماس الطبيعي بينما كنت أمعن النظر في جمال اللوحة الخلّاب.

– جيدو! ها! فينوس.. فينوس الجميلة؟ فينوس ميديتشي؟ ذات الرأس الصغير والشعر الذهبي؟

ثم هدأت نبرة صوته بحيث صرت أسمعه بصعوبة، وأردف:

– رُمم جزء من الذراع اليسرى والذراع اليمنى بالكامل، وفي دلال الأخيرة تلك يكمن، على ما أعتقد، جوهر التأثير كله، وهذه أيضًا فينوس كانوفا، وتمثال أبوللو هذا أيضًا نسخة بلا أدنى شك، لابد أنني أحمق وأعمى كي لا أرى الإلهام في تمثال أبوللو! لا أستطيع منع نفسي عن تفضيل تمثال أنطونيوس.. ألم يقل سقراط إن النحّات الحق هو من يحوّل كتلة من الرخام إلى تمثال؟ كما أن مايكل انجلو لم يأتِ بجديد حينما سطر السطرين التاليين:

لن يبصر النحّات فكرةً

رفض الرخام إبصاره إيّاها.

لقد اعتدنا، أو يجب أن نكون قد اعتدنا، على أن نرى في سلوك السيد النبيل الحق امتيازًا عن الأخلاق المتدنية، بدون أن نحدد على الفور مقدار هذا الامتياز بدقة، وحينما طبّقت هذه الفكرة عمليًا بكل تفاصيلها على سلوك صديقي، شعرت في ذلك الصباح المميز أنها تلائم مزاجه وشخصيته أكثر، ولم أفهم تلك الخصوصية التي تنفرد بها روحه وتميزه عن كل البشر بأفضل من أن أسمّيها "عادة التفكير المتعمق المتواصل" التي تسيطر على أتفه وظائفه وتتسلل إلى لحظات عبثه وتتكاثر مع هبّات مرحه، تمامًا كالأفاعي المتدلية من عيني الأقنعة الغاضبة في كورنيش معابد برسيبوليس.

ومع ذلك، ليس بمقدوري إلا أن ألاحظ مرارًا تلك الرجفة التي تنتاب نغمة صوته المختلطة من الطيش والجدّ التي يلقها سريعًا لينتقل إلى أمورٍ أقل أهمية، كما ألاحظ نوعًا من النشوة العصبية في حركته وكلامه، اهتياجًا قلقًا في سلوكه على أنه غير مبرر طوال الوقت بالنسبة إليّ، غمرني بالحذر أحيانًا.. بالإضافة إلى أنه كان يتوقف كثيرًا في منتصف الجملة وكأنه نسى بدايتها، وبدا أنه ينصت جدًا كما لو أنه يتوقع أن يزوره زائر في أي لحظة، أو يستمع لأصواتٍ لا توجد إلا في خياله وحده.

وفي أحد أحلام يقظته تلك أو وقفاته التجريدية اكتشفت أثناء قلب صفحة من صفحات (أورفيو) للشاعر والعالم بوليتيان، وهي أول تراجيديا تُكتب بالإيطالية،التي ترقد بالقرب مني على الأريكة، مقطعًا محددًا بالقلم.. كان مقطعًا عند نهاية المشهد الثالث، من أحد أكثر المقاطع إثارةً للمشاعر، وعلى الرغم من شوائبه اللغوية، إلا أن لا رجل قد يقرأه بدون أن تنتابه رعشة عاطفة فريدة، ولن تتلوه امرأة بدون أن تتنهد.. كانت الصفحات كلها ملطّخة بدموعٍ ندية، وفي الصفحة المقابلة سُطّرت السطور التالية بالإنجليزية بخطٍ مختلف تمامًا عن ملامح خط صديقي المميز، حتى أنني وجدت صعوبة في التعرف على خطه فيها:

كنتِ أنتِ يا حبيبتي،

كل ما تشتاق إليه روحي.

جزيرةٌ خضراءٌ في البحر أنتِ يا حبيبتي،

ينبوعًا وقدسًا،

مضفّرة بفواكه جميلةٍ وأزهارًا،

وكل الأزهار كانت ملكي يا حبيبتي.

أهٍ! يا له من حلم برّاق كي يبقى!

آهٍ! يا له من أملٍ مرصعٍ بالنجوم!

أشرق الأمل وسرعان ما غرب!

صرخ صوتٌ من قلب المستقبل آت،

قال: "اذهب"، ولكن روحي الهائمة

فوق الماضي (الهاوية المعتمة)

ترقد صامتة، باردة، مصدومة!

واحسرتاه! واحسرتاه!

انتهى مني نور الحياة.

لا مزيد! لا مزيد! لا مزيد!

تلك اللغة التي تحمل البحر العظيم

إلى الرمال فوق الشاطئ!

هل تورق الشجرة التي يضربها الرعد؟

هل يحلّق النسر الجريح ويرتفع؟

والآن كل أيامي نشوةٌ غائبة،

وكل لياليّ المظلمة سواد عينيكِ المعتمتين،

وتومض خطوات أقدامك برقصاتٍ سماوية،

بجوار جداول إيطالية.

واحسرتاه على هذا الزمان الملعون!

الذي حملكِ إلى السماء،

لأجل الهوى والعمر والقدر،

فمن فراشكِ الأثيم أخذكِ،

وبكت عليكِ أشجار الصفصاف المتلألئة.

لم أندهش كثيرًا عندما علمت أن هذه الأبيات كانت مكتوبة بالإنجليزية؛ أي باللغة التي لم أعرف أن مؤلفها يتقنها، ولقد كنت أعرف أيضًا إمكانياته المعرفية وتلك النشوة الفريدة التي يشعر بها في إخفاء تلك الإمكانيات عن الآخرين من أجل إدهاشهم لاحقًا عند اكتشافهم ما هو شبيه به لاحقًا، غير أن مكان تاريخ كتابة تلك الأبيات قد سبب لي دهشةً عظيمة – وبهذا أقر وأعترف – لأنني أتذكر جيدًا أنه في حديثٍ سابق مع صديقي كنت قد سألته – على وجه الخصوص – عمّا إذا كان قد قابل في أي وقت الماركيزة دي مينتوني في لندن (التي سكنت المدينة قبل زواجها بسنوات)، وحينها أشار إلى أنه لم يزر لندن على الإطلاق، هذا إن لم أكن مخطئًا.. ولعلي أقول في هذا الموقف أيضًا أنني قد توارد إلى مسامعي أكثر من مرة (ولا يلزم ذلك أن يكون الخبر صادقًا) أن الشخص الذي أتحدث عنه لم يكن فقط إنجليزي المولد، بل التعليم أيضًا.

قال الرجل دون أن ينتبه إلى ملاحظتي للتراجيديا: "هناك لوحة أخرى.. لا تزال هناك لوحة أخرى لم ترها" ثم أزاح ستارةً ليكشف عن بورتريه للماركيزة أفروديت بالحجم الطبيعي.

ليس بمقدور الفن البشري أن يصور جمالها أفضل مما صوّر، وقفت نفس الهيئة السماوية التي وقفت أمامي ليلة أمس فوق درجات القصر الدوقي، ولكن تتوارى خلف معالم وجهه التي تشع كلها في ابتسامة تلك النظرة الكئيبة التي لا تنفصل أبدًا عن تمام الجمال، وهو أمرٌ فيه شذوذٌ غريب.

استندت ذراع الماركيزة اليمنى مطوية على صدرها، بينما اليسرى تشير إلى آنيةٍ غريبة الشكل.. قدمٌ واحدة صغيرة جميلة هي فقط المرئية وتلمس الأرض، بينما يطفو زوجٌ من جناحيها الخياليين برقة، وبالكاد يرى المرء في الجو اللامع المحيط بجمالها.. أزحت نظري عن اللوحة إلى صديقي في نفس الوقت الذي ارتعدت فيه كلمات تراجيديا تشابمان القاسية بعنوان (بوسي دامبوا) فوق شفتيّ غريزيًا:

منتصبٌ هو..

كتمثالٍ روماني.. وسيظل منتصبًا،

حتى يحوّله الموت إلى رخام!

وفي النهاية قال لي: "هلم بنا".. توجه إلى مائدةٍ من الفضة الثمينة والثقيلة على سطحها عدد من الكئوس الملونة بألوانٍ غريبة بجانب آنيتين ضخمتين من أواني إيطاليا القديمة على الطراز البارز المستخدم في أرضية اللوحة ومليئتين بنبيذ جوهانسبرج، على ما أظن.. قال الرجل بحدة: "هلم بنا نشرب، صحيح أن الوقت مبكر، لكن دعنا نشرب.. الوقت مبكر فعلًا" واصل شاردًا كطفلٍ جميل يحمل مطرقة ذهبية ثقيلة جعل الشقة تدوّي بدقة الساعة الأولى بعد شروق الشمس، قال: "صحيح أن الوقت مبكر،

ولكن ماذا يهم؟ دعنا نشرب ونقدم لشمسك المقدسة قربانًا.. الشمس التي تتلهف المصابيح اللامعة والمشاعل لإطفاء أضوائها"، وبعد أن سكب لي النبيذ في كأسي تجرّع عدة كؤوسٍ من النبيذ في جرعاتٍ متتاليةٍ سريعة.

واصل بنبرة حديثه المفككة ذاتها، بينما يحمل إحدى الآنيتين الرائعتين إلى ضوء أحد المشاعل المتقدة، قائلًا: "أن تحلم، فالحلم كان أهم حدث في حياتي، ولذلك بنيت لنفسي كوخًا من الأحلام كما ترى، هل كان هناك واحد أفضل من هذا أنصبه وسط فينيسيا؟ ترى من حولك حقًا خليطًا من الزخرفة المعمارية، شرف أيونيا يضيع على يد تلك الرذائل القديمة، وتمتد تماثيل أبي الهول المصرية فوق السجاد الذهبي. ولكن النتيجة لن تكون شاذة إلا في عين الجبان فقط. إن الرعب الذي يملأ صدور البشر ويثنيهم عن التفكير في الجمال هو التزامه بما يلائم المكان والزمان على وجه الخصوص، ولقد اشتغلت من قبل بالزخرفة، لكن تلك العظمة في هذا العمل الغبي أثقلت روحي، هذا ما يناسب أغراضي الآن.. فمثل هذه المشاعل الأرابيسكية تشتعل روحي في النار، ويغرقني هذا الهذيان إلى رؤى جامحة في أرض الأحلام الحقيقية التي أرحل إليه سريعًا الآن"..

توقف فجأة وطأطأ رأسه فوق صدره، كما لو أنه يستمع إلى صوتٍ لا تصل إليه أذناي، وفي النهاية وقف ونظر إلى الأعلى وهتف بشعر أسقف تشستر قائلًا:

انتظريني هناك! لن أفوّت لقائك في ذلك الوادي السحيق.

وفي اللحظة التالية أقرّ لي بمدى ثقل النبيذ وألقى بنفسه فوق الأريكة.. حينها سمعت خطوات سريعة فوق درجات السلم، ثم طرقة قوية على الباب، أسرعت لفتح الباب خوفًا من طرقةٍ ثانية تزعجنا.. دلف من الباب وصيفٌ من بيت مينتوني.. قال متلعثمًا بنبرةٍ يشوبها الانفعال وبكلماتٍ مفككة: "سيدتي.. سيدتي ماتت بالسم.. ماتت بالسم، أه يا أفروديت الجميلة!"

اندفعت إلى الأريكة مرتبكًا، حاولت إيقاظ النائم ليعرف بالخبر المؤلم.. لكن كانت أطرافه متخشبة، وشفتاه زرقاوتين، وعيناه اللتان كانتا متقدتين للتو، سائرتين إلى الموت.. تراجعت في ترنحٍ من ذهولي إلى الطاولة، فوقعت يديّ إلى كأسٍ متصدعٍ مسود.. عرفت حينها الحقيقة المرعبة كلها.

***

جزيرة الجنيَّة

(1841)

"لكل مكانٍ مذاق فريد"

– سيرفيوس

جاء على لسان مارمونتِل في كتابه بعنوان **Contes Moraux** الذي نصرّ دائمًا على ترجمته إلى "حكايات أخلاقية" ويكأننا نسخر من فحواه: "الموسيقى هي الموهبة الوحيدة التي تقدّم المتعة لذاتها، فغيرها من المواهب تحتاج إلى شهود". وبهذا يقصر مارمونتِل المتعة النابعة عن الأصوات العذبة على القدرة على الإبداع، لا تعلو الموسيقى على أي موهبةٍ أخرى في القدرة على تقديم المتعة كاملة، حيث لا طرف ثانٍ هناك يستمتع بها.. غير أنها تشترك مع المواهب الأخرى في الأثر الذي تتركه ويستمتع بها المرء في عزلته. إن الفكرة التي إما فشل الراوي في سردها أو قدّم فحواها قربانًا لحبه الوطني هي – بلا شك – نفس الفكرة التي قد تصلح أن تكون حجة قوية بأن أعلى تقديرٍ لنا للموسيقى الراقية يكون في عزلتنا..عشّاق القيثارة للقيثارة فقط هم فقط من يؤمن بهكذا طرح، وكذلك من يؤمن باستخداماتها الدينية، إلا أن هناك متعة واحدة لاتزال في متناول البشر الهابطين من السماء – واحدة فقط – تفضّل العزلة أكثر من الموسيقى نفسها. أقصد بهذا السعادة التي تملؤنا حين نتأمل الطبيعة.. الحق يُقال أن الإنسان الذي اعتاد تأمل عظمة الله في الأرض – على نحوٍ صحيح – لابد وأن يتأملها في عزلته، في رأيي – أنا على الأقل – فإن الحياة الإنسانية، بل الحياة في أي صورةٍ أخرى غير التي عليها كل المخلوقات الخضراء التي تنوء فوق تربة الأرض في صمت،

كل هذا الوجود هو مجرد لطخة تعلو المشهد الطبيعي، بالأصح على خلافٍ مع المشهد الطبيعي. طالما أحببت إمعان النظر إلى الأودية المعتمة، إلى الصخور الرمادية، إلى المياه المتبسّمة في صمت، إلى الغابات المتنهّدة في سكونها القلق، إلى الجبال الشاهقة السامقة التي تنظر بكبرياء إلى ما دونها، طالما أحببت إمعان النظر إليها باعتبارها أعضاءً كبيرة لجسمٍ واحدٍ أحد ذي شكلٍ كروي كامل مُكمّل أبدًا، سبيله بين الكواكب السيّارة، خادمه الخدوم هو القمر، وملكته المتوّجة هي الشمس، حياته هي الخلود، فكره هو فكر الله، متعته هي المعرفة، مصائره ضائعة في الفضاء، يدركنا كما ندرك تلك الآفات الدقيقة التي تغزو المخ، ولذا فإننا ننظر إليه كونه شيء مادي لا حي، تمامًا كما تنظر إلينا تلك الآفات الدقيقة.

تؤكد لنا أجهزة التليسكوب وأبحاثنا الرياضية على جميع المستويات – بصرف النظر عن جهل رجعيّة الكهنوت – أن الزمن – وبالتالي الحجم – أمرٌ مهم في نظر الله. إن تلك السماوات التي تسبح فيها النجوم هي أفضل السماوات التي هيّأها الله لتحريك أكبر عددٍ من الأجرام بدون أن تتصادم.

خُلقت تلك الأجرام على هذه الهيئة بمنتهى الدقة في ظل سطحٍ معين، ولذا فإنها تضم أكبر كمية ممكنة من المادة. غير أن الأسطح نفسها مقدرة على النحو الذي يسمح لها باحتضان عددٍ من السكّان أكبر مما قد تتسع له يومًا ولو أنها على نسقٍ مغاير.. الفضاء نفسه لانهائي، ولا ريب أنه يمثل غاية من غايات الله، لعل جرمٍ لا متناهٍ كهذا يشغل الفضاء. إننا نرى بوضوح – بقدر ما تستوعبه عقولنا – أن حيوية المادة هي مبدأ في حد ذاتها – وهو المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه مفهوم الألوهية – وعليه فلا منطق هناك في أن نتخيل أنها مقصورة على تلك العوالم الدقيقة التي نلمسها يوميًا ولا تمتد إلى مكانٍ آخر، وبما أننا نعيش في دورةٍ داخل دورةٍ أخرى إلى ما لانهاية، فإن تلك الدورات تدور في الفلك حول مركزٍ بعيد هو الله، ومن ثم ألا يعقل أن نفترض أن هناك

حياة داخل حياة أخرى، ألا يكون كل ذلك ضمن الروح القدس؟ باختصار لا يصح أن نتوهم – بغرور – بأن الإنسان سواء في مصيره السرمدي أو المستقبلي ذو أهميةٍ كبرى في هذا الكون، ربما أهم من قيمة "تربة الوادي" الشاسعة التي يحرثها ولا يحترمها، والتي ينكر تمثّل الروح فيها لمجرد أنه لا يشاهد حركتها.

طالما غذّت تلك الخيالات – ومثيلاتها – تأملاتي بين الجبال والغابات، وبجوار الأنهار والمحيطات بشيءٍ لن يسميها العالم اليومي إلا خيالية.. غير أن جولاتي بين تلك التأملات عديدة ووحيدة في غالبها، فالاهتمام الذي همت به عبر الأودية المعتمة العميقة الكثيرة أو حدّقت به إلى السماء المنعكسة صورها على أسطح البحيرات اللامعة الكثيرة، كان اهتمامًا عميقًا لأنني كنت أشرد وأنظر وحدي تمامًا، أذكر قولًا للفرنسي الثرثار كان يشير فيه إلى عملٍ معروفٍ لزيرمان جاء فيه: "إن العزلة لشيئٌ جميل، ولكن على أحدهم أن يخبرك أنها جميلة وهو بصحبتك" لا أنكر أن القول جميل، ولكنني لا أتفق مع الضرورة التي فرضها.

في إحدى رحلاتي الوحيدة في منطقةٍ نائية من الجبال المُحاصرة بجبال وأنهار حزينة وبحيراتٍ جبلية تلتف حولها أو تنام بداخلها، صادفت جدولًا وجزيرة، كان ذلك في شهر يونيو المورّق، ألقيت بنفسي فوق العشب أسفل فروع شجيرةٍ عطرة غلبني النعاس وأنا أتأملها، شعرت وبكأنني يتوجب أن أنظر إليها هكذا فقط، هكذا خُيل إليّ من أثر صورها الخيالية.

في كل الجهات – إلا الغرب – وقف جدار الغابة الخضراء والشمس من ورائه على وشك المغيب، بدا النهر وكأنه يغير اتجاه سريانه فجأة ليغيب عن البصر هو الآخر، لا مفر من سجنه إلا عبر أوراق الشجر الخضراء في الشرق، وفي الجهة المقابلة – كما خُيّل إليّ وأنا مستلقٍ أنظر إلى الأعلى – يتدفق إلى الوادي بصمتٍ وغزارة شلالٌ ذهبي وقرمزي قادم من ينابيع غروب الشمس في كبد السماء.

وفي منتصف الطريق التي سارت فيها رؤياي بصرت جزيرةً صغيرة خضراء تنام فوق صدر الجدول.

ضفة جدول وظلال،

وكأنهما يتدليان في الهواء.

خُيّل إليّ أن مياهه الزجاجية مرآة حتى صعب عليّ أن أحدد من أي نقطةٍ على انحدار المرج الزمردي تبدأ صورته الكريستالية.

سمح لي مكاني أن أجمع بين مشرق ومغرب الجزيرة في نظرةٍ واحدة، فلاحظت اختلافًا مبينًا بين مظهريهما، بدا المغرب وكأنه ملك متوجّ بجمالٍ بستاني، يتألق ويتورّد خداه تحت ضوء الشمس المائل ويضحك مع الأزهار ببراءة. كانت الأعشاب قصيرة ناعمة، فوّاحة، متوّجة بالزنابق، والأشجار رشيقة، مرحة، لامعة، لها أوراق شرقية ذات لحاءٍ ناعم مصقول تظلله الألوان، يشوب المكان كله نفحة من الحياة والفرح، غير أن لا نسائم تهبط من السماء، ولكن كل شيءٍ ينبض بالحياة بسبب الفراشات الكثيرة جدًا الطائرة من مكانٍ لآخر بلا راحة، ظننتها زهور التوليب المجنحة.

أما المشرق فكان غارقًا في ظلٍ أسود يشوبه وميضٌ معتم على جماله وهدوئه الطاغي على كل المخلوقات.. كانت الأشجار قاتمة اللون حزينة الشكل تأخذ أشكالًا حزينة رزينة تثير في العقل صور الحزن الفاني والموت المبكر، اكتسى العشب بلونٍ داكن، تدلّت أوراقه الرقيقة وتناثرت رابيات صغيرة هنا وهناك لها هيئة القبور، فلا هي قصيرة ولا هي طويلة، وبرغم أن نبتة الفيجن وإكليل الجبل قد تسلقتها وافترشتها إلا أن ظلال الأشجار كانت تسقط ثقيلة فوق المياه ويكأنها تدفن نفسها لتغمر أعماق المياه بالظلام. خُيّل إليّ أن كل ظلٍ مع هبوط الشمس ينفصل حزينًا عن الجذع الذي خلقه ليذوب في مياه الجدول، في حين أن الظلال الأخرى التي تظهر من حينٍ لآخر تأخذ مكان أسلافها التي دُفنت على هذا النحو.

وما أن استحوذت تلك الفكرة على عقلي حتى أثارت مخيلتي أكثر فأكثر، فتهت وغرقت في أحلام اليقظة.. قلت لنفسي: "لو أن جزيرةً يومًا ما مسّها السحر فلتكن هكذا! هل تلك قبور الجنيّات اللطيفة القليلة؟ هل تسلم حياها الحلوة كما يفعل بنو آدم؟ هل تذبل حزينة حين تسلم روحها إلى خالقها رويدًا رويدًا كما تسلم هذه الأشجار الظلال الظل تلو الآخر؟ ألا تمثل حياة الجنية ما تمثله الشجرة الهزيلة؟"

ظللت عاكفًا أتسلى على هذا النحو نصف مغمض العينين، بينما تغرق الشمس إلى مثواها، والتيّارات الدوّامية تتقدم سريعًا تجوب الجزيرة وهي تحمل فوق صدرها رقائق ضخمة متألقة بيضاء من لحاء شجر الجميز يحولها خيالي السريع إلى أشكالٍ أخرى يحبها بسبب أنماطها المختلفة، وبينما أنا هكذا ظهرت لي جنية من تلك التي كانت تجوب خيالي شقت طريقها ببطء إلى الظلام من النور في الجانب الغربي، وعلى الفرح الذي بدا عليها وآشعة الشمس تتسكع أعلاها إلا أن الحزن غلفها وهي تمر عبر الظلال، بعدت كثيرًا وفي الأخير لفت الجزيرة حتى عادت إلى النور مجددًا. قلت لنفسي مجددًا: "إن ما قضته الجنية من سيرٍ دائري يمثل عامًا في حياها بصيفه وشتائه، دنت الجنية من الموت عامًا، فظلها قد سقط عنها عندما ابتلعته المياه الداكنة.. حتى صارت أكثر سوادًا"

من جديد ظهر القارب والجنية، لكن بدا عليها حينها الاهتمام وعدم اليقين المشوبان بقليلٍ من الفرح، دارت من جديد من النور إلى الظلام (الذي صار أكثر ظلمة)، ومن جديد سقط ظلها في المياه الأبنوسية وغرق في ظلامها، ومرة تلو الأخرى تكررت الدورة (والشمس تسرع إلى مثواها)، فتخرج الجنية كل مرة بحزنٍ أكبر يغلف جسدها الذي صار أوهن وأشحب وأبهت، ومع كل دورة يسقط منها ظلٌ أكثر عتمة وتغطية ظلال أكثر سوادًا، وفي النهاية عندما ذابت الشمس تمامًا ذهبت الجنية التي صارت مجرد شبحٍ لهيئتها الأولى مكسورة الوجدان في قاربٍ إلى منطقة الفيضان الأبنوسي، ومنه إلى الخارج تمامًا إلى مكانٍ لا أعرفه.. وفي الأخير حلّ الظلام على كل شيء ولم أرَ سحرها منذ ذلك الحين.



برميل الأمونتيلادو

(1846)

طالما تحملت آلاف الجروح من فورتناتو بكل ما بوسعي، ولكن حينما عمد إلى إهانتي أقسمت على الانتقام منه، وأنت يا من تعرفني جيدًا لن تظن أنني قد صرّحت له بتهديدي عيانًا، فإنني بنهاية المطاف أنتقم لنفسي، هذا أمر أكيد، إلا أن الصرامة التي أخذت بها القرار حالت دون تفكيري بالخطر، فعندما أعاقبه يجب أن أتجنب أي عقاب يلحق بي، فأي انتقامٍ هذا إذا نال من المنتقم؟ لن يكون انتقامًا سويًّا إذا لم يلقّن المنتقِم المنتقَم منه درسًا.

أؤكد لك أنني لم أنبس ببنت شفه ولم يبدر مني تصرف يجعل فورتناتو يرتاب في نواياي الحسنة، فمازلت – كعادتي دائمًا – أبتسم في وجهه، غير أنه لا يدرك أن ابتسامتي تخفي تفكيري في التخلص منه.

طالما كان فورتناتو يعاني من نقطة ضعف، غير أنه كان رجلًا ينضح بالاحترام، بل والهيبة أيضًا، كان يفتخر بخبرته في النبيذ، قليلٌ هم الإيطاليون الذين يملكون روحًا فنية حقيقية، فأغلبهم يستغلّون حماسهم في انتهاز الفرص السانحة للاحتيال على الأثرياء من البريطانيين والنمساويين، ففيما يتعلق باللوحات الفنية والجمهورات كان فورتناتو – كأهل بلده – كاذبًا، ولكن فيما يتعلق بالنبيذ كان صادقًا، لم أختلف عنه في هذا الشأن جوهريًا، فقد كان خبيرًا في النبيذ الإيطالي المعتق، فكنت أشتري منه بكمياتٍ كبيرة حسب استطاعتي.

كانت الشمس قد قاربت على الأفول حين قابلت صديقي – ذات مساء – إبّان ذروة الموسم الكرنفالي؛ بادرني بتحيةٍ دافئةٍ جدًا من شدة ثمالته، كان يرتدي زي المهرج، زيًا مخططًا ضيقًا، وفوق رأسه تستقر قبعة قمعية ذات أجراس، سعدت جدًا برؤيته لدرجة أني قبضت على يديه بشدة، ليتني لم أفعل!.

– عزيزي فورتناتو، كم أنا سعيد الحظ للقائك! كم تبدو رائعًا اليوم! للعلم.. تلقيت برميلًا من النبيذ يُقال أنه نبيذ الأمونتيلادو، أيعقل؟

– كيف؟ أمونتيلادو؟ برميل؟ هذا مستحيل! وفي ذروة الكرنفال أيضًا؟

– لا أصدق هذا، ولكن حماقتي دفعتني لسداد ثمن البرميل كاملًا دون استشارتك، لم أعثر عليك حينها، وخشيت أن أخسر تلك الفرصة.

– أمونتيلادو؟

– أشك.

– أمونتيلادو!

– ولابد أن أحسم تلك الشكوك.

– أمونتيلادو!

– بما أنك مشغول الآن، سأذهب إلى لوتشرسي، فهو الوحيد الذي سيحكم على هذا النبيذ.. سيخبرني.

– لوتشرسي هذا لا يميّز بين الأمونتيلادو والشيري.

– ومع ذلك فهناك حمقى يقولون أن ذائقته تعادل ذائقتك.

– تعالى، فلنذهب.

– إلى أين؟

- إلى قبوك.

- لا يا صديقي، لن أستغل كرمك.. أرى أنك مشغول، ثم أن لوتشرسي..

- لست مشغولًا، تعالى.

- لا يا صديقي، لا أقصد أنك مشغول فعلًا، بل أرى أنك مُصابٌ بدور بردٍ شديد، فالقبو رطب جدًا لدرجة لن تتحملها، كما أنه مشبع بالنترات.

- لا يهم، فلنذهب.. لا يهمك البرد.. أمونتيلادو! لقد خدعوك، لوتشرسي هذا لا يستطيع التمييز بين الأمونتيلادو والشيري.

أمسك فورتناتو ذراعي بعد كلامه هذا، فتركته يسرع بي بعد أن وضعت قناعًا من الحرير الأسود ولففت معطفي حول جسمي.

لم يكن أحد بالبيت، فقد خرجوا سرًا للاستمتاع بالكرنفال، كنت قد أخبرتهم بأنني لن أعود قبل الصباح وأمرتهم بألا يتحركوا من البيت.. أعرف أيضًا أنهم فروا من تلقاء أنفسهم فور خروجي.

أخذت مشعلين وأعطيت فورتناتو أحدهم، سرت أمامه عبر عدة أجنحة إلى مدخلٍ يؤدي إلى القبو، نزلنا عبر سلمٍ طويل وملتوي، طلبت منه أن يحذر وهو يتبعني، وصلنا أخيرًا إلى نهاية السلم حيث وقفنا على أرضية السرداب الرطبة لمنزل مونتريزوورس.

كان فورتناتو يترنح وتهتز قبعته بينما يحرك قدميه ببطء الخطوة تلو الأخرى.

- أين البرميل؟

- لم نصل بعد، احذر من نسيج العنكبوت الأبيض الذي يومض فوق هذه الجدران المجوفة.

استدار نحوي ناظرًا إليّ بعينين غائمتين اغرورقتا بدموع الثمالة وقال:

– ماذا عن النترات؟

– نترات؟ منذ متى وأنت مصاب بهذا السعال؟

– كح كح كح كح كح..

لم يستطع المسكين الإجابة على سؤالي لعدة دقائق، وبنهاية المطاف قال:

– لا تبالي.. مجرد سعال خفيف.

قلت له:

– هيا بنا نخرج من هنا، صحتك غالية.. أنت شخص غني ومحترم ومحبوب،أنت شخص سعيد،كما كنت يومًا،لابد أن الكثيرين سيفتقدونك، لا تثريب عليك، سنعود..ستمرض ولن أتحمل مسئولية مرضك، علاوة على ذلك فهناك لوتشرسي.

– يكفي ما قلته، قلت لك أنه مجرد سعال خفيف.. لن يقتلني، لن أموت من مجرد سعال.

– صحيح، صحيح.. لم أقصد أن أثير خوفك بلا مبرر، ولكن يجب أن تحتاط، كأس من نبيذ الميدوك الفرنسي سيحمينا من الرطوبة.

نزعت بسرعة شديدة سدادة زجاجة نبيذ سحبتها من وسط صف طويل من زجاجات ترقد فوق أرضية القبو.

قدمت له النبيذ وقلت:

– هاك، اشرب.

رفع الزجاجة إلى شفتيه بينما ينظر شزرًا.. توقف برهة وهز رأسه لي بود وقال:

– في صحة المقبورين الراقدين حولنا.

– أما أنا، ففي صحة عمرك المديد.

أمسك بذراعي من جديد وواصلنا سيرنا.

قال لي:

– يا له من قبوٍ واسع!

فقلت:

– إن آل مونترزور عائلة عريقة وكبيرة.

– ذكّرني بشعاركم.

– شعارنا قدم بشرية ضخمة من الذهب في حقلٍ أزرقٍ سماوي تسحق ثعبان جرسي أنيابه تقبض على كعب تلك القدم.

– وماذا يقول شعاركم؟

– الويل والثبور لمن أهاننا.

– جيد.

لمع النبيذ في عينيه ورقصت الأجراس، أشعل نبيذ ميدوك خيالاتي، سرنا عبر جدران من العظام إلى جانب براميل صغيرة وأخرى كبيرة إلى أعمق نقطةٍ في السرداب، توقفت مجددًا، ثم أمسكت بذراع صديقي وقلت:

– النترات يزيد أثرها كما ترى، تشبه الطحالب فوق القبو تتجه نحو أسفل قاع النهر.. سنعود قبل أن يفوت الأوان، فإن سعالك..

– تافه! دعنا نواصل، ولكن بعد رشفةٍ من نبيذ الميدوك.

كسرت زجاجة من نبيذ الديجراف وأعطيتها له، شربها كلها مرة واحدة، لمعت عيناه بضوءٍ رهيب، ضحك ورفع الزجاجة بإيماءةٍ لم أفهمها، نظرت له بدهشة فأعاد نفس الحركة.

– ألم تفهم؟

- كلا.

- إذن ألست من الأخوة؟

- لا أفهم.

- أنت لست من المعماريين.

- بلى، أنا معماري.

- أنت؟ مستحيل! معماري؟

- نعم، أنا معماري.

- أعطني أمارة.

- هذا.

أخرجت مجرفة من معطفي، فقال:

- أنت تمزح.

تراجع قليلًا إلى الخلف، ثم أردف:

- دعنا نصل إلى الأمونتيلادو.

- فليكن.

أعدت المجرفة إلى معطفي وقدّمت له ذراعي، استند صديقي عليها بكل ثقله، ثم واصلنا سعينا نحو الأمونتيلادو. سرنا عبر سراديب منخفضة، ثم هبطنا وأكملنا سيرنا، ثم صعدنا مجددًا حتى وصلنا إلى سردابٍ عميق ذي هواءٍ عفن جعل نار المشعلين تتوهج بدلًا من أن تضيء.

وعند نهاية السرداب وجدنا سردابًا آخر أقل اتساعًا، كان الأخير هذا جدرانه مبطنة ببقايا بشرية تكومت فوق بعضها وصولًا إلى سقف القبو كما هو حال السراديب العتيقة في باريس، لاتزال هناك ثلاثة جوانب من هذا السرداب مزدانة بهذه الطريقة، أما الجدار الرابع فعظامه مكومة فوق بعضها على الأرض بصورة عشوائية وكأنها هرم صغير. وخلف هذا الجدار وجدنا سردابًا داخليًا على عمق أربعة أقدام وباتساع ثلاثة أقدام وبارتفاع ستة أو سبعة أقدام، لم يكن السرداب هذا مشيدًا لغرضٍ خاص، بل جاء شكله هكذا حسب المسافة بين عمودين ضخمين ساقطين من سقف السرداب، كما أنه مبطن بجدارٍ دائري من الجرانيت الصلب.

لم يتح لنا الضوء الباهت فرصة لنرى نهاية السرداب، قلت:

– هيا بنا، هنا الأمونتيلادو.. أما بالنسبة للوتشرسي..

– جاهل!

قاطعني بينما يتقدم مترنحًا إلى الأمام وأنا من خلفه أتقفى أثره.

وصلنا أخيرًا إلى نهاية السرداب، وقف صديقي محتارًا أمام صخرة تعيق تقدمه، حينها أمسكت به وقيدته إلى الجدار الجرانيتي من خلال مسمارين على شكل U من الحديد الصلب يبعدان عن بعضهما البعض بمسافةٍ لا تقل عن قدمين أفقيًا، تتدلى من أحد المسمارين سلسلة حديدية قصيرة ومن الآخر قفل، لففت السلسلة حول وسطه وقفلتها بالقفل من الناحية الأخرى، كان مستغرقًا في اندهاشه فلم يقاوم، وبعد أن أخرجت المفتاح من القفل خرجت من الكوة.. قلت له:

– الآن مرر يدك على الجدار، ستشعر بالنترات، إنه رطب جدًا.. والآن دعني أدعوك إلى العودة، لا تريد؟ إذن سأتركك هنا إلى الأبد، لكن بعد أن أنتهي تمامًا من أمرك.

هتف صديقي المستغرق في دهشته: "أمونتيلادو!"

– أجل، الأمونتيلادو.

وجّهت له هذه الكلمات بينما انهمكت في التفتيش بين أكوام العظام حتى وصلت إلى عددٍ من أحجار البناء بنيت بها جدارًا بمساعدة المجرفة لسد مدخل الكوة.

وما أن انتهيت من الصف الأول حتى أفاق فورتناتو من ثمالته، صرخ بأنينٍ خافت، لم تكن صرخة رجلٍ ثمل، ساد بعدها صمت طويل عنيد، انتهيت من الصف الثاني ثم الثالث ومن بعدهما الرابع حتى سمعت صليل القيود، استمر الصوت لعدة دقائق فأصغيت إليه بسعادةٍ غامرة، ظلت جالسًا فوق العظام أستمع، وعندما خمد الصوت طفقت أكمل عملي حتى أنهيت الصف الخامس والسادس والسابع، وصل الجدار إلى مستوى صدري تقريبًا، توقفت عن العمل ورفعت المشعل فوق الجدار الجديد وألقيت بعض الضوء على صديقي المحبوس خلفه.

أطلق صرخات مدوية حادة أجفلتني للحظة، خفت وترددت للحظة، حتى أخرجت خنجري من غمده وأخذت أتحسس الكوة، وضعت يدي فوق الجدار واقتربت منه لأسكت هذا الصراخ، وفعلًا أسكتُّه.

حل منتصف الليل بينما أوشكت على الانتهاء من مهمتي، كنت قد انتهيت من الصف الثامن والتاسع والعاشر، حتى أنني أنجزت جزءًا من الصف الحادي عشر الأخير، لم يتبق إلا حجر واحد أضعه وأثبته بالإسمنت، كان ثقيلًا فوضعته بالكاد في مكانه المقصود، ولو جزئيًا، ولكن حينها صدرت ضحكة مخيفة من داخل الكوة أوقفت شعر رأسي، تبع الضحكة صوت حزين مزيته كصوت النبيل فورتناتو بصعوبة.. قال الصوت:

- ها ها ها، يا لها من مزحةٍ رائعة.. سنضحك عليها كثيرًا في القصر.. ها ها ها، ونحن نحتسي النبيذ، ها ها ها.

- الأمونتيلادو!

- أجل، إنه الأمونتيلادو.. ولكن ألم يتأخر الوقت؟ ألا ينتظروننا في القصر؟ السيدة فورتناتو والبقية.. دعنا نرحل.

قلت: "أجل.. فلنرحل"

- بالله عليك يا مونترزور!

- أجل، بالله عليّ.

نفذ صبري وأنا أصغي إليه عبثًا، فناديته بصوتٍ عال:

- فورتناتو!

لم أسمع إجابة منه، فناديته مجددًا:

- فورتناتو!

لم أسمع إجابة، فأدخلت المشعل عبر الفتحة الوحيدة التي لم أغطها.. لم أسمع بالداخل إلا جلجلة السلاسل، تعب صدري من رطوبة السرداب، أسرعت في إنهاء مهمتي، فوضعت الحجر الأخير في مكانه وغطيته بالإسمنت، أعدت بقايا العظام إلى مكانها لتستند إلى الجدار الجديد، لم يزعجها أي بشر لنصف قرن.. فلترقد بسلام!

***





صمت

(حكاية أسطورية)

(1838)



"قمم الجبال صامتة.. وكذلك الوديان والجُرُف والكهوف"

– ألكمان

"أنصت إليّ".. قال الشيطان واضعًا يده على رأسي: "إن المكان الذي أحدّثك عنه مكانٌ كئيب في ليبيا، على حدود نهر زائير.. مكانٌ لا هادئ ولا صامت".

"مياهه شاحبة مصفرّة لا يأخذها مجراها إلى البحر، بل ترتجف إلى أبد الآبدين ومن خلفها قرص شمسٍ أحمر، فتتشنج وتتقلّب على كلا جانبي النهر طيني القاع وعلى امتداد أميالٍ بعيدة صحراوات شاحبة من زنابق المياه الشاحبة، تتنهّد الزنابق الواحدة منها إلى الأخرى في هذا الانعزال، وتتمدد وصولًا إلى السماء رقابها الطويلة الضخمة، وتومئ ريحةً وجيئة رؤوسها المؤبدة، كما تُسمع همهمةٌ ضعيفة صادرة من الزنابق كصوت جريان المياه.. ثم تتنهّد الواحدة منها إلى الأخرى"

"غير أن عالمها محدود بغابةٍ ظلماء مريعة سامدة، وكما تلطم الأمواج شواطئ جزر الهبرديس تهيج الشجيرات النامية باستمرار، ولكن لا تحس ريحًا في السماء، تهتز الأشجار القديمة الطويلة هنا وهناك وتصدر صوتًا صاخبًا هائلًا، ومن قممها السامدة تتساقط قطرات الندى الواحدة تلو الأخرى بلا توقف، وفي القاع تنمو زهورٌ سامة غريبة تتلوّى بكسلٍ قلق، وفي السماء تصدر حفيفًا وصخبًا عاليًا سُحُبًا رمادية متجهة إلى الغرب دائمًا، ثم تلتف وتعتم فوق جدارٍ ناري يلوح بالأفق، ولكن لا تحس ريحًا في السماء، وعلى شواطئ نهر زائير مكانٌ لا هادئ ولا صامت"

"كان وقت الليل، هطلت الأمطار، ومع هطولها استحالت دماءً، وقفت في مستنقعٍ بين الأشجار الطويلة تتساقط فوق رأسي الأمطار، فتتنهّد الزنابق الواحدة منها إلى الأخرى إجلالًا لعزلتها"

"وعلى حين غرة بزغ القمر من بين طيّات الضباب الشنيع بلونٍ قرمزي، وقع ناظراي على صخرةٍ رمادية هائلة مستقرة قرب شاطئ النهر ينيرها ضي القمر، كانت صخرة رمادية بشعة وطويلة.. على مقدمتها حُفرت حروف، فسرت عبر المستنقع بين الزنابق حتى صرت قرب الشاطئ لأقرأ الحروف على الصخرة، غير أنني لم أفك شفرتها.. وبينما هممت عائدًا إلى المستنقع استحال لون القمر أحمرًا بالكامل، استدرت ناظرًا إلى الصخرة وحروفها.. شكّلت الحروف كلمة (عزلة)".

"نظرت إلى الأعلى فوجدت رجلًا يقف على قبة الصخرة، اختبأت بين الزنابق لأراقب تصرفات الرجل.. كان طويلًا تنتصب قامته بجلال، تغلف جسمه سترة روما القديمة، ورغم أن تفاصيل جسمه ليست بالواضحة، إلا أن هيئته توحي بالألوهية، خصوصًا بعدما كشف وشاح الليل والضباب والقمر والندى عن تقاسيم وجهه، كان حاجباه شامخين، وعيناه تبرقان، وعلى خدّيه قليلًا من التجاعيد، قرأت أمارات الحزن والضجر والاشمئزاز من جنس البشر، وقرأت أيضًا اشتياقًا بعد طول وحدة".

"جلس الرجل على الصخرة وأحنى رأسه على يده، ثم نظر متأملًا العزلة.. نظر إلى الأسفل نحو الشجيرات القصيرة المضطربة، ثم إلى الأعلى نحو الأشجار الطويلة السامدة، ثم أعلى وأعلى نحو السماء الحفيفة والقمر القرمزي، رقدت قريبًا بين الزنابق أراقب تصرفات الرجل، ارتعد الرجل في العزلة، ولكن الليل خبا، فجلس على الصخرة"

"بدّل الرجل انتباهه من السماء إلى نهر زائير الكئيب، والمياه الصفراء البشعة، والزنابق الشاحبة الكثيفة.. استمع الرجل إلى تنهيدات الزنابق والهمهمات الصادرة

عنها، رقدت مختبئًا أراقب تصرفات الرجل، ارتعد الرجل في العزلة، ولكن الليل خبا، فجلس على الصخرة"

"ثم عدتُ إلى خبايا المستنقع وبعدت وسط الزنابق الكثيفة واستدعيت أفراس النهر الساكنة بين فينات خبايا المستنقع، سمعت أفراس النهر دعوتي فجاءت ومعها أفراس البحر إلى أسفل الصخرة، زأرت عاليًا على نحوٍ رهيب تحت القمر، رقدت مختبئًا أراقب تصرفات الرجل، ارتعد الرجل في العزلة، ولكن الليل خبا، فجلس على الصخرة"

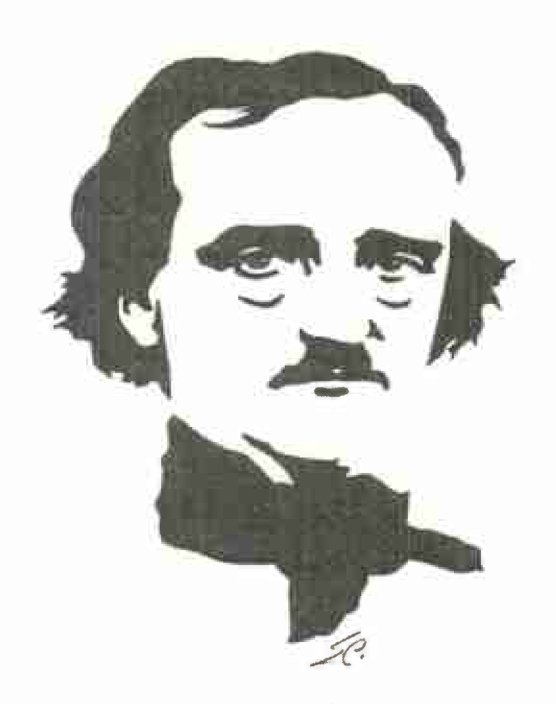
"ثم لعنت الأفراس جمعاء على ما سببته من جلبة، حتى هبّت زوبعة تكوّنت في السماء التي لم يكن يُحس فيها ريحًا. شحبت السماء بميلاد الزوبعة، ثم تساقطت قطرات المطر على رأس الرجل، وقدمت أمواج النهر العالية، امتلأ النهر بالزَبَد، فصرخت الزنابق في منابتها. تفتّتت الغابة قبيل هبوب الريّاح، ثم دوي الرعد وبرقت السماء، فاهتزت الصخرة وهوت، رقدت مختبئًا أراقب تصرفات الرجل، ارتعد الرجل في العزلة، ولكن الليل خبا، فجلس على الصخرة"

"زاد غضبي فلعنت من جديد، لعنت الصمت، والنهر، والزنابق، والرياح، والغابة، والسماء، والرعد، وتنهيدات الزنابق. لعنتهم جميعًا، غير أنهم ظلوا كما كانوا. أقلع القمر على الصعود إلى السماء، وخبت الزوبعة، ومات الرعد، وهدأت الرياح، وعادت المياه إلى مجاريها، وسكنت الأشجار، وكفّت الزنابق عند التنهيد، وصمتت الهمهمات، ولم يُسمع صوت عبر تلك الصحراء الواسعة اللامتناهية. نظرت إلى الحروف المكتوبة على الصخرة، وجدتها تغيرت.. صارت (صمت)"

"وقع ناظراي على ملامح الرجل.. ملامحه شاحبة من أثر الرعب، رفع رأسه على عجلٍ من يده، ثم انتصب أعلى الصخرة واستمع.. إلا أن صوتًا لم يأتِ من الصحراء الواسعة اللامتناهية، وارتسمت حروف كلمة "صمت" على الصخرة، ارتجف الرجل وأشاح بوجهه جانبًا، ثم هرب بعيدًا على عجل، حتى لم أعد أراه"

والآن هناك حكايات حلوة بين طيّات (الماجي) المغلّفة بالحديد والحزن.. أقول أن بين تلك الطيّات تواريخ عظيمة تحكي عن الجنة، والأرض، والبحر العظيم، والجني الذي حكم البحر، والتراب، والسماء السامدة، هناك الكثير من المعرفة في السطور التي قالها (السيبل)، وأمورٌ مقدّسة سُمع عنها منذ زمنٍ طويل من الأوراق الخافتة التي كانت ترتعد حول (دودونا)، ولكن لأن الله حي فإن الحكاية التي ألقاها الشيطان على مسامعي وهو يجلس بجوار قرب القبر، أقول أن تلك الحكاية هي الأمتع على الإطلاق، وبعد أن أنهى الشيطان حكايته تراجع إلى داخل القبر وضحك.. لم أضحك معه، فلعنني لأنني لم أشاطره الضحك، خرج الوشق الذي كان يسكن هذا القبر منذ أبد الآبدين ليرقد عند قدم الشيطان ويمعن النظر إلى وجهه.

***



المنطاد وخدعته

(1844)

أخبار مذهلة بالقطار السريع تأتيكم من نورفوك!

عبور الأطلسي في ثلاثة أيام! انتصارٌ مبهر لآلة السيد مونك ماسون الطائرة! وصول السيد ماسون، والسيد روبرت هولاند، والسيد هنسون، والسيد هاريسون أنسوورث، وأربعة آخرين في منطاد التوجيه "فيكتوريا" إلى جزيرة سوليفان بالقرب من تشارلستون س. ص. بعد سفرٍ استمر خمس وسبعين ساعة من أرضٍ إلى أرض، فيما يلي تفاصيل الرحلة بالكامل!

إن النكتة الملصقة بالعنوان أعلاه بأحرفٍ كبيرة رائعة نالت الإعجاب نظرًا لذيوعها ونُشرت أساسًا باعتبارها حادثة حقيقية جاءت في صحيفة نيويورك صن اليومية، وهو الأمر الذي ساعد على تحقيق غرض تقديم وجبةٍ غذائيةٍ صعبة الهضم على الفضوليين إبّان الساعات القليلة الفاصلة بين وصول بريدين من تشارلستون.. تفوقت سرعة "الصحيفة الوحيدة التي تمتلك الأخبار" على أي سرعةٍ استثنائية.

الحق يُقال أن منطاد "فيكتوريا" لو لم ينجز رحلته - كما يؤكد البعض - سيكون من الصعب تحديد سبب ذلك.

غير أن المشكلة الكبرى قد حُلّت في النهاية، فأخضع العلم الهواء إلى جانب الأرض والمحيط، فأصبحت كلها طريقًا سريعًا عامًا يناسب الإنسان، لقد عبر منطاد "فيكتوريا" الأطلسي بالفعل، بدون صعوبة، بدون أي خطرٍ داهم، بسيطرةٍ كاملة على الآلة، وفي مدةٍ زمنيةٍ وجيزة قوامها خمس وسبعون ساعة من أرضٍ إلى أرض، ونظرًا للحيوية التي

يمتاز بها وكيلنا في تشارلستون س. ص. استطعنا أن نكون أول من يقص رواية تفصيلية لأحداث تلك الرحلة المذهلة التي استمرت من السبت الموافق السادس من الشهر الحالي في تمام الساعة الحادية عشر صباحًا إلى الثلاثاء الموافق التاسع من نفس الشهر في تمام الساعة الثانية مساءً، والتي كان أبطالها السيد ليفيراد برينجرست، والسيد أوسبورن ابن أخ اللورد بينتنك، والسيد مونك ماسون،والسيد روبرت هولاند (الطيّار المعروف)،والسيد هاريسون أنسوورث (مؤلف جاك شيبرد)، والسيد هنسون (مخطط الآلة الطائرة الأخيرة الفاشلة)، وطيارين من وولوتش، ليصل عددهم الإجمالي ثمانية.. يمكن الاعتماد على المعلومات التي نقدمها للقارئ هنا باعتبارها أصيلة ودقيقة من كل النواحي، وذلك باستثناءٍ طفيف وهو أنها نُقلت بالحرف من مذكرات السيد مونك ماسون والسيد هاريسون أنسوورث، والذي بسبب كياسته يدين له وكيلنا بالكثير من المعلومات الشفهية الكثيرة المتعلقة بالمنطاد نفسه وهيكله وأمورٍ أخرى مهمة.إن التغيير الوحيد الذي طرأ على المخطوطة التي استلمناها تم بغرض صياغة قصة عميلنا السيد فورسيث بصورةٍ مترابطةٍ ومفهومة، نظرًا لأنه نقلها على عجل.

أثخن إخفاق الراحلين السيد هنسون والسيد جورج كايلي في الاهتمام العام بأمر الملاحة الجوية..

اعتمد مخطط السيد هنسون (الذي بدا معقولًا جدًا حتى لرجال العلم) على فكرة المستوى المائل انطلاقًا من فوق هضبة مستعملًا قوةٍ خارجية تستمر بريشٍ تدور بالطاقة الغازية، تشبه تلك الريش ريش الطاحونة في الشكل والعدد، إلا أن كل التجارب التي خضع لها هذا النموذج في معرض أديلايد كانت فاشلة، فتشغيل تلك الريش لم يحفز الآلة على الإطلاق، بل بالعكس أعاق حركتها ومنعها من الطيران، استمدّت قوتها الدافعة من انحدار المستوى المائل، فحملت تلك القوة الآلة حين تكون الريش ساكنة أكثر مما وهي متحركة، وهو أمر أثبت عدم جدواه، ففي غياب تلك القوة الدافعة

المغذية لابد أن تهبط الآلة بالكامل، دفعت تلك الفكرة السيد جورج كايلي إلى التفكير في الدفع بقوةٍ دافعة إلى آلةٍ ما لها قوة مستقلة؛ أي منطاد، ومع حداثة وأصالة الفكرة فإن الأمر ينحصر بالنسبة للسيد جورج في كيفية تنفيذها،فعرض نموذجًا من اختراعه في معهد بولي تكنيك، طّبقت فكرة القوة الدافعة في هذه الحالة على أسطحٍ مُقطّعة أو ريشٍ دائرة عددها أربع، أثبتت فشلها تمامًا، فلم يتحرك المنطاد ولم تسعفه قوته الدافعة، ولذا كان المشروع بالكامل فاشلًا.

ولذا أدرك السيد مونك ماسون (الذي سبّبت رحلته من دوفر إلى ويلبرج في المنطاد إثارةً كبيرة عام 1837) فكرة استغلال مبدأ لولب أرخميدس (أداة لولبية تُستخدم لرفع المياه) بغرض الدفع عبر الهواء، فعزا فشل خطة السيد هنسون وخطة السيد جورج كايلي إلى انقاطع السطح الانسيابي الحامل في الريش المستقلة، نُفّذت التجربة الأولى في ويليز رووم، ثم نُقل النموذج بعدها إلى معرض أديلايد.

كان هذا النموذج كنموذج السيد جورج كاريلي، نموذجًا مجسمًا ناقصًا، كان امتداده ثلاثين قدمًا وست بوصات، وارتفاعه ستة أقدامٍ وثماني بوصات، يحوي النموذج ثلاثمائة وعشرين قدم مربع من الغاز الذي يعْطي واحدًا وعشرين رطلًا مع أول اشتعال، لو أنه من الأكسجين النقي، هذا قبل أن يفسد أو يتسرب الغاز، بلغ وزن الآلة كلها بالمعدات سبعة عشر رطلًا، مع احتياطي أربعة أرطال، أسفل مركز المنطاد يوجد إطار خشبي خفيف بعرض تسعة أقدام موصل بالمنطاد نفسه بشبكة بالطريقة المعتادة، عُلّقت من هذا الإطار الخشبي سلّة من الأماليد المجدولة أو عربة، يتكون اللولب من محور يتكون هو الآخر من أنبوبة نحاسية جوفاء بطول ثماني عشرة بوصة، تمر عبرها عبر أنبوب حلزوني ينحدر بزاوية قدرها خمس عشرة درجة سلسلة من الأذرع من السلك الحديدي بطول قدمين لتبرز من الجهتين،الأذرع الخمس عشرة مربوطة من الطرفين الخارجيين بشريطين من السلك المسطّح، وهكذا دواليك يصبح شكل اللولب، ويكمل

اللولب غطاء حريري مزيت مُقطع إلى قطعٍ صغيرة مثلثة الشكل ومحكمة لتوفّر سطحًا واحدًا مقبولًا..

هناك دعامات من الأنابيب النحاسية تدعم كل طرف من طرفي محور اللولب تنزل من الطوق، وعند الأطراف السفلية من هذه الأنابيب ثقوب يدور عليها مركز المحور، ومن طرف المحور القريب من العربة تخرج أسطوانة فولاذية تربط اللولب بترس وزنبرك مثبت إلى العربة.. عند تشغيل هذا الزنبرك يدور اللولب سريعًا وبذلك تتحرك الأجزاء الأخرى كلها، ومن خلال الدفة يمكن توجيه الآلة إلى أي اتجاه، يتميز الزنبرك بطاقة كبيرة على الرغم من أبعاده، حيث كان قادرًا على رفع خمسة وأربعين رطلًا فوق أسطوانة قطرها أربع بوصات بعد أول لفة، ثم تتزايد قدرته تدريجيًا أثناء ارتفاعه، يبلغ وزنه ثمانية أرطال وست أوقيات، الدفة عبارة عن إطار خفيف الوزن مصنوعة من الصفيح مغطى بالحرير في هيئة مضرب البادمنتون، ويبلغ طولها ثلاثة أقدام تقريبًا، وعرضها قدمًا واحدًا، ووزنها أوقيتين تقريبًا.

يمكن قلب الدفة لتصبح سطحية، كما يمكن توجيهها إلى الأعلى أو إلى الأسفل، كما إلى اليمين أو إلى اليسار، وبهذا تسمح الدفة للملّاح بنقل مقاومة الهواء المتولدة في الوضع المنحدر إلى أي جهةٍ تُرام، وبهذا يوجه المنطاد كله إلى الجهة المقابلة.

اشتغل هذا المنطاد (الذي وصفناه سريعًا لقلة الوقت) في معرض أديلايد، حيث وصلت سرعته إلى خمسة أميالٍ في الساعة. ومن الغريب أنه قد أثار اهتمامًا متواضعًا مقارنةً بآلة السيد هنسون المعقدة السابقة، هذا العالم عنيد حينما لا يحترم أي شيء يحمل معالم البساطة، انتشرت فرضية تقول أنه من أجل تحقيق حلم الملاحة الجوية لابد من صنع نموذج معقد جدًا بناءً على مبادئ ديناميكيته العميقة.

ومع ذلك، كان السيد هنسون راضيًا جدًا عن نجاح آلته النهائية، فأخذ يبني منطادًا على التو – إن كان في الإمكان – بسعةٍ كافية لاختباره بالقيام برحلةٍ ذات مدى محدد،

فالهدف الأصلي منه عبور القناة البريطانية كما كان الهدف من منطاد ناسو، ومن أجل هذا الهدف طلب رعاية السير إيفرارد برنجرست والسيد أوسبورن، وحصل عليها بالفعل، فهما نبيلان معروفان ببراعتهما العلمية، وبالذات نظرًا للاهتمام بتقدم الملاحة الجوية من جانبهما، وبناءً على رغبة السيد أوسبورن، ظل هذا المشروع طي الكتمان بعيدًا عن العامة، بينما كان الوحيدون الذين استحقوا ثقته هم منخرطين فعليًا في بنائه، حدث ذلك في مركز السيد أوسبورن بالقرب من بنستروثال في ويلز،تحت إشرافه، وإشراف السيد ماسون، والسيد هولاند، والسير إيفرارد برنجرست.. سُمح للسيد هنسون مع صديقه السيد أنسوورث برؤية المنطاد بشكلٍ خاص السبت الماضي، حيث قام السيدان بتجهيزاتٍ نهائية للمشاركة في هذه المغامرة، لم يُفهم سبب مشاركة الملاحين، ولكن في غضون يوم أو يومين سنطلع قرّاءنا بأدق تفاصيل هذه الرحلة الاستثنائية.

يتكون المنطاد من الحرير المطلي بالمطاط الصمغي السائل، كما يتمتع المنطاد نفسه بأبعادٍ واسعة. يحتوي على أكثر من أربعين ألف قدمٍ مربع من الغاز، ولكن نظرًا لإنه غاز مُجمد يُستعمل بدلًا عن الهيدروجين الأعلى سعرًا وغير المناسب فإن قوة الآلة الدافعة الناتجة في حالة الاشتعال الكامل لن تزيد عن 2500 رطل، فالغاز المجمد ليس أقل تكلفة فقط، بل أسهل في الاستعمال والتشغيل.

نحن مدينون للسيد تشارلس جرين لدراسته التمهيدية التي قدمها للقارئ العادي عن الملاحة الجوية،وبناءً على اكتشافه، فإن عملية الاشتعال لم تكن باهظة فقط، بل ليست أكيدة كذلك، ضاع يومان، بل ثلاثة، في محاولات تدبير ما يكفي من هيدروجين لملء المنطاد، حيث يتسرب الهيدروجين بسبب صعوبة التعامل معه وتفاعله مع الهواء المحيط به في منطادٍ مناسب تمامًا للاحتفاظ بما فيه من غازٍ متجمد غير متحول في نوعيته أو كميته لمدة ستة أشهر لن تبقى تلك الكمية من الهيدروجين كما هي لمدة ستة أسابيع في حالتها النقية المتكافئة.

قُدّرت القوة الدافعة بألفي وخمسمائة رطل، بينما بلغ الوزن الكلي للأفراد ألفًا ومئتين رطل فقط، ولذا يتبقى ألف وثلاثمائة رطل؛ حيث يستهلك ثقل الموازنة ألفًا ومئتين ثانية تُوزع في حقائب مختلفة الأحجام مدون عليها أوزانها والمقاييس والمناظير والبراميل التي بها مؤونة أسبوعين كما براميل مياه وعباءات وخُرج وأمورٌ أخرى مختلفة لا غنى عنها تتضمن سخان قهوة صُمم خصيصًا لتسخين القهوة بواسطة الجير المطفي، وبذلك يُستغنى تمامًا عن إشعال النار، لو أنه من الطيب فعل ذلك..

كما توجد أشياء أخرى باستثناء ثقل الموازنة وأمور أخرى لا طائل منها معلقة في الطوق أعلى الرأس، أما بخصوص العربة، فهي أصغر حجمًا بكثير وأخف وزنًا مقارنةً بالملحقة بالنموذج، العربة مصنوعة من الأماليد المجدولة الخفيفة المتينة جدًا بالنسبة لآلة تبدو ضعيفة جدًا، حيث يصل عمق حافتها الخارجية إلى أربعة أقدام، كما أن الدفة أكبر بكثير مقارنةً بالنموذج، أما اللولب فأصغر بكثير، كما أن المنطاد مزود بمرساة وحبل لا غنى عنه في التوجيه.. وهنا يجب توجيه بعض التوضيحات للقارئ الذي لا يعرف تفاصيل الملاحة الجوية.

فور إقلاع المنطاد يصبح خاضعًا لقوى عدة؛ ظروف مختلفة قد تخلق اختلافًا في الوزن، بمعنى أنها قد تعزز قوته الصاعدة أو تضعفها..

على سبيل المثال، قد يصل ترسيب الندى فوق الحرير إلى مئات الأرطال، وحينها يجب إلقاء الصابورة، وإلا ستهبط الآلة.. وبعد إلقاء الصابورة وتبخير آشعة الشمس المشرقة للندى المترسب وانتشار الغاز في الحرير في نفس الوقت، سيصعد المنطاد مجددًا، ولقياس مقدار هذا الصعود يكون المصدر الوحيد (أو بمعنى أدق كان حتى اخترع السيد جرين الحبل الموجه) هو تسريب الغاز من الصمام، ويكون هذا التسريب مناسبًا للقوة الدافعة، وفي فترةٍ بسيطة يستنزف أفضل المناطيد كل مصادره – بالضرورة – ويهبط إلى الأرض، تلك كانت أكبر عقبة تواجه رحلاته الطويلة.

يعالج حبل التوجيه تلك الصعوبة بأبسط وسيلة واضحة؛ فحبل التوجيه طويل جدًا يتدلى من العربة، والهدف منه منع المنطاد من تغيير مستواه لأقل درجة ممكنة.. على سبيل المثال، لو كان هناك ترسيب للرطوبة على الحرير وبدأ المنطاد في الهبوط، فلا طائل هناك من التخلص من الصابورة لمعالجة زيادة الوزن، وذلك لأنها تعالج أو تعادل أو تُبطل بالنسبة نفسها تمامًا، وذلك من خلال وضع أو ترسي نفس الكمية من طرف الحبل على الأرض، فإذا حدث أي شيء دعا إلى خفةٍ غير مناسبة – من جهةٍ آخرى – وصعود المنطاد، تُعادل هذه الخفة فورًا بالوزن الإضافي الذي يساهم به الحبل المرفوع عن الأرض، وبهذه الطريقة لا يرتفع المنطاد وكذلك لا ينخفض إلا بالكاد، بل وتظل مصادره الغازية أو الصابورة نفسها صحيحة نسبيًا. عند مرور المنطاد فوق مساحةٍ مائية يصبح ضروريًا استخدام براميل نحاسية أو خشبية صغيرة مملوءة بصابورة سائلة أخف من المياه، تطفو هذه البراميل وتعمل عمل الحبل على الأرض، هناك مهمة أخرى مهمة لحبل التوجيه، وهي تحديد اتجاه المنطاد، يُجَرّ الحبل على الأرض أو في البحر حينما يكون المنطاد طائرًا، وعليه يكون المنطاد متقدمًا على الحبل، ومن ثم تحدد البوصلة قبلة المنطاد عند المقارنة بين الوضعين النسبيين لكليهما (المنطاد والحبل)، وبنفس الطريقة تشير الزاوية التي يصنعها الحبل مع محور الآلة الرأسي إلى سرعة المنطاد، وعندما لا يصنع الحبل زاوية، أو عندما يتدلي الحبل عموديًا أو متعامدًا يكون الجهاز في سرعةٍ ثابتة، ولكن كلما زادت الزاوية، أو بمعنى آخر كلما سبق المنطاد الحبل كلما زادت السرعة، والعكس صحيح.

ونظرًا لأن الهدف الرئيس كان عبور القناة الإنجليزية والهبوط قرب باريس بقدر الإمكان، فإن المسافرين قد قاموا بالترتيبات اللازمة لتجهيز حالهم بالجوازات الموجهة للقارة بأسرها، محددين طبيعة الرحلة الاستكشافية، بالضبط كما كان حال رحلة منطاد ناسو، كما خوّل المغامرون الإعفاء من الإجراءات الرسمية الاعتيادية، ورغم كل هذا وقعت أحداث لم تكن متوقعة جعلت تلك الجوازات غير ذات ضرورة.

بدأ الاشتعال بهدوءٍ شديد مع طلوع شمس السبت الموافق السادس من الشهر الحالي في ساحة بيت ويل فور، وهو مقر السيد أوسبورن الواقع على بعد ميلٍ تقريبًا من بنستروثال شمالي ويلز، وعند الحادية عشر وسبع دقائق، وبعدما أصبح كل شيء جاهزًا للرحيل، انطلق المنطاد صاعدًا بلطفٍ وثبات قاصدًا الجنوب، لم يُستخدم اللولب أو دفة التوجيه خلال النصف ساعة الأولى من الانطلاق، ونواصل الآن مع يوميات الرحلة كما قصّها علينا السيد فورسيز من مخطوطات السيد مونك ماسون والسيد أنسوورث، كُتبت هذه المخطوطات بخط يد السيد ماسون وأضاف لها السيد أنسوورث ملاحظات تذييلية بصفةٍ يومية لتعطي عن قريب الجمهور تفاصيل أكثر، كما ستقص بكل تأكيد رواية تشويقية مثيرة للرحلة.

***

اليوميات..

السبت، الموافق الرابع من أبريل.. بما أن كل التجهيزات التي قد تسبب لنا الإحراج – على الأرجح – قد تمت خلال الليل، فقد شرعنا في الاشتعال هذا الصباح مع طلوع النهار، وبسبب الضباب الكثيف الذي حاصر الحرير جاء التعامل معه صعبًا، فتأخر البدء الفعلي إلى حدود الحادية عشرة ظهرًا.. حينها أطلقنا المنطاد ومعنوياتنا عالية، ارتفعنا برفق وثبات مع نسمةٍ خفيفة آتية من الشمال حملتنا باتجاه القناة الإنجليزية، جاءت القوة الدافعة إلى الأعلى أعظم مما توقعنا، تجاوزنا الارتفاعات الصخرية السامدة أثناء صعودنا، وتعرضنا لآشعة شمسٍ مباشرة زادت من سرعة صعودنا، ورغم هذا لم أرِد تسريب الغاز مبكرًا ونحن في أول المغامرة، ومن ثم انتهينا من الصعود مؤقتًا.. أنزلنا حبل التوجيه من المنطاد فور الانطلاق، وذلك من جهةٍ أخرى حيث رفعناه بعيدًا عن الأرض، حينئذٍ كنّا نصعد بسرعةٍ عالية جدًا.. ثبت المنطاد بصورةٍ غير عادية، وبدا جميلًا.. أشار المقياس إبّان الدقائق العشر الأولى تقريبًا من بداية الرحلة إلى ارتفاعنا الذي وصل إلى خمسة عشر ألف قدم، كان الجو جميلًا، ومنظر البلد أسفلنا في غاية الرومانسية عند مشاهدته من أي نقطة؛ منظر رائع على وجه الخصوص.. بدت الممرات العميقة الكثيرة التي جسّدت منظر البحيرات نظرًا للتبخر الكثيف الذي يغطيها والجزر والصخور في الجنوب الشرقي مضطربة معقدة تشبه المدن

الضخمة في الحواديت الخرافية الشرقية. كنا نقترب بسرعة من الجبال جنوبًا، ولكن الارتفاع الذي وصلنا إليه كان أكثر من كافٍ، فسمح لنا بالمرور من تلك الجبال بأمان.. حلقنا فوقها بجمال في دقائق معدودات، اندهش السيد أنسوورث والملّاحان من منظر الجبال التي لم تبدُ مرتفعة من العربة، ذلك لأن ارتفاع المنطاد العظيم صغّر اختلاف سطح الأرض بالأسفل إلى مستوى الصفر تقريبًا، وعند الحادية عشرة والنصف، أثناء تقدمنا جنوبًا، شاهدنا قناة البريستول لأول مرة، وبعد ربع ساعة ظهر خط كاسر الأمواج على الساحل أسفلنا مباشرةً، وفي تلك اللحظة بدأنا في إطلاق غازٍ يكفي لجعل حبل التوجيه مع عوامة التوجيه في المياه، وفور أن فعلنا هذا فورًا بدأنا في الهبوط شيئًا فشيئًا.. وفي غضون عشرين دقيقة غطست العوامة الأولى ثم لمست بعدها العوامة الثانية سطح المياه، وبعدها مباشرةً أصبح ارتفاعنا ثابتًا، أصبحنا متلهفين لاختبار دفة التوجيه واللولب لتحويل اتجاهنا شرقًا أكثر قاصدين باريس، وباستخدام دفة التوجيه غيّرنا الاتجاه وصار مسارنا بزاوية قائمة تقريبًا مع مسار اتجاه الرياح.. في تلك اللحظة شغلنا زنبرك اللولب وفرحنا عندما وجدناه يوجهنا إلى حيث نريد، أطلقنا حينها تسع تحيّات وألقينا في البحر زجاجة بداخلها مخطوطة تحكي قصة هذا الابتكار، وما كدنا ننتهي من ابتهاجنا حتى وقع أمرٌ غير متوقع؛ أمرٌ أحبطنا كثيرًا.. انفلت العمود الحديدي الذي يربط الزنبرك الدافع أو الرقّاص من مكانة على حين غفلة عند نهاية العربة، ربما لتأرجح العربة نظرًا لحركة أحد الملاحين – أو كلهم – الذين أخذناهم معنا إلى الأعلى، تعلّق العمود متدليًا بعيدًا عنّا، وبينما حاولنا استعادته وكل اهتمامنا منصب على هذا الأمر دخلنا تيارًا قويًا من الرياح هبّ علينا من الشرق، فحملنا بقوة أخذت في التزايد سريعًا إلى الأطلسي، وسرعان ما وجدنا أنفسنا ننحرف إلى البحر بمعدلٍ لا يقل أكيدًا عن خمسين أو ستين ميلًا في الساعة.. حينها بدت جزيرة كيب كلير جنوب أيرلندا على بعد أربعين ميلًا من شمالنا قبل أن نفكّر كفاية فيما نقبل عليه. حينها اقترح السيد أنسوورث شيئًا استثنائيًا رأيته وهميًا أو غير عقلاني على الإطلاق، أيّده فورًا

السيد هولاند.. اقترح السيد أنسوورث استغلال العاصفة القوية التي حملتنا، وبدلًا من محاولة العودة إلى باريس نحاول الوصول إلى ساحل أمريكا الشمالية، وبعد تفكيرٍ ليس بعميق وافقت طواعيةً على مقترحه الجريء الذي اعترض عليه الملّاحان فقط، وهو أمر غريب فعلًا! ونظرًا لأننا الطرف الأقوى في المعادلة فقد سيطرنا على مخاوفهما وواصلنا طريقنا بعزم، وجّهنا الدفة غربًا، ولكن نظرًا لجرجرة العوامة التي أعاقت تقدمنا فعلًا، ولأننا لا يسعنا التحكم في المنطاد صعودًا أو هبوطًا، فقد ألقينا خمسين رطلًا من ثقل الموازنة ولففنا الحبل (بواسطة مرفاع) بالقدر الذي رفعه تمامًا عن سطح البحر.. سرعان ما ساعدتنا هذه المحاولة في الوصول إلى سرعةٍ متزايدة في التقدم، ونظرًا لتجدد العاصفة صارت سرعتنا خيالية تقريبًا. أصبح الحبل يطير خلف المنطاد وكأنه علمٌ خفّاق يرفرف فوق سفينة، لا يهم كثيرًا أن أخبركم بأن مرور فترةٍ زمنية وجيزة جدًا كان كافيًا لكي يختفي الساحل عن أنظارنا.. عبرنا فوق عددٍ لا حصر له من السفن من شتى الأنواع، قليل منها حاول اقتحام الرياح وأغلبها خضع لها، تسبب مرورنا فوق تلك السفن إثارة كبرى على أسطحها جميعًا، واستمتعنا كثيرًا بها، وخصوصًا الرجلين الذين كانا تحت تأثير شراب الجنّ هربًا من أي شكٍ أو خوفٍ بداخلهما.. أطلقت الكثير من السفن طلقات نارية، وحيّتنا كل السفن بصيحاتٍ عالية سمعناها بوضوحٍ مدهش، كما لوّحوا لنا بالقبعات والمناديل.. تقدمنا طوال الليل على نفس المنوال بدون أي يعكر صفو الرحلة شيء يُذكر، وقرب حلول ظلمة الليل قدّرنا المسافة التي قطعناها، والتي لم تكن أقل خمسمائة ميل، بل على الأرجح أكثر. ظل الرفّاص يعمل بثبات، وساعد بلا شك في تقدمنا كثيرًا، تجددت العاصفة مع غروب الشمس، فصارت إعصارًا وأصبح المحيط جليًا تمامًا أسفلنا لفسفوريته.. لم تهدأ الرياح الشرقية طوال الليل، فدبّ الأمل بداخلنا في النجاح، غير أننا عانينا كثيرًا من البرد وشعرنا برطوبة جو مزعجة، ولكن مساحة العربة الفسيحة سمحت لنا بالاستلقاء واكتفينا بالمعاطف وعدة بطانيات.

ملاحظة السيد أنسوورث..

إن الساعات التسع الأخيرة الماضية هي بلا شك أكثر ساعات حياتي إثارة، لا أتخيل شيئًا أكثر سموًا من ذلك الخطر المجهول الكامن في مغامرةٍ كهذه.. فليمنّ الله علينا بالنجاح! إنني لا أطلب النجاح من الله كي ينجو شخصٌ تافهٌ مثلي، بل من أجل المعرفة الإنسانية، من أجل عظمة الانتصار، غير إن العمل الفذ قابل للتحقيق إلى حد طرح سؤالٍ كـ"لماذا تردد الإنسان في تنفيذه من قبل؟" لقد ساعدتنا عاصفة واحدة كهذه، فلتدفع عاصفة كهذه المنطاد إلى الأمام مسافة أربعة أو خمسة أيام (فالعواصف تدوم أكثر من هذا) وسيُدفع المسافر بسهولة كل تلك المسافة من ساحلٍ إلى ساحل.. وبسبب عاصفة كهذه يصبح الأطلسي الفسيح مجرد بحيرة، كل ما يدهشني الآن هو هذا الصمت المطبق على البحر أسفلنا بغض النظر عن هياجه أكثر من أي شيءٍ آخر، لا يصل صوت المياه إلى السماء، يتلوّى المحيط المشتعل الهائل ويتعذّب بصمت.. تثير الأمواج المتكسّرة السامدة في نفس فكرة الأرواح الضخمة البكماء الكثيرة المتصارعة في كربٍ لا طائل منه. بالنسبة لي في ليلةٍ كهذه فإن الإنسان يحيا قرنًا كاملًا من الحياة العادية، ولذا لن أتنازل أبدًا عن هذا العذاب اللذيذ في مقابل قرنٍ كامل من الحياة العادية.

***

رسالة السيد ماسون..

بحلول العاشرة صباح اليوم هدأت الرياح إلى ثمانٍ أو تسع عقد (بالنسبة لسفينة في البحر)، حملتنا الرياح بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة أو أكثر على الأرجح، ومن ناحيةٍ أخرى، غيّرت الرياح اتجاهنا ناحية الشمال، ومع غروب الشمس حافظنا على مسارنا ناحية الغرب بواسطة اللولب والدفة اللذين أدا الغرض منهما بصورة تثير

الإعجاب، في رأيي فإن المشروع ناجح تمامًا ولن تُعدّ الملاحة الجوية السهلة في أي اتجاه (ليس باللازم في مواجهة الرياح) تشكل معضلة بعد الآن.. لم نستطع التقدم في مواجهة الرياح بالأمس، ولكن بالإمكان الهروب من تأثيرها بصعودنا، هذا إن لزم الأمر.. اقتنعت تمامًا أننا يمكننا شق طريقنا بمساعدة الدفة في مواجهة الرياح القاسية، ومع انتصاف نهار اليوم نفسه صعدنا إلى ارتفاع ألفي وخمسمائة قدم بالتخلص من ثقل الموازنة، رغبنا حينها في الوصول إلى تيارٍ طردي أكثر، ولكن لم نجد تيارٍ مناسب مثل الذي يدفعنا الآن.. لدينا وفرةٌ من الغاز كافية ليأخذنا المنطاد عبر هذه البحيرة الصغيرة حتى لو استمرت الرحلة لثلاثة أسابيع، لا ينتابني أي خوف حيال نتيجتها، يبدو أننا قد بالغنا في صعوبة المهمة وأسأنا فهمها.. بالإمكان اختيار التيار، وحتى لو كانت كل التيارات ضدي بالإمكان التقدم في مسارٍ معقول بمساعدة الدفة.. لم تقع أية حوادث سيئة.. والليل يوحي بالجمال.

***

ملاحظة السيد أنسوورث..

ليس لدي الكثير لأسجّله باستثناء واقع أنني (وهو واقعٌ مدهشٌ بالنسبة إليّ) لم أتعب وأنا على ارتفاعٍ كارتفاع كوتوباكسي الإكوادوري، لم أعانِ من برودةٍ شديدة، ولا صداع، ولا صعوبة في التنفس، لم أرَ السيد ماسون أو السيد هولاند أو السيد أيرارد أو السيد أوسبورن يعانون من تقلصاتٍ في القفص الصدري، ولكن سرعان ما تناقص هذا الإحساس.. كنا نطير بسرعةٍ كبيرة خلال النهار، لابد أننا قطعنا نصف المسافة عبر المحيط. عبر خلال تلك الفترة فوق حوالي عشرين أو ثلاثين سفينة من مختلف الأنواع، أعربت كلها عن اندهاشتها ببهجة.. إن عبور المحيط بمنطادٍ ليس بالأمر الصعب في الأخير، الجمهور رائعٌ دومًا. ملاحظة: تبدو السماء على ارتفاع ألفي وخمسمائة قدم داكنة تقريبًا والنجوم واضحة.. وفي نفس الحين لا يبدو المحيط محدبًا (كما قد يظن

البعض) بل مقعرًا تمامًا وبوضوحٍ شديد (لم يحاول السيد أنسوورث توضيح هذه الظاهرة التي يمكن شرحها رغم هذا، حيث يشكل خطٌ ساقط بارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم عمودي إلى سطح الأرض أو البحر الضلع القائم لمثلثٍ قائم الزاوية، حيث تمتد قاعدة المثلث من زاويته القائمة إلى الأفق ووتره من الأفق إلى المنطاد، إلا أن ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم ليس بالارتفاع الكبير، بل لا يُذكر بالمقارنة مع مدى الأفق.. بشكلٍ أوضح، فإن قاعدة المثلث ووتره سيكونان طويلان جدًا عند مقارنتهما بالضلع القائم، بحيث يُعتبران متوازيين تقريبًا، وبهذه الطريقة يبدو أفق الملّاح على نفس مستوى العربة، وذلك لأن النقطة أسفله تمامًا تبدو على مسافة عظيمة – وهي كذلك – تحت خط الأفق،وعليه؛ يشعر المرء أن البحر مقعرٌ فعلًا، وسيبقى هذا الشعور كما هو حتى يتناسب الارتفاع طرديًا مع الأفق؛ فحينها يختفي التوازي الظاهري لقاعدة المثلث ووتره عندما يظهر تحدّب سطح الأرض الحقيقي).

***

رسالة السيد ماسون..

يوم الإثنين الموافق الثامن من نفس الشهر.. واجهنا هذا الصباح أيضًا مشكلة صغيرة مع عمود الرفّاص الذي يجب إعادة تصميمه من جديد كي لا يتسبب في حادثٍ خطير؛ أقصد العمود الحديدي لا الريش، فالريش لا يمكن تحسينها أكثر من هذا، هبّت رياح شمالية شرقية ثابتة وقوية طوال اليوم وحتى هذه اللحظة، ولحسن الحظ يبدو أنها تميل لصالحنا، أما بالأمس فقط شعرنا جميعًا بالخطر إلى حدٍ ما إثر ضجةٍ غريبة وهزّة انتابت المنطاد مع انهيارٍ سريعٍ وواضح في أداء الآلة كلها، تسبب فيما حدث امتداد الغاز بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو وأيضًا الاضطراب الناجم عنه في جزيئات الثلج الدقيقة التي غطت الشبكة بدورها بشبكةٍ ثلجية خلال الليل.. ألقينا عدة زجاجات للسفن أسفلنا، رأينا سفينة ضخمة تلتقط إحدى الزجاجات – إحدى سفن بريد خط

نيويورك المنتظم – حاولنا قراءة اسمها، ولكن لم يسعنا هذا.. ظهر اسم مثل "أطلنطا" على منظار السيد أوسبورن، الساعة الآن الثانية عشرة مساءً، ومازلنا نتوجه غربًا تقريبًا بسرعةٍ كبيرة.. البحر يبدو فسفوريًا على نحوٍ فريد.

***

ملاحظة السيد أنسوورث..

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، الهدوء يعم الأجواء تقريبًا بقدر حكمي، ولكن من الصعب تحديد الأمر منذ أن تحركنا بحركة الهواء تمامًا.. لم أنم منذ أن تركنا ويل فور، ولكنني لا أستطيع التحمل أكثر من هذا، يجب أن أغفو بعض الشيء، لا أعتقد أننا بعيدون عن الساحل الأمريكي.

***

رسالة السيد أنسوورث..

الساعة الآن الواحدة بعد الظهر، نرى الساحل الجنوبي لكارولينا الجنوبية.. تجاوزنا المشكلة الكبرى، عبرنا الأطلسي بكل ما في الكلمة من معنى، وبمنتهى السهولة.. عبرناه في منطاد، الحمد لله! والآن من يقول أن هذا مستحيل بعد الآن؟

تنتهي اليوميات عند هذه النقطة، ومع ذلك فقد نقل السيد أنسوورث بعض تفاصيل هبوط المنطاد إلى السيد فورسيث، ساد هدوءٌ مميت عندما وقعت أنظار المسافرين لأول مرةٍ على الساحل الذي تعرّف عليه الملّاحون والسيد أوسبورن من فورهم.. وبما أن السيد أوسبورن لديه معارف في فورت مولتري، فقد عزم فورًا على الهبوط فيها، قيد المنطاد فوق الشاطئ بينما كان المد منحسرًا والرمال جافة وناعمة تناسب الهبوط تمامًا.. رموا المرساة فثبتت على الفور، تدافع سكان الجزيرة والقلعة لرؤية المنطاد طبعًا، غير أن لا أحد صدّق قيام تلك الرحلة إلا بصعوبةٍ بالغة، التقطت

المرساة في تمام الساعة الثانية، وبهذا فقد تمت الرحلة كلها في خمس وسبعين ساعة أو أقل تقريبًا، هذا بموجب الحساب من الشاطئ إلى الشاطئ.. لم تقع حوادث خطيرة، لم نخشَ وقوع أي خطرٍ حقيقي في أي لحظة، فُرّغت حمولة المنطاد وثُبّت دون عناء، وعندما أرسلت المخطوطة التي تقص هذه الرواية من تشارلستون كان الطاقم لايزال في قلعة مولتري، لم يتخذوا قراراتهم بعد، ولكن نعد قراءنا بالمزيد من المعلومات سواء يوم الإثنين أو اليوم التالي على أقصى حد.

وبما لا يدع للشك مجالًا؛ فإن تلك المهمة كانت الأكثر عجبًا وإثارةً وأهمية قام بها الإنسان أو حاول القيام بها على الأقل.. كم كانت مهمة رائعة! أحداثها مترتبة على نجاحها، ولا يجوز الآن التفكير في تحديدها.

***

الفهرس